

موسوعة الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء التاسع

دار المرتضى



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

موسوعة
الثورة الحسينية

٩

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١ ٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري

E-mail: mortada14@hotmail.com

Printed in Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

موسوعة
الثورة الحسينية

دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

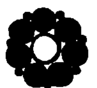
أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

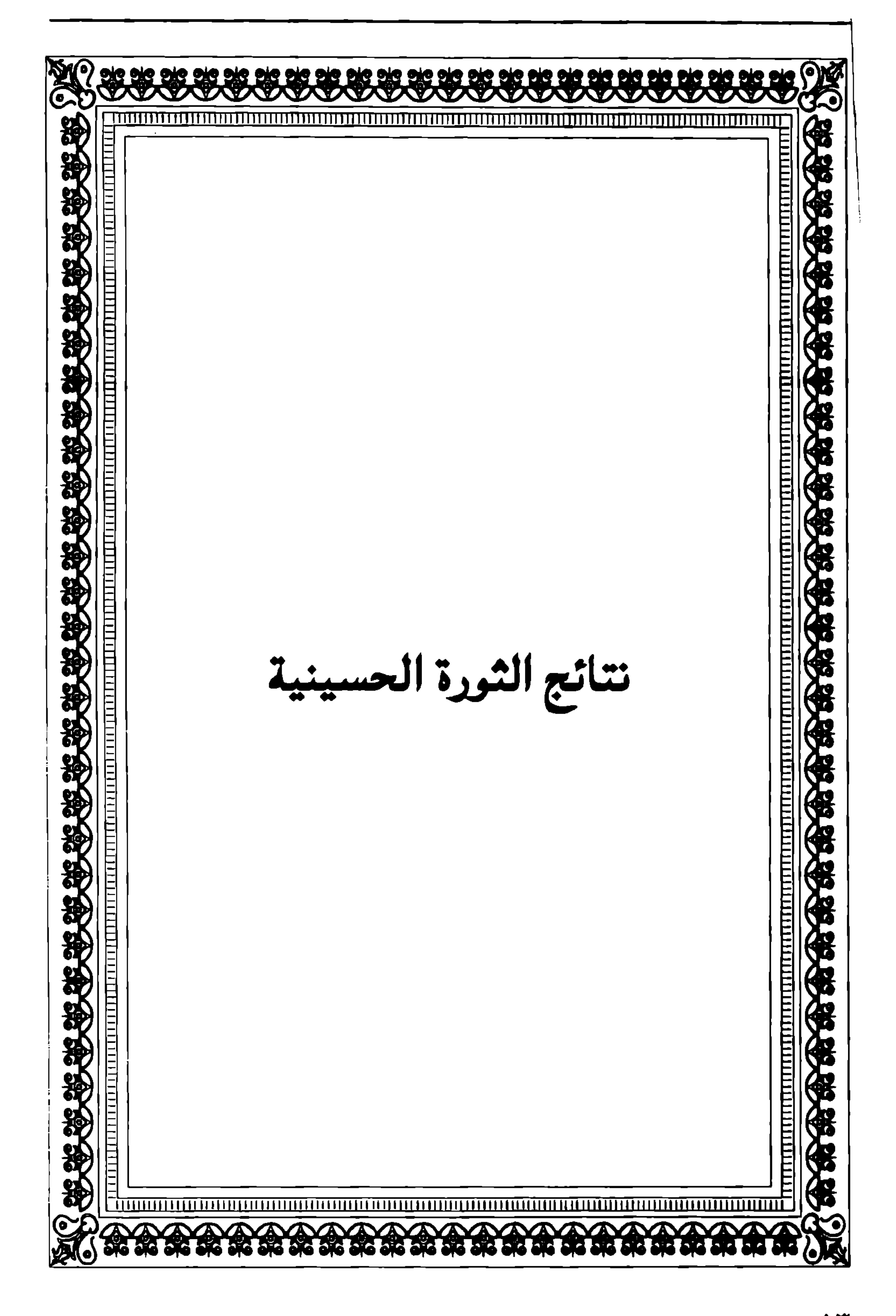
محمد نعمة السماوي

الجزء التاسع


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه





نتائج الثورة الحسينية

٧ - حركة مُطَرّف بن المغيرة بن شُعبة

كان المغيرة بن شعبة أحد مؤسسي الحكم الوراثي الظالم الذي أقامه معاوية، وكان هو الذي اقترح أن يكون يزيد ولياً للعهد، ثم كان هو الداعية الأول لذلك في الكوفة، وسبباً للكوارث التي ألمت بالمسلمين وقيادتهم الحقيقية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام، والتي انتهت إحداها بأكبر فاجعة في التاريخ قتل فيها الحسين وآله وأصحابه في معركة غير متكافئة، أريد لها أن تظل مثالاً في القمع يضع نصب عينيه كل من يفكر بالتصدي لدولة الظلم الأموية أو معارضتها.

ولم يكن المغيرة ـ وهو يساوم معاوية على إبقائه حاكماً على الكوفة ـ يفكر أنه أو أحد أولاده سيكون ضحية للكيان الذي ساهم بتأسيسه، وأن هذا الولد ـ مُطرّف ـ سيكون أحد الثائرين على تلك الدولة الأموية المروانية التي هي امتداد للدولة الأموية السفيانية أو المعاوية[1] إن صح التعبير. . . كما لم يفكر أصلًا بجدوى تلك المساومة الشريرة وقد كان شيخاً فانياً أشرفت سنوات عمره على الانقضاء، وقد مات بعدها بزمن قصير وكانت صفقته خاسرة جداً[2]. . .

رافضون لدولة الظلم ـ يخرج الطيّب من الخبيث

وفي السنوات التي أعقبت موت المغيرة[3]، وحتى خروج إبنه مطرف سنة سبع وسبعين، وهي تتجاوز ربع قرن بقليل كما أنها كانت مزدحمة بالحوادث الخطيرة، وخصوصاً في الكوفة، لم يكن لأولاد المغيرة شأن أو حضور في الحياة العامة أو الحوادث التي وقعت فيها، ولعلهم خلال النصف الأول من تلك الفترة كانوا صغاراً ولعلهم خلال النصف الثاني منها كانوا مشغولين بأمورهم الخاصة وتقوية كيانهم الشخصي المبني على كيان أبيهم الذي عرف بـ (دهائه) و (تسامحه) مع أهل الكوفة،

---

(١) نسبة إلى معاوية بن أبي سفيان. . .

(٢) راجع ما كتبناه عنه في هذا الكتاب.

(٣) مات المغيرة سنة إحدى وخمسين ولعله دعا معاوية لبيعة ولده يزيد تلك السنة نفسها. .

وكانوا بالتأكيد قد كونوا خبرات جيدة بأوضاع مجتمعهم أتاحها لهم انتماؤهم للإشراف واطلاعهم على حقيقة الأحداث وأوضاع صنّاع القرار وذوي الرتب العالية من القواد والحكام. . .

وهكذا روي لنا (أن بني المغيرة بن شعبة كانوا صلحاء نبلاء، أشرافاً بأبدانهم سوى شرف أبيهم ومنزلته في قومهم. فلما قدم الحجاج فلقوه وشافههم علم أنهم رجال قومه وبنو أبيه، فاستعمل عروة بن المغيرة على الكوفة ومطرّف بن المغيرة على المدائن، وحمزة بن المغيرة على همدان)[1].

أراد الحجاج رشوتهم فخرجوا عليه

وربما أراد الحجاج دعم وتقوية نفوذه الشخصي بتقريب هؤلاء وجعلهم في مراكز السلطة والنفوذ غير أنه كان مخطئاً في ذلك. . . إذ يبدو أن هؤلاء ـ وخصوصاً مطرف ـ لم يكونوا مستعدين لتنفيذ برامجه وخططه الشريرة رغم أنهم استجابوا في البداية لأمر التعيين ومارسوا مهماتهم في الحكم والإدارة.

وأعطى مطرّف أهل المدائن عهداً أن يحكم فيهم بالحق والعدل في السيرة، وأخبرهم أنه جالس لهم العصرين ليرفعوا إليه حوائجهم ويشيروا عليه بما يصلحهم ويصلح بلادهم وأنه لن يألوهم خيراً ما استطاع. . .

وكان مطرف (. . من خير عامل قدم عليهم قط، أقمعه لمريب، وأشدّه إنكاراً للظلم . .)[2].

وفي بداية توليته على المدائن قدم شبيب الخارجي عليها، فطلب من الحجاج أن يمدّه برجال لضبطها باعتبارها باب الكوفة وحصنها على حد تعبيره، فأرسل إليه الحجاج أربعمائة مقاتل. . وعندما نزل شبيب أحد جانبي المدينة، قطع مطرف الجسر الذي يصل بين الجانبين، وبعث إليه لكي يرسل إليه رجالًا من صلحاء أصحابه يدارسهم القرآن وينظر ما يدعون إليه. . .

رفض مطاليب الخوارج

وقد أخبره موفدو شبيب أنهم يدعون إلى كتاب الله وسنّة محمد ﷺ. وإن

---

(١) الطبري ٣/ ٥٩٢ وابن الأثير ٤/ ١٧٨.

(٢) الطبري ٣/ ٥٩٢ - ٥٩٤.

الذي نقموه على قومهم الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية.. وقد أجابهم مطرف بأنهم لم يدعوا إلا إلى حق وما نقموا إلا جوراً ظاهراً وأخبرهم أنه يؤيد ما يدعون إليه وطلب منهم أن يتابعوه إلى ما يدعوهم إليه ليجتمع أمره وأمرهم وتكون يده وأيديهم واحدة، وقال إنه يدعوهم لمقاتلة الظلمة العاصين على أحداثهم الذين أحدثوا وأن يدعوا هؤلاء الظلمة إلى كتاب الله وسنة نبيّه وأن يكون الأمر شورى بين المسلمين، يؤمرون عليهم من يرضون لأنفسهم[1]...

ولم يتفقوا على شيء في تلك المقابلة الأولى، وطلب منه مبعوث آخر من شبيب في مقابلة أخرى أن يتبعهم، وله ما لهم وعليه ما عليهم وإلا فإنه سيكون كبعض من يعادون ويقاتلون من المشركين...

وقد رفض مطرف ما دعاه إليه الخوارج وأخبر بعض خواص أصحابه بالمباحثات التي جرت بينهم وقال: (... والله ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة كارهاً، أنكرها بقلبي، وأغيرها ما استطعت بفعلي وأمري، فلما عظمت خطيئتهم، ومرّ بي هؤلاء القوم يجاهدونهم، لم أرَ أنّه يسعني إلا مناهضتهم وخلافهم إن وجدتُ أعواناً عليهم، وإني دعوت هؤلاء القوم فقلت لهم كيتَ وكيتَ، وقالوا لي كيتَ وكيتَ، فلست أرى القتال معهم، ولو تابعوني على رأيي وعلى ما وصفتُ لهم لخلعتُ عبد الملك والحجاج ولسرت إليهم أجاهدهم...)[2].

فهو هنا يرفض دولة عبد الملك وخادمه الحجاج، ولا يبدو من كلامه أنه يشك بانحرافها كلية عن الإسلام، غير أنه يرفض ـ بنفس الوقت ـ أن يقاتل تحت شعارات الخوارج الذين يرون أنهم أحق الناس بالخلافة، لأنهم أول من قاوموا الظلم على حد زعمهم.

إبحث عن المخبرين

وفي غمرة حماسة لمقاومة دولة الظلم الأموية المروانية ورغبته في مقاومتها، فقد فاته أن يحيط مفاوضاته مع الخوارج وآراءه في دولة الظلم بالسرية التي يتطلبها الموقف، ومن شأن ذلك أن يعرضه لأشد المخاطر والعقوبات على يد الحجاج الذي

(١) المصدر السابق.

(٢) الطبري ٣/ ٥٩٤ - ٥٩٥ وابن الأثير ٤/ ١٧٩.

سيسعى إليه السعاة والواشون يزيدون على كل كلمة عشرة أمثالها ـ على حد تعبير مولاه ابن أبي زياد ـ الذي طلب منه أن يهرب من المدائن مادام لا يملك القوة الكافية لمواجهة الحجاج.

وقد اتفق مطرف مع أصحابه أن يرحلوا معه، ثم أدلج وخرج أصحابه معه إلى الدسكرة، وقبل أن يرتحل منها أعلم أصحابه ما يريد فجمع إليه رؤوسهم (فذكر الله بما هو أهله، وصلّى على رسوله ثم قال لهم: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وأمر بالعدل والإحسان، وقال فيما أنزل علينا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1] وإني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف، فمن أحب منكم صحبتي، وكان على مثل رأيي فليتابعني، فإن له الأسوة وحسن الصحبة، ومن أبى فليذهب حيث شاء، فإني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد أهل الجور، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا الأمر شورى بين المسلمين يرتضون لأنفسهم من أحبوا...)[2].

جهاد دولة الظلم أول واجب شرعي انتماء للإسلام لا لدولة الظلم

ولا بد أن مطرف كان ذا حسٍ عالٍ ووعي استثنائي بواجباته كمسلم حقيقي يشعر أن عليه جهاد دولة الظلم ومواجهتها مواجهة حقيقية رغم أنه يتوقع رد فعلها العنيف وعدم تسامحها تجاهه وأنها ستلجأ إلى أشد الأساليب وحشية معه. ولا بد أن من تابعه من أصحابه على ذلك كانوا في مثل حسه ووعيه وإدراكه كما أنهم كانوا يعلمون حقيقة القوة الغاشمة التي كانوا يواجهونها، ومع ذلك لم يترددوا في الإنضمام إليه لمواجهة الدولة الظالمة وإعلان الحرب عليها.

كان مطرف في موقع السلطة كما كان من عائلة مرموقة اختير أبناؤها الثلاثة لإشغال أهم المناصب الحساسة في الدولة، ولعله لو كان ذا طموح شخصي للزعامة والسلطان، لجعل السلم إلى ذلك السلطان التفاني والاندفاع لخدمة الدولة التي وظفته وجعلته حاكماً على المدائن. ومن هنا لا يمكن القول أن الذي دفعه لمواجهة الدولة

(١) المائدة (٢).

(٢) الطبري ٣/ ٥٩٥ وابن الأثير ٤/ ١٧٩ باختصار.

كان طموحاً شخصياً لنيل درجة أعلى فيها، كما لا يمكن اتهام الجماعة الذين شايعوه بذلك.

ولا بد أن انتماءه للإسلام كان أقوى من انتمائه للدولة التي وظفته لخدمتها ورفعت شعارات مزيفة ادعت أنها إسلامية وادعت أنها تحكم باسم الإسلام وتحرص عليه...

وقد توجّه مطرّف بمن بايعه من أصحابه نحو حلوان، فخرج لقتاله عاملها من قبل الحجاج الذي لم يكن يرغب رغبة حقيقية في قتاله، وقد تواطأ معه سراً على الذهاب دون قتال، وإنما أخرج جيشه ليغدر أمام الحجاج.

الأخ ينصر أخاه

وعندما اقتربوا من همدان كره مطرّف أن يدخلها لئلا يتهم أخوه حمزة واليها عند الحجاج وبعث إليه يطلب إليه أن يمده بما كان يقدر عليه من مال وسلاح وقد بعث إليه سراً بما طلب، وشاع أمر ذلك حتى وصل الحجاج.

وتكشف محاورة بين حمزة بن المغيرة ومبعوث أخيه مطرف عن استعداد الأول لنصرة أخيه وقضيته رغم علمه بعاقبة ذلك...

دفع الرسول كتاب مطرف إليه (فقرأه ثم قال: نعم وأنا باعث إليه بمال وسلاح، ولكن أخبرني ترى ذلك يخفى لي؟ قال: ما أظن أن يخفى..

فقال له حمزة: فوالله لئن أنا خذلته في أنفع النصرين له، نصر العلانية، لا أخذله في أيسر النصرين، نصر السريرة)[1].

وسار مطرف بأصحابه حتى نزل قم وقاشان وأصبحان، وبعث عماله ثم أرسل من يدعو أهل الري لمتابعته وكتب إليهم:

«إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه»

(أما بعد، فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه، وإلى جهاد من عند عن الحق، واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب، فإذا ظهر الحق ودفع الباطل، وكانت كلمة الله

(١) الطبري ٣/٥٩٦ - ٥٩٧.

هي العليا، جعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمن قبل هذا منا كان أخانا في ديننا، وولينا في محيانا ومماتنا، ومن رد ذلك علينا جاهدناه، واستنصرنا الله عليه فكفى بنا عليه حجة، وكفى بتركه الجهاد في سبيل الله غبنا، وبمدافعة الظالمين في أمر الله وهنا.

إن الله كتب القتال على المسلمين وسماه كرهاً، ولن ينال رضوان الله إلا بالصبر على أمر الله، وجهاد أعداء الله، فأجيبوا رحمكم الله إلى الحق، وادعوا إليه من ترجون إجابته، وعرّفوه ما لا يعرفه، وليقبل إليّ كلّ من رأى رأينا، وأجاب دعوتنا، ورأى عدوّه عدونا، أرشدنا الله وإياكم، وتاب علينا وعليكم، إنه هو التواب الرحيم)[1].

وإثر ذلك التحق به نحو مائة شخص من أهل المدائن...

وتعبّر هذه الوثيقة عن توجّه ثوري حسيني يرفض الظلم والإنحراف، ولم يعد مألوفاً في ظل دولة الظلم بعد أن ألفت الأمة الذل والخنوع، وبدت كأنها نشاز في غمرة الأصوات المألوفة التي نادت بحياة تلك الدولة وعبرت عن استعدادها للخضوع إلى الأبد، وكانت كحجر ثقيل ألقي في مياه بحيرة ساكنة لم يرد أحد تحريكها.

إننا نلمح فيها ـ رغم التعتيم الذي جرى على حركة مطرّف، ورغم أنها لم تدع لآل البيت صراحة ـ حساً صافياً يدعو لعودة الإسلام إلى خطه الأصيل بعيداً عن التشويه والتزوير والإنحراف، ولا بد انها كانت بنظر الحكام الجائرين والأمة الخانعة تعدّ أمراً جريئاً لا يقدم عليه إلا المغامرون أو الطائشون... وما كان أي داعية لآل البيت عليهم السلام يرفع غير تلك الشعارات التي رفعها مطرف وأصحابه. ولعل أهداف وشعارات ثورة الحسين عليه السلام ظلت ماثلة في أذهانهم إذ لم يكونوا بعيدي عهد بها.

ولقد ألقت حركة مطرف ظلّا ثقيلًا على جهود أركان دولة الظلم الأموية الذين حسبوا أنهم قد روّضوا الأمة كلها وجعلوها تستسلم لهم إلى الأبد، وجعلتهم موقنين هذه المرة أنهم كانوا مخطئين وإن حساباتهم لم تكن صحيحة وأنهم ينبغي أن يواجهوا الأمة بأساليب جديدة من شأنها أن تجعلها جثة هامدة بين أيديهم، بل لعلها استفزتهم إلى أبعد حد.

---

(١) المصدر السابق.

حيلة ومكيدة

فقد سارع الحجاج حال علمه بها بالسعي لإلقاء القبض على حمزة خوفاً من تمرده المحتمل. (وقد كان حمزة بهمذان أثقل ما خلق الله على الحجاج مخافة أن يمد أخاه بالسلاح والمال، ولا يدري لعله يبدو له فيعق، فلم يزل يكيده حتى عزله، فاطمأن وقصد قصْد مطرف) الطبري ٣/ ٥٩٨. وقد تم ذلك بحيلة دبرها الحجاج وصنائعه، ثم سارع لتحشيد جيش لمواجهة مطرف الذي أخذ جيشه يستكثف ويكثر تبعه على حد تعبير البراء بن قبيصة عامل الحجاج على أصبهان، وكاد أن ينجح لولا أن الأقدار غالبة على حد تعبير أحد معاصريه.

وكان متلهفاً لإرسال الجند بسرعة حتى أنه (جعل يسرح إلى [عامله] البراء بن قبيصة الرجال على دواب البريد عشرين عشرين وخمسة عشر خمسة عشر، وعشرة عشرة حتى أسرح إليه نحواً من خمسمائة وكان في ألفين. . .)[١].

ثم أمر بتعبئة ثلاثة أرباع جنود أهل الري وهم ثلاثة آلاف مقاتل، وأرسل معهم تسعمائة من أهل الشام وألف مقاتل من أهل الكوفة انضموا إلى البراء ومعه ألف مقاتل وألف رجل من أهل أصبهان والأكراد)[٢]. . . واستعد مطرف لمواجهتهم رغم أن عدد أصحابه كان يقل عن أعداد هؤلاء بكثير.

قبيل المعركة

وقبل بدء المعركة والزحف طلب مطرف إلى أحد قادة جيشه الصغير ـ بكير بن هارون البجلي ـ أن يخرج إليهم فيدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وبكتهم بأعمال الخبيثة فخرج إليهم ونادى بصوت له عال رفيع:

(يا أهل قبلتنا، وأهل ملتنا وأهل دعوتنا، إنا نسألكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي علمه بما تسرّون مثل عمله بما تعلنون لما أنصفتمونا وصدقتمونا، وكانت نصيحتكم لله لا لخلقه، وكنتم شهداء الله على عباده بما يعلمه الله من عباده.

خبروني عن عبد الملك بن مروان، وعن الحجاج بن يوسف، ألستم تعلمونهما جبارين مستأثرين يتبعان الهوى، فيأخذان بالظنة ويقتلان على الغضب؟

(١) الطبري ٣/ ٥٩٧ - ٥٩٨.

(٢) الطبري ٣/ ٥٩٧ - ٥٩٨.

فتنادوا من كل جانب: يا عدوّ الله كذبت، ليسا كذلك..!

فقال لهم: ويلكم ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[1] ويلكم، أو تعلمون من الله ما لا يعلم، إني قد استشهدتكم، وقد قال الله في الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[2]...)[3].

نهاية مروعة

وقد جرى قتال عنيف... (اقتتلت الفرسان أشد قتال رآه الناس قط[4].

وقد كان مطرف ينادي فيهم قبل مقتله بقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[5].

وبقتله وقتل صفوة أصحابه الذين استبسلوا معه في تلك المعركة الحامية انتهت حركته لتظل شاهداً على أن إنكار الظلم والإنحراف والمنكر لم يقف عند حدود الإنكار بالقلب، بل تعداه إلى اليد وإن كان ثمن ذلك غالياً...

---

(١) طه ٦١.

(٢) البقرة ٢٨٣.

(٣) الطبري ٣/ ٥٩٩ وقد شهدنا موقفاً مماثلاً في واقعة كربلاء إذ خطب زهير بن القين في جيش الكوفة قائلاً: (يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة، وعلى دين واحد وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وأنتم أمة. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد (ص) لينظر ما نحن وأنتم عاملون. إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عمر سلطانهما كله، ليملأن أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانيء بن عروة وأشباهه... فسبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد، ودعوا له، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلماً...) الطبري ٣/ ٣١٩ - ٣٢٠ وهو موقف مشابه لهذا، إذ ما عسى أن يقول من يشهر سيفه مع الحاكم الظالم غير ما يقول هؤلاء..!

(٤) الطبري ٣/ ٦٠٠.

(٥) آل عمران ٦٤ (الطبري ٣/ ٦٠٠).

٨ - حركة عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث

آل الأشعث وعداوتهم لأهل البيت عليهم السلام

عُرف الأشعث وبنوه بمناوئتهم وكرههم الشديد لآل البيت عليهم السلام. وكان لمحمد بن الأشعث، أب عبد الرحمٰن هذا دور كبير في القضاء على ثورة مسلم في الكوفة وفي واقعة الطف وفي التحرك المضاد للمختار حتى قتل في المعركة الأخيرة الفاصلة التي جرت بين جيش المختار وجيش ابن الزبير[١] وقبل أن يقتل المختار بمدة قصيرة.

وقد ذكرت رواية أن مولى لمحمد بن الأشعث أخبره بمكان مسلم بن عقيل فانطلق محمد إلى عبيد الله فأخبره، فبعث عبيد الله عمرو بن حريث المخزومي ـ وكان صاحب شرطة ـ إليه ومعه عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وأن عبد الرحمٰن هو الذي أعطى الأمان لمسلم، ثم غُدر به بعد ذلك[٢] وذكرت رواية أخرى أن مولى ابن الأشعث ذهب إلى عبد الرحمٰن فأخبره بمكان مسلم وأن هذا أتى أباه عند ابن زياد وأخبره بذلك، وأن ابن زياد بعث محمد بن الأشعث وعمرو بن عبيد الله بن العباس السلمي لقتال مسلم أو إحضاره أمامه، وأن محمداً هو الذي أعطاه الأمان ثم لم يستطع أن يفي به حتى قتله ابن زياد[٣]...

ومهما يكن من أمر فإننا نرى هنا حضوراً لعبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث زمن وقوع هذا الحدث سنة ستين للهجرة، ولا بد أنه كان شاباً يافعاً له دور في صنع الأحداث لانتمائه لعائلة الأشعث الكوفية ذات المكانة الخاصة من معاوية ويزيد لمواقفها المناوئة لآل البيت عليهم السلام.

---

(١) تحدثنا بإسهاب عن هذه الأدوار في فصول هذا الكتاب...
(٢) الطبري ٣/ ٢٧٦ - ٢٨٩.
(٣) المصدر السابق.

مكتمل الرأي والقوة لم تخدعه الأضاليل الأموية فثار عليها

ويمكن القول أنه كان ـ عند خروجه على الدولة الأموية المروانية سنة إحدى وثمانين ـ رجلًا مكتمل القوة والرأي حازماً مقداماً لم ترهبه سطوة عبد الملك والحجاج، ولم تخدعه الشعارات البراقة المزيفة التي رفعتها الدولة وحاولت بها حفظ كيانها ووجودها.

سار حيناً في ركاب دولة الظلم

حاول عبد الرحمٰن أن يثأر لأبيه الذي قتله أصحاب المختار، وكان أشد الناس عليهم وكان يدعو للانتقام حتى من أولئك الذين نزلوا على حكم مصعب بعد مقتل المختار وقد قتل بعضهم بيديه...

قاتل الخوارج بناء على أمر الحجاج

بعث به بشر بن مروان ـ بناء على أوامر من عبد الملك في خسمة آلاف من أهل الكوفة سنة إثنتين وسبعين ـ لمقاومة الخوارج في الأهواز وقتالهم مع المهلب، وقد قاتلوهم وهزموهم.

وقد دعاه الحجاج ثانية سنة ست وسبعين لقيادة جيش آخر لقتال الخوارج الذي كان يقوده شبيب، ويبدو أن الحجاج كان منزعجاً غاية الإنزعاج من شبيب الذي كان يقلق الدولة ويزعجها...

ويلفت النظر هنا أسلوب الحجاج الشديد لدعوة الناس للحرب[1]، وهو أسلوب طالما لجأ إليه من قبل، فلغة الإرهاب هي اللغة التي يلجأ إليها الطغاة وهم يحسبون أن الناس ينبغي أن يخشوهم أشد من خشيتهم لله...

---

(١) فقد كتب الحجاج إلى أهل العراق: (أما بعد، فقد اعتدتم عادة الأذلاء، ووليتم الدبر يوم الزحف، وذلك دأب الكافرين، وإني قد صفحت عنكم مرة بعد مرة، ومرة بعد مرة، وإني أقسم لكم بالله قسماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقعن بكم إيقاعاً أكون أشد عليكم من هذا العدو تهربون منه في بطون الأودية والشعاب، وتستترون منه بأثناء الأنهار وألواذ الجبال فخاف من له معقول على نفسه ولم يجعل عليها سبيلًا. وقد أعذر من أنذر) الطبري ٣/ ٥٧٢ وهو أسلوب طالما لجأ إليه زياد وعبيد الله وطالما يلجأ إليه الطغاة في كل وقت.

مقاتلون بالإكراه ــ مقاتلون بلا قضيّة

وأصدر الحجاج أوامره لابن الأشعث أن يخرج عند طلوع الشمس وينادي في الناس: « أن برئت الذمة عن رجل من هذا البعث وجدناه متخلفاً»[1].

هرب شبيب من عبد الرحمن إلى الموصل، فلم يتبعه عبد الرحمن فأمره الحجاج أن يسلك في أثره ففعل وأخذ يطارده إلا أنه لم يكن يرغب رغبة حقيقية في قتاله، وقد دعا ذلك الحجاج أن يؤمّر عليهم غيره.. وقد قتل هذا في أول منازلة له مع الخوارج وكان ذلك بسبب عجلته وسوء تصرفه وقد كان يريد أن ينال منزلة مرموقة من الحجاج باندفاعه... هرب جيشه وكان فيهم عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث بعد أن قتل منه أكثر من ألف رجل، وقد اختبأ عبد الرحمن في الكوفة خوفاً من الحجاج حتى أخذ الأمان بعد ذلك.

خطب نارية للحجاج

وأرسل جيشاً آخر مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل ولم يدع قرشياً ولا رجلًا من بيوتات العرب إلا أخرجه لمقاتلة شبيب، وقد هددهم بإحدى خطبة المرهبة المهددة قائلًا:

(يا أهل الكوفة، أخرجوا مع عَتّاب بن ورقاء بأجمعكم، ولا أرخص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلًا قد ولّيناه من أعمالنا.

ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة، ألا وإن للناكل الهارب الهوان والجفوة. والذي لا إله غيره، لئن فعلتم في هذا الموطن كفعلكم في المواطن التي كانت لأولينّكم كنفاً خشناً، ولأعركنكم بكلل ثقيل...)[2].

انتصار شبيب الخارجي ودخوله الكوفة

وكان ذلك الجيش الضخم لا يحمل قضية ما لمواجهة الخوارج الذين لم يتجاوز عددهم ستمائة رجل، وكان يعلم أنه يقاتل من أجل قضية خاسرة في الحالين سواء انتصر أو انهزم وأنه ينساق لإرادة شخص واحد يريد الجميع أن يخضعوا له

---

(١) الطبري ٣/ ٥٧٢.

(٢) الطبري ٣/ ٥٨١ - ٥٨٣

ويطيعوه ولا يرون سواه. ومن هنا فقد بدا متخاذلاً رغم كثرة أعداده، وكان أحد أصحاب الحجاج قد قال له: (.. إنك لم تنصح لله ولا لأمير المؤمنين في قتالهم [الخوارج] تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رغاماً من الناس فينهزمون عنه، فيستحي فيقاتل حتى يقتل) الطبري ٣/ ٥٨٧. وقد انهزم فعلًا بعد مقتل قادته وكان عبد الرحمن بن محمد من الذين انهزموا ولم يقاتلوا شبيباً.

وتبع شبيب المنهزمين إلى الكوفة وعزم على مقاتلة الحجاج هناك، مما دعا هذا الأخير إلى استنفاد جيش الشام الذي أرسله عبد الملك لإسعافه، وكان عدد أفراده ستة آلاف مقاتل، وعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين كان يتبادل الكراهية وإياهم ويعلم أنهم لا يحاربون عن رغبة حقيقية في القتال وأنهم ربما ينقلبون عليه، وهكذا منعهم من القتال معه وألقى بهم هذه الخطبة:

(أما بعد يا أهل الكوفة، فلا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، أخرجوا عنا، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا. إلحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملًا، ومن لم يكن شهد قتال عتاب بن ورقاء)[1]، وهو قائد الجيش الذي قتله شبيب.

طرد شبيب من الكوفة

ولم ير الحجاج بداً من التقدم بنفسه لقتال شبيب وقد دخل هذا الكوفة، واستطاع بمن معه من أهل الشام وأهل الكوفة الذين كانوا خائفين منه ومن أهل الشام إن لم يقاتلوا شبيباً، أن ينتصر على شبيب ويطرده من الكوفة بعد أن قتل جماعة كبيرة من أصحابه منهم أخوه وزوجته.

عبد الرحمٰن بن الأشعث: انهزم أو تهازم.. عدم قناعة بأهداف الدولة

كانت تجربة الحجاج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لا تدعو للارتياح، بل لعله كان يشعر بالمرارة لمواقفه في الحروب التي أرسله فيها لقتال الخوارج، فقد انهزم أو تهازم منهم أكثر من مرة، وبدا كأن ذلك كان مقصوداً، ولعل سببه عدم قناعة عبد الرحمن بمواقف أطراف الصراع كلها (وكان الحجاج وليس بالعراق رجل أبغض

---

(١) المصدر السابق.

إليه من عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، وكان يقول: ما رأيته قط إلا أردت قتله. . .)[١].

وصرح مرة أمام جلّاسه عندما رآه: (أنظر إلى مشيته، والله لهممت أن أضرب عنقه)[٢].

كره متبادل بين الحجاج وعبد الرحمن

ويبدو أن الكره كان متبادلًا بينهما ولم يكن الذي يكنّه عبد الرحمن أقل من ذلك الذي كان يكنّه الحجاج، فقد قال عبد الرحمن لمن نقل إليه قول الحجاج وحذره منه (. . . وإنا كما زعم الحجاج إن لم أحاول أن أزيله عن سلطانه، فأجهد الجهد إذا طال بي وبه بقاء. . .)[٣].

.. ومع ذلك فقد ولّاه أحد جيوشه رغم تحذير إسماعيل بن الأشعث

ورغم ذلك الكره فقد بدا للحجاج أن يبعثه على رأس جيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل من أهل البصرة وأهل الكوفة لقتال رُتبيل الذي كان مصالحاً ويدفع خراجاً ثم امتنع فلم يفعل ثم قتل جماعة كبيرة قدموا لمقاتلته. . . أرسله الحجاج رغم تحذير عمه إسماعيل بن الأشعث وقوله له: (لا تبعثه، فإني أخاف خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً)[٤] وأجابه بغرور الطغاة الذي عرف به: (ليس هناك، هو لي أهيب وفيَّ أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج من طاعتي)[٥].

نجاح في المهمة واستيلاء على غنائم هائلة

وقد أنجز عبد الرحمن مهمته بنجاح واستطاع طرد عدوه إلى أقصى بلاده ووضع عمالاً على الأرض التي افتتحها وكانت أرضاً عظيمة واستولى على غنائم هائلة

(١) الطبري ٣/ ٦١٧ - ٦١٨.
(٢) الطبري ٣/ ٦١٧ - ٦١٨.
(٣) الطبري ٣/ ٦١٧ - ٦١٨.
(٤) الطبري ٣/ ٦١٧ - ٦١٨.
(٥) الطبري ٣/ ٦١٧ - ٦١٨.

من الأنعام والأموال، ورأى أن يتوقف عن إكمال زحفه حتى يعتاد المسلمون على طرقها ويتعرفوا عليها جيداً ثم يعاود الزحف ويستطيع في بضع سنين أن يستولي عليها كلها، وبدت خطته هذه معقولة للجيش العراقي المنهك، وكتب يخبر الحجاج بذلك، إلا أن الحجاج رفض أن يتوقف عبد الرحمن عن القتال وأمره بمواصلته، ومواصلة التقدم في أرضه والإقامة بها. وقد شدد عليه في رسائل متلاحقة أن ينفذ أوامره وهدده بالطرد وتعيين أخيه إسحاق بن محمد أميراً على الناس، وهي خطة أراد بها التفريق بين الأخوين، طالما لجأ إليها الحجاج مع ابن الأشعث وغيره.

عبد الرحمٰن يستشير أصحابه في إكمال الغزو: «كره متبادل بين الحجاج وعبد الرحمن وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم»

وقد رأى عبد الرحمٰن أن يواجه أصحابه بطلبات الحجاج التي ستؤدي إلى إهلاكهم، وكان واضحاً له ولهم أنه يريد ذلك فعلًا بعد إنهاكهم وتجميرهم في البعوث والفتوحات العشوائية ذات الامتداد السطحي الهش، وهم لم يكادوا يضعوا سيوفهم حتى يرفعوها ثانية في سبيل أهداف توسعية لا يقصد منها خدمة الإسلام بقدر ما يقصد توفير مصادر جديدة للثروة تدخل جيوب الطبقة الحاكمة وفي مقدمتها الحجاج نفسه... وكان مما قاله لهم:

(... إني لكم ناصح، ولصلاحكم محب، ولكم في كل ما يحيط بكم نفعة ناظر، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأي استشرت فيه ذوي أحلامكم، وأولي التجربة للحرب منكم، فرضوه لكم رأياً، ورأوه لكم في العاجل والآجل صلاحاً. وقد كتبت إلى أميركم الحجاج، فجاءني منه كتاب يعجزني ويضعّفني، ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك إخوانكم فيها بالأمس، وإنما أنا رجل منكم، أمضي إذا مضيتم، وآبى إذا أبيتم...

لا طاعة للحجاج

فثار إليه الناس فقالوا: لا، بل بأبى على عدو الله، ولا نسمع له ولا نطيع..)[1].

ولعل عبد الرحمٰن كان يعرف حقيقة رأي الناس بذلك الزحف المرهق الذي

(١) الطبري ٣/ ٦٢٢ وابن الأثير ٤/ ١٩٨.

يقصد منه إتعابهم لأقصى غاية ممكنة بينما كانوا يرون جند الشام قد أقاموا في مواطنهم في الكوفة وغيرها مرتاحين آمنين، وكان بالإمكان أن يسيروا معهم ويشاركوهم متاعب تلك الفتوحات السريعة المتلاحقة، وكانوا يعلمون أنهم كانوا مستهدفين بذلك لإبعادهم عن أوطانهم ـ هم خاصة ـ خوفاً من ثورتهم المحتملة بوجه النظام الحاكم.

إخلعوا عدوّ الله الحجاج

وقد عبر أحد أصحاب عبد الرحمٰن عن حقيقة الحجاج وعما يريده بهم بكلمة قالها إثر خطابه جاء فيها: (أما بعد فإن الحجاج والله ما يرى بكم إلا ما رأى القائل الأول إذ قال لأخيه: أحمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطر بكم فيقحمكم بلاداً كثير اللهوب واللصوب، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذي لا يبالي عنتهم، ولا يبقي عليهم. إخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا عبد الرحمن، فإني أشهدكم أني أول خالع...

الأبناء يخالفون الآباء: عبد المؤمن بن شبث بن ربعي: « إنكم إن أطعتم الحجاج، جمّركم تجمير فرعون الجنود »

فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا، قد خلعنا عدو الله، وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعي[١]... فقال: عباد الله، إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم، وجمّركم تجمير فرعون الجنود، فإنه بلغني أنه أول من جمّر البعوث ـ ولن تعاينوا الأحبة فيما أرى، أو يموت أكثركم. بايعوا أميركم، وانصرفوا إلى عدوكم فانفوه عن بلادكم.

مبايعة عبد الرحمٰن على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق

فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه، فقال: تبايعوني على خلع الحجاج عدو الله وعلى النصرة لي وجهاده معي حتى ينفيه الله من أرض العراق. فبايعه الناس.

---

(١) وهو من كان أبوه أحد الذين كتبوا للحسين عليه السلام ثم غدروا به وأعانوا على قتله في كربلاء.

ولم يذكر خلع عبد الملك إذ ذاك بشيء..)[1] مع أنه كان يعلم أنه بخلعه الحجاج كان يخلع عبد الملك نفسه.

ولم يكن أمره هذه المرة أمر من يعصي ويفر، وإنما كان هنا يريد مواجهة عدوه الحجاج والكرة عليه، وكان يجد في أصحابه عزيمة صادقة لمهاجمة الحجاج وطرده من العراق. فقد رأوا منه ما جعلهم مقتنعين بضرورة إعلان الحرب عليه قبل أن يشتد أمره ويجعلهم على أطراف المملكة الأموية الآخذة بالاتساع حراساً منسيّين مهملين.

إلى العراق لمواجهة الحجاج والدولة الأموية «..إني خلعت أبا ذبان كخلعي قميصي»

سار ابن الأشعث من سجستان لمواجهة الحجاج في العراق، وقبيل وصولهم أدرك من معه أنهم بمسيرهم ذاك كانوا يواجهون الدولة الأموية وعبد الملك لا الحجاج وحده، وقد أعلنوا عن عزمهم ذاك بوضوح لخلع عبد الملك عندما بادر أحدهم بقوله: (إني خلعت أبا ذبان[2] كخلعي قميصي، فخلعه الناس إلا قليلًا منهم..)[3].

مبايعة كاملة (.. على كتاب الله وسنّة نبيّه وخلع أئمة الضلالة)

وقد بايعوا عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث، (وكانت بيعته: تبايعون على كتاب الله وسنة نبينه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلّين)[4].

وهي صيغة طموحة تهدف إلى التخلص من فراعنة الأمة الجدد الذين ادعوا الحرص على الإسلام ووحدة المسلمين، ومع أن مواجهتهم لم تكن بالأمر الهيّن إلا أن إدراك الناس لحقيقتهم المفضوحة جعلهم يقدمون على ذلك رغم المخاطر المحتملة والتعرض للموت... ولا بد أن حساً جديداً ودافعاً قوياً من الشعور بالمسؤولية جعلهم يندفعون تلك الاندفاعة للإطاحة بالعرش الأموي وأركانه.

---

(١) الطبري ٣/ ٦٢٢ - ٦٢٣ وابن الأثير ٤/ ١٩٨.

(٢) كان عبد الملك يدعى (أبو الذبان لنجر في فمه ودم في لثته كما كان يدعى رشح الحجر لنجله) الطبري ٣/ ٦٢٤ وابن الأثير ٤/ ١٩٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الطبري ٣/ ٦٢٤ وذكر ابن الأثير أنها كانت: (تبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين) ٤/ ١٩٩.

وقد فزع الحجاج من خروج ابن الأشعث عليه ومطاوعة جيش العراق له واستنجد بعبد الملك طالباً منه أن يعجل بعثة الجنود إليه.

وكعادة (الأشراف) في الرغبة في الاستقرار وثبات الأوضاع التي تضمن مصالحهم وامتيازاتهم، وهو أمر نشهده في ظل مختلف دول الظلم، فإن أحد الأشراف، المهلب، بعث إلى عبد الرحمن يحذره عاقبة الخروج على عبد الملك ونكث بيعته والخروج على الجماعة! كما بعث بنصيحة للحجاج من شأنها أن تغير مسيرة الحرب بينهما لو أنه أخذ بها، إلا أنه لم يأخذ بها، إلا أنه لم يأخذ بها وأعتقد أن المهلب كان يريد نصرة عبد الرحمن.

فقد كتب المهلب إلى الحجاج: (أما بعد فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل المنحدر من عل، وليس شي يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرّه في أول مخرجهم وصبابه إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم، ويشمّوا أولادهم، ثم واقفهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله) الطبري ٣/ ٦٢٤ وابن الأثير ٤/ ٢٠٠.

خوف عبد الملك من ثورة عبد الرحمن وقيامه بتحريض أهل الشام على أهل العراق

وكان لخبر خروج عبد الرحمن على الدولة الأموية وقع الصاعقة على عبد الملك، إذ أنه هاله حتى نزل عن سريره وبعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج، وحاول هذا طمأنته لما رأى ما به من الجزع، ثم ألقى عبد الملك خطبة تدل على مدى مخاوفه من خروج عبد الرحمن وحاول تحريض أهل الشام على أهل العراق مستغلّا العداوة التي زرعها معاوية بينهم وأتت أكلها لصالح الدولة الأموية على مر الأيام.

قال لهم: (إن أهل العراق طال عليهم عمري فاستعجلوا قدري. اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام حتى يبلغوا رضاك، فإذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك)[1].

كان ذلك هو المبرر الوحيد الذي قدمه عبد الملك لأهل الشام، وكان مظهر التقوى الذي ظهر به أمامهم ودعاؤه أن يسلط الله أهل الشام على أهل العراق حتى

---

(١) الطبري ٣/ ٦٢٤.

يبلغوا رضا الله فلا يتجاوزوه إلى سخطه، من شأنه أن يؤثر في أهل الشام (أهل الطاعة) ويدفعهم للقتال معه ضد (أعدائهم) العراقيين. وهذا الأسلوب الوعظي من حكام الجور المتسلحين بأسلحة الدجل المناسبة يظهر في كل مناسبة يتعرضون فيها للمخاطر واحتمال إزاحتهم عن عروشهم[١].

الحجاج يقيم في البصرة

وأقام الحجاج بالبصرة وتجهز ليلقى ابن الأشعث، وكان يرسل بأخباره المتابعة إلى عبد الملك وكان هذا بدوره يرسل إليه الفرسان في كل يوم مائة وخمسون وعشرة على البُرد كلما أتيحت له الفرصة وبأقصى سرعة ممكنة إذ يبدو أن الموقف قد تفاقم إلى أبعد حد واحتمال نجاح ابن الأشعث كاد أن يكون قريباً.

هرب الحجاج في المواجهة الأولى رغم ضخامة جيشة واستعداداته

ورغم كثافة جيش الحجاج وقيادته المباشرة لذلك الجيش ومبادرته لملاقاة ابن الأشعث في تُستَر، فإنه هُزم هزيمة ساحقة بعد أن ألحقت بجيشه خسائر فادحة واضطر للهرب إلى البصرة مبرراً هزيمته بأن ذلك المكان الذي كانوا فيه لا يحمل الجند وإن البصرة معسكر ومقاتل وطعام ومادة، ولحقت به خيول أهل العراق، حتى مضى لا يلوي على شيء حتى نزل الزاوية تاركاً البصرة لأهل العراق غير أنه عمد إلى مصادرة طعام التجار، وهي خطوة متوقعة منه.

هدفنا غزو عبد الملك

وفي البصرة خطب ابن الأشعث أصحابه قائلًا: (أما الحجاج فليس بشيء، ولكنا نريد غزو عبد الملك)[٢]. . .

---

(١) وهو ما نشهده في أيامنا هذه إذ يعمد حكام الجور إلى الظهور بمظهر الوعاظ الزاهدين ويجمعون حولهم وعاظ السلاطين في مؤتمرات إسلامية حتى يبدون كأنهم المدافعون الحقيقيون عن الإسلام ويلقون فيهم كلمات تدعو إلى التمسك بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر (هم طبعاً) وعدم المخالفة والخروج عن حبل الله! والتمسك بوحدة الجماعة.. إلخ. ويظهرهم الوعاظ أمام الأمة وكأنهم فعلًا حماة الإسلام وممثلوه الشرعيون، وما أكثر النماذج التي نشهدها..

(٢) الطبري ٣/ ٦٢٥.

وهنا يبدو واضحاً أن الأمر ليس أمر تمرد على الحجاج وإنما هو رفض تام للنظام القائم. وقد أصبح ابن الأشعث في موقف يتيح له التعبير عن أهدافه بوضوح، وهذا ما فعله في البصرة.

ولعل خطوة بسيطة كان أحد أهل البصرة يرفع القيام بها، وهي أن يقطع الجسر دون الحجاج، ستغير مجرى المعارك اللاحقة كلها مستقبلًا وتغير مصير الحجاج وعبد الملك نفسه، غير أن عامل الحجاج رشاه بمائة ألف فكف عن ذلك، ثم أن الحجاج انتزع النقود منه بعد ذلك.

ونلاحظ أن مصير معارك كبرى ربما كان يتوقف على مثل تلك الخطوة البسيطة، ويحفل تاريخنا بأمثلة عديدة على ذلك.

إجتياح البصرة خلع عبد الملك جميع أهلها من قرائها وكهولها

(فلما دخل عبد الرحمٰن بن محمد البصرة بايعه عل حرب الحجاج، وخلع عبد الملك جميع أهلها من قرائها وكهولها، وكان رجل من الأزد من الجهاضم يقال له عقبة بن عبد الغافر له صحابه، فنزا فبايع عبد الرحمٰن مستبصراً في قتال الحجاج، وقد قتل هذا مع جماعة من القراء في إحدى المعارك التي جرت بين الحجاج وابن الأشعث، وخندق الحجاج عليه وخندق عبد الرحمن على البصرة..)(١).

تصرف عن وعي وبصيرة

وإجماع أهل البصرة كلهم الإنضمام لابن الأشعث مستبصرين واعين بحقيقة الخطوة التي يقدمون عليها لمحاربة دولة الظلم الأموية، أمر له مغزاه، ولم يسبق أن حدث من قبل.. وكان يعني أن هذه الشريحة من الأمة في هذا المصر من العالم الإسلامي تدرك حقيقة ما يجري في ظل تلك الدولة وتدرك حقيقة خروجها السافر عن الإسلام وإن ظلت تبرر وجودها وظلمها بأمور وحجج وذرائع نسبتها للإسلام، وكان يعني أن ذلك كان الأمر الوحيد الذي ينبغي أن تقوم به لمواجهة تلك الدولة خصوصاً وانه تم إثر خطوة ظالمة أقدم عليها الحجاج مستهدفاً جمع الأموال دون وجه حق،

(١) الطبري ٣/ ٦٢٥ وأورد ابن الأثير (فبايعه جميع أهلها وقراؤها وكهولها مستبصرين في قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام) ٤/ ٢٠٠.

فقد ذكر أن سرعة إجابة أهل البصرة لبيعة ابن الأشعث (إن عمال الحجاج كتبوا إليه أن الخراج قد انكسر وإن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار. فكتب إلى البصرة وغيرها أن من كان له أصل من قرية فليخرج إليها. فأخرج الناس لتؤخذ منهم الجزية فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه، يا محمداه، ولا يدرون أين يذهبون، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون، فلما قدم ابن الأشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج وخلع عبد الملك)[1].

كانت خطوة الحجاج لجمع (الجزية) من المسلمين بإرجاعهم عن الإسلام وإعادتهم كفاراً رغم أنوفهم تعد استهانة بالغة بالإسلام جملة وتفصيلاً. إذ أن المتوقع في ظل دولة تدعي شرعيتها على أساس الإسلام أن يعمد المسؤولون فيها إلى كسب المزيد من الناس إلى جانبه.

وإن أدّى ذلك إلى حرمان ميزانية الدولة من (الجزية) التي يدفعونها، لا أن يقوموا بتحرك مضاد من شأنه تقوية معسكر الكفر لمجرد أن ذلك يؤدي إلى انتفاخ جيوبهم بالمال الحرام، وكان من شأن ذلك أن يجرح مشاعر المسلمين الواعين ويستفز الأمة بأسرها، وهو قد استفز أهل البصرة وفي مقدمتهم (القراء) الذين كانوا يشكلون شريحة واسعة ويعتبرون من أكثر الناس إدراكاً لما كان يدور حولهم ووعياً بطبيعة الممارسات المعادية للإسلام والتي تقوم بها الدولة علانية، دون تحرج أو خجل.

هزيمة ثانية للحجاج انتهت بتراجع ابن الأشعث ــ حارب أهل البصرة رغم تراجع عبد الرحمٰن

وفي الحرب الثانية التي جرت بين ابن الأشعث والحجاج بالزاوية، هزم أهلُ العراق أهلَ الشام حتى انتهوا إلى الحجاج (وحتى قاتلوهم على خنادقهم، وانهزمت عامة قريش وثقيف)[2].. وكان ذلك في بداية محرم سنة اثنتين وثمانين، وفي نهايته بدت المعركة وكأنها لصالح الحجاج الذي حشد خلال ذلك الشهر جيشاً كثيفاً استطاع التغلب على ابن الأشعث الذي تراجع إلى الكوفة بجيشه ومن لحقه من أهل البصرة. واستمرت المعركة بعده بين أهل البصرة الذين بايعوا عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة

(١) إبن الأثير ٤/ ٢٠٠ والطبري ٣/ ٦٤٨.
(٢) الطبري ٣/ ٦٢٧ وابن الأثير ٤/ ٢٠٢.

بن الحارث بن عبد المطلب وأمروه عليهم، وبين جيش الحجاج خمس ليال قاتلوا فيها أشدّ قتال رآه الناس، ثم انه التحق مع طائفة أخرى من أهل البصرة بابن الأشعث.

(وقتل الحجاج يوم الزاوية بعد الهزيمة أحد عشر ألفاً خدعهم بالأمان، وأمر منادياً فنادى: لا أمان لفلان بن فلان فسمى رجالًا، فقال العامة: (قد أمّن الناس. فحضروا عنده فأمر بهم فقتلوا) ابن الأثير ٤/ ٢٠٣.

وخدعة الحجاج هذه ليست الوحيدة التي لجأ إليها وإنما حفل سجله بالعديد من أمثالها لم يتحرج من اللجوء إليها وهو يسعى لتثبيت حكم أسياده الأمويين. وهي حيلة مألوفة في سجلات أمثاله من الطغاة ممن لا حريجة لهم في الدين.

العودة إلى الكوفة واستقبال حافل وهزيمة منكرة لجيش الشام

وفي الكوفة استطاع ابن الأشعث التغلب على عامل الحجاج عليها الذي استلم واستسلم معه أربعة آلاف من جيش الشام كانوا معه على أن يخرجوا ويخلّوه والقصر. وجرى استقبال حافل لابن الأشعث (فلما دخل الكوفة مال إليه أهل الكوفة كلهم، وسبقت همدان إليه، فحفّت به، ودخل الناس إليه فبايعوه، وسقط إليه أهل البصرة، وتقوضت إليه المسالح والثغور..)[١].

وحاول الحجاج اللحاق بابن الأشعث، إلا أن هذا أرسل إليه عبد الرحمن بن عباس في خيل عظيمة فمنعوه من نزول القادسية وسايروه حتى نزل دير قُرَّة ثم نزل ابن الأشعث دير الجماجم واستعد كل منهما لصاحبه.

استعداد للمواجهة الحاسمة

واجتمع أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين، فاجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج، وجمعهم عليه بغضهم والكراهية له، وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء، ومعهم مثلهم من مواليهم.

وجاءت الحجاج أيضاً إمداده من قبل عبد الملك من قبل أن ينزل دير قرة...)[٢]. ويبدو أن قوة الحجاج لم تكن بمستوى قوة ابن الأشعث، فلم تتح له

(١) الطبري ٣/ ٦٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ وابن الأثير ٤/ ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) الطبري ٣/ ٦٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ وابن الأثير ٤/ ٢٠٣ - ٢٠٤.

فرصة التغلب عليه في المعارك المستمرة طوال عدة أشهر حتى شهر شعبان من ذلك العام، حين جرت المعارك النهائية الطاحنة بينهما.

الحجاج: كاد أن يخلعه عبد الملك عن العراق لاستمالة أهلها

ولنا أن نتصور الموقف جيداً، فمقابل جيش ابن الأشعث الذي يقارب ربع مليون شخص جمع بينهم بغض الحجاج والكراهية له بعد أن استهدفتهم دولة الظلم الأموية بأذاها وشرها، وكانوا في موقف جيد وهم (ذوو العدد الكثير، والسعر الرفيع والمادة القريبة) على حد تعبير أحدهم[١]، يقف أعوان الدولة المستميتين في الدفاع عنها لأنها وحدها التي تكفل مصالحهم وامتيازاتهم، وكانوا أقل من أولئك عدداً ومادة، فكان الوضع يشير إلى احتمال نجاح ابن الأشعث في أية معركة كبرى مترقبة، خصوصاً وأن الحجاج لم يستطع النيل منه في الوقائع العديدة التي جرت بينهما، وهو الأمر الذي أقلق رؤوس قريش وأهل الشام قبل عبد الملك ومواليه، وقد اقترحوا عليه، للخروج من ذلك المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه أن ينزع الحجاج عن العراق لكي تخلص له طاعتهم وتحقن به دماء الجميع على حد تعبيرهم.

ويبدو أن عبد الملك قد وجد أن ذلك كان حلّا مناسباً وإن لم يكن مطمئناً إلى قبول أهل العراق به، لأن الحجاج لم يكن سوى أداة من الأدوات الأموية المسخرة، ولعلهم لا يطمئنون إليه ويثقون بوعوده إذ طالما غدر من قبل ولم يعد أمره خافياً عنهم.

وأرسل عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان في جنديهما وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق نزع الحجاج عنهم، وأن يجري عليهم أعطياتهم كما تجري على أهل الشام[٢]، وأن ينزل [عبد الرحمٰن][٣] بن محمد أي بلد من عراق شاء، يكون عليه والياً مادام حياً، وكان عبد الملك والياً...)[٤].

---

(١) الطبري ٣/٦٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ وابن الأثير ٤/٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) وفي ذلك اعتراف بقيام الدولة بالتمييز في العطاء بين أهل العراق وأهل الشام، وهو أمر اتبع منذ عهد معاوية لاستقطاب الشاميين حول العرش الأموي وجعلهم جنوداً مخلصين له.

(٣) زائدة - للتوضيح.

(٤) الطبري ٣/ ٦٣٠ وابن الأثير ٤/ ٢٠٤.

فزع وتنازل

كان هذا التنازل من عبد الملك يدل على فزعه الشديد من ثورة العراقيين التي توشك أن تطيح بعرشه، فلم يسبق لمثل هذه الأعداد أن اجتمعت على مقاومة الدولة الأموية، ولا شك أن ما يثيرها الآن تفاقم الظلم في العراق والذي بلغ ذروته بوجود الحجاج حاكماً هناك.

وإذ أن الحجاج لم يكن سوى آلة طيّعة من أدوات الظلم فإن سحبها من العراق وإشهارها في مكان آخر قد يحتمل أن تقوم فيه ثورة أخرى، بدا مفتاحاً لحل تلك المشكلة الكبيرة التي واجهت عبد الملك.

وهو الأمر الذي أفزع الحجاج وجعله يكتب لعبد الملك لكي يتراجع عن قراره[1]، فلم يأته أمر قط كان أشد عليه ولا أغيظ له ولا أوجع لقلبه منه مخافة أن يقبل أهل العراق فيعزل عنهم، فلم يكن يخدم الدولة لأنها تحقق العدالة لعموم المسلمين ولأنها تمثل التوجهات الحقيقية للإسلام، بل لأنه وجد له مكاناً فيها يتيح له تحقيق أطماعه وطموحاته الشخصية، ويجعله في الصدارة من الحكام والمتنفذين، ولنا أن نتصور حزنه وغيظه إذا ما أطاح به مولاه بقرار سريع لكي يرضي أعداءه.

عرض عبد الملك أوجد انشقاقاً في صفوف العراقيين

وقد رفض عبد الملك التماس الحجاج لإبقائه في مركزه طالما أن مركزه هو كان عرضة للإنهيار، وأمر ابنه وأخاه أن يعرضا على أهل العراق ما سبق أن أمرهما به...

كاد أن يقبل بتنازلات عبد الملك لولا رفض العِراقيين

وقد اقترح ابن الأشعث في اجتماع حاشد عقده مع قواده ورؤساء جيشه أن يقبلوا بعروض عبد الملك التي بدت معقولة وتحقق الحد الأدنى من مطاليبهم لأن

(١) فقد كتب الحجاج إلى عبد الملك: (يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق فزعي لا يلبثون إلا قليلًا حتى يخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان، فلما سألهم ما يريدون قالوا: نزع سعيد بن العاص، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه. إن الحديد بالحديد يفلح. خار الله لك فيما ارتأيت..) الطبري ٣/ ٦٣٠، وابن الأثير ٤/ ٢٠٤.

قبولهم بها وهم في حال القوة التي بدوا بها، سيجعلهم أعزاء مهابين يحسب لهم عدوهم ألف حساب في المستقبل قبل الإقدام على أية ممارسة ظالمة[١].

وربما أدرك ابن الأشعث أن عرض عبد الملك قد أوجد تيارين متناقضين في جيشه بمجرد طرحه، إذ أن هناك من يميل إلى السلم والموادعة طالما أن مطلباً رئيسياً من مطالبه قد تحقق، وهو تنحية الحجاج عن عرش العراق، وربما وجدت الثغرة منذ ذلك الحين في صفوف ذلك الجيش الذي بدا متماسكاً إلى تلك اللحظة التي طرح عليه فيها عرض عبد الملك.

وربما أراد ابن الأشعث إنتهاز فرصة أخرى مناسبة للوثوب بعبد الملك وخلعه خصوصاً وأنه لم يستطع خلال أشهر عديدة وجيشه يتفوق على جيش الحجاج أن يزيحه عن مواضعه ويلحق به هزيمة حقيقية منذ معركة تستر، مع أن (أهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاءوا من خصبهم، وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد، قد غلت عليهم الأسعار، وقلّ عندهم الطعام، وفقدوا اللحم، وكانوا كأنهم في حصار، وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويراوحونهم فيقتتلون أشد القتال...)[٢].

غير أن العراقيين رفضوا ما عرضه عليهم عبد الملك وما اقترحه عليهم قائدهم ابن الأشعث، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمرين:

الأول: قناعتهم بضعف الجبهة المقابلة وقوة جبهتهم، مما حسبوا معها أن تفوقهم على عدوهم سيكون أمراً مؤكداً، وقد جعلهم ذلك يثبون من كل جانب إثر سماعهم اقتراح ابن الأشعث (وقالوا: إن الله قد أهلكهم، فأصبحوا الأزل والضنك والمجاعة والقلة والذلة، ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرفيع والمادة القريبة. لا

(١) قال لهم ابن الأشعث: (أما بعد، فقد أعطيتم أمراف انتهازكم اليوم إياه فرصة، ولا أمان أن يكون على ذي الرأي غداً حسرة، وإنك اليوم على الضف، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر، فأقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء، والقوم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون، فلا والله لا زلتم عليهم جراء، ولا زلتم عندهم أعزاء، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم) الطبري ٣/ ٦٣٠ــ ٦٣١ وابن الأثير ٤/ ٢٠٤.

(٢) الطبري ٣/ ٦٣١ وابن الأثير ٤/ ٢٠٠.

والله لا نقبل)[١]. وهذه القناعة العامة قد تجعل حتى أولئك الذين يميلون للمسالمة والموادعة يرفضون إيقاف الحرب طالما حسبوا أن نصرهم مؤكد على عدوهم.

الثاني: وجود طائفة من ذوي البصيرة والدين في جيش ابن الأشعث ممن أدركوا حقيقة انحراف النظام الأموي وعلموا أن قتالهم إيّاه غير قابل للمساومة خصوصاً وأنه استمر على انحرافه المعلن كما كان أيام يزيد، وهؤلاء هم طائفة القراء وعليهم جَبَلة بن زَحر بن قيس الجعفي، وكان معه خمسة عشر رجلاً من قريش وكان فيهم عامر الشعبي وسعيد بن جبير وأبو البختري الطائي وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وكميل بن زياد النخعي الذي كان يتزعم كتيبة أخرى للقراء.

ويمكن أن نضيف لهذين السببين سبباً ثالثاً وهو أن الموالي الذين كان عددهم يقارب عدد المقاتلين الذين يأخذون العطاء قد يرون باستمرار الحكم الأموي، الذي استهدفهم خاصة مع أنهم من المسلمين، استمراراً لاضطهادهم ومعاملتهم معاملة غير المسلمين، وهو ما كان الحجاج ناوياً أن يفعله بفرض الجزية عليهم في البصرة، وربما ارتفع صوت هؤلاء في تلك اللحظات رافضاً إيقاف الحرب.

كتيبة القراء.. مركز القوة في جيش ابن الأشعث

ومهما يكن فقد رفضت عروض عبد الملك وكان اجتماع الناس على خلعه بالجماجم أجمع من خلعهم إياه بفارس... وبقي الحجاج قائداً أعلى لجيش الدولة، وقد أدرك الحجّاج أن مكمن القوة في جيش ابن الأشعث هو كتيبة القراء، وانه إذا ما استطاع النيل من هذه الكتيبة كسر بأس عدوه وأتيحت له فرصة التغلب عليه وقد عبأ لها ثلاث كتائب حملت عليها ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حمله فلم تستنقص منها شيئاً[٢].

روح كربلاء

وقد أوضح بيان ألقاه عبد الرحمٰن بن أبي ليلى في القرّاء السبب الذي دعاهم لقتال جيش عبد الملك، وهو نفس السبب الذي دعا الحسين عليه السلام لمواجهة الدولة

(١) الطبري ٣/ ٦٣١ وابن الأثير ٤/ ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق.

الأموية بقيادة يزيد من قبل، فروح كربلاء بدت متوهجة في تلك المعركة الطويلة، ومقاومة الظلم بدت مطلباً دائمياً لا يمكن إسكات صوت المنادين به إلى الأبد.

قال ابن أبي ليلى:

(يا معشر القراء، إن الفرار ليس بأحد من الناس أقبح منه بكم، إني سمعت علياً - رفع الله درجته في الصالحين، وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصدّيقين - يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون، إنه من رأى عدواناً يعمل به، ومنكراً يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرىء، ومن أنكر بلسانه فقد أجر، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكر بالسيف، لتكون كلمة الله العليا، وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه اليقين.

فقاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه).

وقال أبو البختري:

(أيها الناس، قاتلوهم على دينكم ودنياكم، فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدنّ عليكم دينكم، وليغلِبُن على دنياكم.

وقال الشعبي: يا أهل الإسلام، قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم، فوالله ما أعلم قوماً على بسيط الأرض أعمل بظلم، ولا أجور منهم في الحكم، فليكن بهم البدار.

وقال سعيد بن جبير:

قاتلوهم ولا تأتموا من قتالهم بنيّة ويقين، وعلى آثامهم قاتلوهم على جورهم في الحكم، وتجبّرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة)[1].

---

(١) الطبري ٣/ ٦٣٥ وابن الأثير ٤/ ٢١٠ ويذكرنا قول أمير المؤمنين عليه السلام الذي ردده ابن أبي ليلى في قراء الكوفة والبصرة بخطب الإمام الحسين عليه السلام التي ألقاها في أصحاب الحر وأصحاب عمر بن سعد قبيل مواجهته لجيش ابن زياد واستشهاده في كربلاء. كما أن في أقوال البقية قبسات من أقوال الحسين عليه السلام التي رددها في كربلاء وقبلها.

مقتل قائد كتيبة القراء زلزل الكتيبة بعد صمود مائة يوم

صمدت كتيبة القراء بوجه الكتائب المعادية الثلاث، إلا أنها كانت تعوّل ـ فيما يبدو في نصرها ـ على شخصية قائدها جبلة بن زحر، وكانت بقية جيش ابن الأشعث تعوّل على هذه الكتيبة، لذلك فإن مقتل هذا القائد قد زلزل أركان هذه الكتيبة وجعل معنويات أفرادها تتراجع بعد صمود دام مائة يوم، كما جعل ذلك معنويات أهل الشام تتصاعد بشكل استثنائي بعد أن كاد يصيبهم الفشل والوهن وقد استطاعوا إلحاق الهزيمة بجيش ابن الأشعث في رأس المائة وفي يوم لم يكن أهل العراق أجرأ عليهم ولا أهل الشام أهون على أهل العراق من ذلك اليوم وبعد أن حسب أهل العراق أن نصرهم مؤكد على جنود الحجاج وهم آمنون من الهزيمة عالون للقوم.

خيانة الأبرد بن قرة التميمي ـ انهزم لتخذيل الجيش العراقي

وقد ساعد على تلك الهزيمة خيانة الأبرد بن قرة التميمي الذي كان على ميسرة ابن الأشعث وقد انهزم بعد قتال يسير، وكان شجاعاً ولم يكن الفرار له بعادة قبل ذلك (فظن الناس أنه قد كان أومن وصولح على أن ينهزم بالناس، فلما فعلها تقوضت الصفوف نحوه، وركب الناس وجوههم وأخذوا في كل وجه)[1] ولم تنفع نداءات وصيحات ابن الأشعث فيهم أن يصمدوا معه، بعد أن صمد هو لجيش الشام الذي أصبح قريباً منه وكاد أن يصل إليه، واضطر للانسحاب بالبقية الباقية من أصحابه بعد أن مالت الكفة إلى جانب عدوه الحجاج آملًا أن يجمع له جمعاً آخر ينتصر به عليه.

ولا يفوتنا أن نذكر أن حالات بطولية نادرة قد حصلت في تلك المعركة ثبت فيها أناس لم يردّهم عن القتال إلا الموت رغم شراسة عدوهم وغلبته فيما بعد ورغم شيخوخة بعضهم وهرمهم وضعفهم الشديد، وهي حالات جديرة أن تسجّل ويُنظر إلى مواقف أبطالها الرافضة للظلم، باحترام لأنها تنم عن وعي رسالي جدير بصحابة الرسول ﷺ وأصحاب الحسين عليه السلام.

مقتل كميل بن زياد وسعيد بن جبير

ورغم أن منادي الحجاج نادى أن من رجع فهو آمن، إلا أنه استمر بمطاردة من شاركوا بثورة ابن الأشعث وقتلهم لعدة سنوات وليست تخفى عنا قصة مقتل كميل بن

(١) الطبري ٣/٦٣٨ وابن الأثير ٤/٢١١ - ٢١٢.

زياد النخعي[١] وسعيد بن جبير[٢] وغيرهما، وكان لا يقبل مبايعة إلا من شهد على نفسه بالكفر، وهو أمر غريب إذ كيف يطلب مدّعي الإيمان مبايعة الكافر ـ بزعمه ـ له؟ وقد قتل بعد ذلك مائة وثلاثين ألفاً[٣] صبراً. . .

وقد جرت وقعة أخرى بمسكن بين الحجاج وابن الأشعث الذي استولى ثانية على البصرة وقد التحقت به فلول جيشه، وتلاوم الناس على الفرار، وقد سار إليه الحجاج بقواته فقاتله خمس عشرة ليلة، فاقتتلوا أشد القتال. وفي تلك المعركة قتل أحد قادة جيش الحجاج، فهدّه ذلك وأصحابه هداً شديداً، وهنا عاد يستعمل أسلوبه الوعظي لابساً مسوح الزاهد المؤمن بالله، وكأنه لم يكن الحجاج الطاغية الذي لا يقيم وزناً أو حرمة لدين أو قيم إلهية حقاً، وكأنه لم يكن أبعد الناس عن الإسلام وأقربهم للكفر والطاغوت.

قال متملقاً أفراد جيشه ومتخلياً عن أسلوب العنجهية الذي عرف به:

---

(١) دعا الحجاج (بكميل بن زياد النخعي، فقال له: أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين؟ قد كنت أحب أن أجد عليك سبيلاً. فقال: والله ما أدري على أينا أنت أشد غضباً؟ عليه حين أقاد من نفسه، أم عليَّ حين عفوت عنه؟ ثم قال: أيها الرجل من ثقيف، لا تصرف عليَّ أنيابك، ولا تهدِّم عليَّ تهدُّم الكثيب، ولا تكشر كشرات الذئب، والله ما بقي من عمري إلا ظم الحمار، فإنه يشرب غدوة ويموت عشية، ويشرب عشية ويموت غدوة. إقض ما أنت قاض، فإن الموعد الله، وبعد القتل الحساب. . .

(٢) قال الحجاج: فإن الحجة عليك، قال: ذلك إن كان القضاء إليك: الطبري ٣/ ٦٣٩ وابن الأثير ٤/ ٢١٢ فأمر به فقتل. وكان كميل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام.

(٣) كان سعيد في مكة مختفياً عن الحجاج فوشي به إلى الحجاج فبعث به عامل مكة إليه. وفي الطريق طلب منه حراسه أن يهرب فأبى وقد التقى بقراء أهل الكوفة قبل أن يؤخذ به إلى الحجاج وكان ضاحكاً مستبشراً. . . وقد روي أنه لما قتل سعيد بن جبير فندر رأسه لله هلّل ثلاثاً، مرة يفصح بها، وفي الثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح. .
وقد التبس الحجاج عند قتله سعيد. وعندما هدده بالقتل قبل أن يقتله قال له: إني إذا لسعيد كما سمتني أمي. فقتله، فلم يلبث بعده إلا نحواً من أربعين يوماً، فكان إذا نام يراه في منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول: يا عدو الله لم قتلتني؟ فيقول: ما لي ولسعيد بن جبير! ما لي ولسعيد بن جبير! الطبري ٤/ ٢٥ وابن الأثير ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١.

أهل الشام.. أهل الطاعة

(إنكم أهل الطاعة، وهم أهل المعصية، وأنتم تَسعون في رضوان الله، وهم يسعون في سخط الله، وعادة الله عندكم فيهم حسنة، ما صدقتموهم في موطن قط، ولا صبرتم لهم إلا أعقبكم الله النصر عليهم والظفر بهم فأصبحوا إليهم عادين جادّين، إني لست أشك في النصر إن شاء الله)[1].

لقد صُمِّمَ أهل الشام ليكونوا (أهل طاعة) وينظروا بعين حاكمهم و (خليفتهم)، وقد تحدثنا من قبل في هذا الكتاب كيف سعى معاوية قرابة أربعين عاماً ليجعلهم كذلك، راضين عن أنفسهم طالما أن أحاديث مزوّرة قد لفقت وانطلت عليهم إمرتهم باتباع الحاكم (ولي الأمر) وإن كان فاسقاً أو مفضولاً، وتعهدت لهم بالجنة باعتبار أنهم يسعون في رضوان الحاكم الذي هو رضوان الله.

المعركة الأخيرة.. تفوق في العدد والعدّة

وكان جيش الحجاج هذه المرة يتفوق على جيش ابن الأشعث كثيراً، ومع ذلك فإن القتال استمر خمسة عشر يوماً أشدّ قتال، ويكفي أن ندلل على كثرة جيش الحجاج بمشهد من تلك المعركة مشى فيه بسطام بن مصقلة بن هبيرة في أربعة آلاف فارس من شجعان أهل الكوفة والبصرة فكسروا جفون سيوفهم وحث أصحابه على القتال فحملوا على أهل الشام فكشفوهم مراراً، وهنا أمر الحجاج الرماة فرموهم، ولنا أن نتصور عدد الرماة الذين استطاعوا التغلب على أربعة آلاف فارس شجاع مستميت حتى قُتلوا إلا قليلاً منهم بعد أن أحاط بهم الناس.

إطمأنوا إلى نجاحهم في البداية فأمنوا وألقوا السلاح

وفي بداية المعركة تغلب ابن الأشعث على الحجاج الذي انهزم (وعبر السيب ورجع ابن الأشعث إلى عسكره آمناً ونهب عسكر الحجاج فأمنوا وألقوا السلاح، فلم يشعروا نصف الليل إلا والسيف يأخذهم، ورجع الحجاج في عسكره على الصوت فقتلوا من وجدوا، فكان عدة من قتل أربعة آلاف)[2].

---

(١) الطبري ٣/ ٦٤٠.

(٢) ابن الأثير ٤/ ٢١٣.

إلى سجستان.. غدر وخيانة

وهكذا اضطر ابن الأشعث للهروب مرة أخرى وسار إلى سجستان، وهناك غَدَر به عماله وقبض عليه أحدهم بعد أن أخذه غدراً وأراد أن يسلمه إلى الحجاج لو لم ينقذه رتبيل، ملك الترك من قبضته..

وعندما وصل سجستان، كان معه من أصحابه من الرؤوس والقادة الذين لم يقبلوا أمان الحجاج ونصبوا له العداوة في كل موطن، وفي الطريق إلى خراسان هرب من أصحابه عبيد الله بن عبد الرحمٰن بن سمرة القرشي في ألفين فأخذ طريقاً سوى طريقهم. وهنا أدرك عبد الرحمٰن أن معظم أصحابه سيتخلون عنه بالتدريج بعد أن يحصلوا على كتب أمان من الحجاج خصوصاً وأن آمالهم بالتغلب عليه قد خابت بعد أن تغلب عليهم عدة مرات...

وقد ألقى كلمة في أصحابه جاء فيها: (أما بعد فإني شهدتكم في هذه المواطن، وليس فيها مشهد إلا أصبّر لكم فيه نفسي حتى لا يبقى فيه منكم أحد، فلما رأيت أنكم لا تقاتلون، ولا تصبرون، أتيت ملجأ ومأمناً فكنت فيه، فجاءتني كتبكم بأن أقبل إلينا، فإنّا قد اجتمعنا وأمرنا واحد، لعلنا نقاتل عدونا، فأتيتكم، فرأيت أن أمضي إلى خراسان، وزعمتم أنكم مجتمعون لي، وأنكم لن تفرّقوا عني، ثم هذا عبيد الله بن عبد الرحمن قد صنع ما قد رأيتم، فحسبي منكم يومي هذا فاصنعوا ما بدا لكم، أما أنا فمنصرف إلى صاحبي الذي أتيتكم من قبله، فمن أحب منكم أن يتبعني فليتبعني، ومن كره ذلك فليذهب حيث أحب في عياذ من الله)(١).

مات غريباً بعد أن كاد يطيح بالعرش الأموي

ذهب عبد الرحمٰن إلى رتبيل من هراة وبقي هناك سنتين غَدَر به أحدُ أصحابه بعدها واتفق مع رتبيل أن يقتله ويسلم رأسه للحجاج، وقيل أنه أصيب بالسل.. ومات هناك بعد أن انتهت ثورته التي كادت أن تودي بالعرش الأموي وقد زلزلته، وجعلت الناس يفكرون بحقيقة الدولة الظالمة التي تسلطت على مقدرات المسلمين بالإكراه وكانت امتداداً لدولة يزيد التي انحرفت عن الإسلام بصورة سافرة متعمدة

---

(١) الطبري ٣/ ٦٤٢ وابن الأثير ٤/ ٢١٥.

وأعلنت رفضها لكل قيمه الحقيقية بل وكفرها به إلا ضمن الحدود التي أتيح لها التسلط والبقاء بعد أن مهدت لذلك بحملة منظمة من الافتراء والدس والأحاديث الموضوعة بدأها معاوية وحبذ لها عشرات (المحدثين) والقصاص ووعاظ السلاطين ومن لفّ لفهم، وقد تحدثنا عن ذلك بإسهاب في غضون هذا الكتاب.

٩ - ثورة زيد بن علي بن الحسين

عالم صالح

عاصر زيد (رض) فترة طويلة حياة أبيه زين العابدين عليه السلام وأخيه محمد الباقر عليه السلام وابن أخيه جعفر الصادق عليه السلام (١)، وامتاز بميزات فريدة وشعور عال بالمسؤولية أهلّه للقيام بثورته العاصفة بوجه دولة الظلم الأموية التي خرجت عن العديد من قيم الإسلام ومبادئه خروجاً سافراً متعمداً واستهدفت خط آل البيت وأنصارهم بالشر والأذى باعتبار أنه الخط الوحيد المؤهل لكشفها وتعريتها أمام الأمة مما قد يؤدي إلى الإطاحة بها واستبعادها عن الحكم، وهو ما لم تكن لتسمح به في أي حال من الأحوال.

وإذ أن زيداً نشأ في ظل تلك العائلة الفريدة وعُرف بالعلم والتقوى ورجاحة العقل ونكران الذات، فإن واقع حاله يدل دلالة أكيدة على أنه لم يكن يدعُ إلى نفسه ولم يكن طالب ملك أو منافساً على منصب الإمامة. ولو أنه كان كذلك ـ كما حاولت روايات هزيلة أشارت إلى محاورة مفتعلة بينه وبين أخيه الباقر ـ لطبّلت أجهزة الدعاية الأموية والعباسية ولما اكتفت بتلك الروايات الهزيلة، فالنيل من آل البيت بدا هدفاً مركزياً لكلا الدولتين لم تتهاونا فيه في أي يوم من الأيام، وخلاف واضح مدعم بروايات وأسانيد صحيحة لم يكن مما يمكن أن تتغاضى عنه ولا تذيعه بين الناس.

(١) ولد الإمام زين العابدين سنة ٣٨ وتوفي سنة ٩٥ من الهجرة.
أما زيد الذي قتل في أصح الروايات سنة ١٢٢ وعمره ٤٢ سنة وقيل ٤٥ وقيل ٤٧ سنة فلا بد أنه ولد إما سنة ٨٠ أو ٧٧ أو ٧٥ فيكون قد عاش مع أبيه ما بين خمس عشرة إلى عشرين سنة. وولد الإمام الباقر سنة ٥٧ وتوفي سنة ١١٤ من الهجرة فيكون زيد قد عاش معه أكثر من ٣٤ عاماً. أما الصادق فقد ولد سنة ٨٣ وتوفي سنة ١٤٨ من الهجرة فيكون زيد قد عاش حياته كلها معه.

شعور بمظلومية المسلمين

كان شعور زيد بمظلومية المسلمين وقيادتهم الحقيقية المبعدة عن المسؤولية، شعوراً مريراً، يُزيد من مرارته وجود الطغمة المتنكرة للإسلام على رأس السلطة الحاكمة وعبثها بمقدرات المسلمين واستهتارها بكل قيم الإسلام الحقيقية.

ولعل الأحداث التي ذكرها المؤرخون وذكروا أنه ثار بسببها، لم تكن سوى عوامل مساعدة أججت من تلك الثورة التي لم تكن دوافعها شخصية بأي حال.

عوامل أججت نار الثورة

وإذا ما استعرضنا تلك الأحداث التي ذكرت لنا ذكراً مبتراً منقوصاً ولم تتح للكتب والمصادر التاريخية نقلها كلها نقلًا وافياً، فإن تلك الأحداث المقطوعة عن مسبباتها الحقيقية قد لا تكون سبباً وحيداً لثورة إنسان عرف بعلمه وورعه وتقواه كزيد بن علي بن الحسين وقد تكون سبباً لوصم تلك الثورة بأنها كانت مجرد رد فعل لبعض الإهانات التي ألحقت بشخصه من قبل الحاكم الأموي وأعوانه، وهو الأمر الذي ما كان يقدم عليه زيد لو أنه كان كذلك ولما عرّض المئات من أصحابه للموت قتلًا لو أنه كان يريد الانتقام ممن آذوه وحاولوا إلحاق الإهانة به، ومن هنا كان الاختلاف في سبب ثورته.

فأما الرواية التي تنسب لعبد الله بن عياش فتذكر أن زيد بن علي ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداوود بن علي بن عبد الله بن عباس قدموا على والي العراق من قبل هشام بن عبد الملك، خالد بن عبد الله القسري[1]، فقدم لهم جوائز

---

(١) أصبح خالد القسري أيام ولايته من الأثرياء المشهورين حتى بلغت غلته عشرين مليوناً كل عام، وكان نهر خالد الذي حفره يغلّ خمسة ملايين كما أن غلة ابنه قد زادت على عشرة ملايين. وقد كتب إليه هشام أن لا يبيع غلاته حتى تباع غلاته هو ويبدو أنهما كانا يتنافسان على احتكار السوق في العراق. وقد صادر خلفه على ولاية العراق، يوسف بن عمر الذي كان أبوه بائعاً للخمر ـ أمواله التي بلغت مائة مليون ثم قتله أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ.
ويوسف بن عمر هذا الذي اشتهر بهديته الأسطورية للوليد التي ضمنت خمسمائة وصيفة وأباريق الذهب والفضة وتماثيل الظباء ورؤوس السباع والأبايل، أرسل إليه مع تلك الهدية برابط وطنابير وصنّاجات وكل بازي وبرذون فارة. وقد قتل بعد ذلك بأمر يزيد بن الوليد الناقص.

ورجعوا إلى المدينة. فلما عُزل خالد وولِّي يوسف بن عمر كتب إلى هشام بأسمائهم وبما أجازهم به وادّعى أن خالداً ابتاع من زيد بن علي أرضاً بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم رد الأرض عليه، ولما كان يوسف بن عمر الذي اشتهر بقسوته وكراهيته لآل البيت عليهم السلام قد أراد أن يتقرب من هشام بادعاء الحرص على إرجاع الأموال التي سرقها سلفه من المسلمين وأراد انتزاعها منه بالقوة، فإنه عمد إلى تلك الوشاية للتنكيل بخصومه جميعاً، وقد كتب هشام إلى عامل المدينة أن يسرّحهم إليه ففعل، فسألهم هشام فأقروا بالجائزة، وأنكروا ما سوى ذلك، فسأل زيداً عن الأرض فأنكرها، وحلفوا لهشام فصدقهم[1]..

وتضيف رواية أخرى عن هشام بن محمد الكلبي: إن الذي ادعى مالاً قبلهم هو يزيد بن خالد ـ الذي ربما كان قد فعل ذلك تحت تهديد يوسف بن عمر ـ الذي كتب إلى هشام بذلك، فبعث إليهم فذكر لهم ما كتب به يوسف، فأنكروا، فبعث بهم هشام إلى الكوفة ليجتمعوا بيزيد بن خالد ويثبتوا براءتهم هناك.. وإذ أن يوسف بن عمر كان متحاملاً عليهم فإن زيد طلب من هشام ألا يبعث بهم إلى هناك لئلا يعتدي عليهم يوسف وإن هشام طمأنهم وأرسل معهم رسالة أمر فيها يوسف أن يجمع بينهم وبين يزيد بن خالد القسري، فإن هم أقروا بما ادعى عليهم فليسرح بهم إليه، وإن هم أنكروا فليسله بيّنة، فإن هو لم يقم البيّنة فليستحلفهم بعد العصر، ما استودعهم يزيد ولا له قبلهم شيء ثم يخلي سبيلهم.

وتختلف الروايات حول الشخص الذي استودعهم مالاً، هل هو خالد القسري أو ابنه يزيد، ويذكر عن عطاء بن مسلم (أن زيد بن علي لما قدم على يوسف، قال له يوسف: زعم خالد أنه قد أودعك مالاً! قال: أنى يودعني مالاً وهو يشتم آبائي على منبره، فأرسل إلى خالد فأحضره في عباءة، فقال له: هذا زيد، زعمت أنك قد أودعته مالاً وقد أنكر، فنظر خالد في وجههما، ثم قال: أتريد أن تجمع مع إثمك فيَّ إثماً في هذا! وكيف أودعه مالاً وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر. فشتمه يوسف ثم رده) الطبري ٤/ ١٩٦ ويبدو واضحاً أن الأمويين وصنائعهم أرادوا تلفيق هذه التهمة لزيد وإجباره على دفع الأموال التي ادعوا أنه احتفظ بها لخالد بزعمهم.

---

(١) الطبري ٢/ ١٩٣ وابن الأثير ٤/ ٤٤٣.

وفي الكوفة أنكر يزيد أن يكون له قبلهم شيء ثم استحلفهم يوسف فحلفوا له، فكتب إلى هشام بذلك فأمره هشام أن يخلي سبيلهم فخلى عنهم، فلحقوا بالمدينة عدا زيد فإنه أقام بالكوفة[١] . . .

إهانة مقصودة

واستناداً إلى هذه الروايات التي أكّدت أن زيد الذي ألحقت به هذه الإهانة من الأمويين حينما لفقت له تهمة الاحتفاظ بوديعة خالد القسري المزعومة، ذكرت أنه قد تأذى من تلك الإهانة، وأنه بقي بسببها في الكوفة يدعو لنفسه ويروم الإطاحة بالعرش الأموي وأنه استجاب لدعوات (الشيعة) التي أخذت تختلف إليه وتطلب منه الخروج، وأن ذلك لفت أنظار الحاكم الأموي في الكوفة حتى بعث من يخرجه منها، وأن (الشيعة) لحقته (فقالوا له: أين تذهب عنا ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم غداً وليس قبلك من أهل الشام إلا عدة قليلة، لو أن قبيلة من قبائلنا نحو مذحج أو همدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم بإذن الله تعالى، فننشدك الله لما رجعت، فلم يزالوا به حتى ردّوه إلى الكوفة)[٢].

ثورة زيد لم تكن رد فعل على إهانة ألحقت به

فهذه الروايات قد حاولت أن تصور ثورة زيد بأنها مجرد رد فعل على إهانة شخصية ألحقت به، وأنه لم يستوعب الدروس السابقة التي تلقاها أسلافه من أهل الكوفة الذين غدروا بآله وذويه عدة مرات، وأنه أساء تقدير قوة أهل الشام مستجيباً لما ذكره أهل الكوفة عنهم وأنهم قادرون على مواجهتهم إذا ما جد الجد وقامت الثورة.

وقد ألحقت بهذه الأسباب، أسباب أخرى لثورة زيد، أريد منها أيضاً أن تدلل على أنه قام بها انتقاماً لإهانات شخصية ألحقت به وبأخيه الباقر عليه السلام . . . ومع أننا نحتمل أن تلك الإهانات قد وجهت فعلاً، إلا أن شخصاً مثل زيد له تلك العقلية الرسالية وذلك الوعي الواضح بالإسلام، ما كان ليثور انتقاماً لنفسه وذويه، ولم يكن ليدفعه لتلك الثورة غير خروج السلطة السافر عن الإسلام واستهانتها بالمسلمين وعبثها بهم وبمقدراتهم وأموالهم.

---

(١) الطبري ٤/ ١٩٣ - ١٩٤ وابن الأثير ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٢) نفس المصدرين السابقين.

هشام والحقد على أهل البيت

وتذهب رواية أخرى ـ يختلف ناقلوها ورواتها في أقوالهم ـ إلى أن هشاماً طلب من زيد أن يقدم عليه إلى الشام فلما فعل ألحّ عليه في الذهاب إلى يوسف في العراق، وإذ أن زيد يعرف عداوة يوسف وحقده على آل البيت فإنه طلب من هشام أن لا يلح عليه في ذلك وأن يتركه لكي يعود إلى المدينة وقال فيما قال له: (. . . فوالله ما آمن إن بعثتني إليه ألا أجتمع أنا وأنت حيّين على ظهر الأرض بعدها. . فقال: إلحق بيوسف كما تؤمر، ففعل)[1].

ومهما يذهب النقاد والمؤرخون في تفسير كلمة زيد هذه، فإنهم يظلون بعيدين عن الذهاب إلى أنها كانت كلمة تهديد لهشام، إلا أنها كانت إشارة واضحة على ظلم عامله على العراق الذي ربما لن يتورع عن إلحاق الأذى به وقتله بمختلف الذرائع والحجج، وربما لفق له قصة أشهد عليها شهود السوء لينال منه.

خصومات ملفقة

وقد تحدث المتحدثون عن خصومات زيد لابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن بن علي في وقوف لجدهما علي عليه السلام وذكروا أنهما كانا يتبالغان بين يدي الوالي في خطبهما وحججهما فلا يعيدان مما كان بينهما حرفاً[2]. . . ونتساءل: هل كان النقاس بينهما عقائدياً أو فكرياً أو أمراً يتعلق بالفلسفة والمنطق حتى يذهبان إلى ذلك الحد، أو أنه مجرد (خلاف) على وقف لا يحتاج إلا لإبراز حجج وإثباتات وشهادات شهود لكي يقر لكل واحد حقه، وربما يتم ذلك في جلسة أو جلستين وتنتهي المسألة. . ثم: أين كان الثقاة الأئمة من آل البيت عليهم السلام حتى لا يرجع إليهم الآخرون من ذويهم حول هذا الموضوع! ألم يكن الباقر والصادق عليهما السلام موجودين، وقولهما الفصل، حتى يحسما مسألة الخلافة المزعومة هذه؟

فوت الفرصة على من أراد استغلال قضية الخلاف

ومهما يكن من أمر فإن المتحدثين ذكروا أن زيداً فوت فرصة كبيرة على الوالي الأموي في المدينة الذي كان يرفع استغلال قصة الخلاف على الوقف لإلحاق الإهانة

---

(١) الطبري ٤/ ١٩٥ وابن الأثير ٤/ ٤٤٤.

(٢) ابن الأثير ٤/ ٤٤٤ والطبري ٤/ ١٩٤.

بالطرفين العلويين، عندما طلب من ابن عمه التريث ليحسما المسألة فيما بينهما دون الرجوع للوالي الذي بدا له غرضه من جمعهما واضحاً.

وقال زيد للوالي: أما والله لقد جمعتنا لأمر ما كان أبو بكر ولا عمر ليجمعانا على مثله، وإني أشهد الله ألا أنازعه إليك محقاً ولا مبطلًا ما كنت حياً. ثم قال لعبد الله انهض يا ابن عم، فنهضا وتفرق الناس) الطبري ٤/ ١٩٥ وشرح ابن أبي الحديد ١/ ٣١٥ مع بعض الاختلاف في النص.

وإذ أن الفرصة قد فوتت على ذلك الوالي الحاقد، فإنه حاول تحريض الناس على زيد، فانبرى أحدهم يشتم أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام، وهو أمر لم يكن غير مألوف في ظل الدولة الأموية، لذلك فإن زيداً قال له أن يسكت فهم لا يجيبون مثله... وقد استفز ذلك الرجل فأجابه (ولم ترغب عني؟ فوالله إني لخير منك وأبي خير من أبيك وأمي خير من أمك. فتضاحك زيد وقال: يا معشر قريش، هذا الدين قد ذهب فذهبت الأحساب، فوالله ليذهب دين القوم وما تذهب أحسابهم.. فتكلم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: كذبت والله أيها القحطاني فوالله لهو خير منك نفساً وأما وأباً ومحتداً، وتناوله بكلام كثير وأخذ كفاً من حصباء وضرب بها الأرض، ثم قال: إنه والله ما لنا على هذا من صبر)[1].

تصعيد (ثقافة) السب

كانت (ثقافة) سب آل البيت والنيل منهم والتي أرساها ووضع دعائمها معاوية منذ مطلع حكمه، قد اقترنت (بثقافة) الولاء الأعمى للسلطان مهما كان لونه ومشربه، فما دام السلطان قد عرض نفسه للناس على أنه جامعهم ومحقق وحدتهم والقيّم على أمورهم ووليهم، فإنه جعل طاعة الله من طاعته، ومنع أي خروج عليها وعلى أحكامه وجعل السيف فيصلًا بينه وبين مناوئيه.

أراد الجميع أن يحبّوا من أحبَّ وأن يكرهوا ويسبّوا من كره وسبَّ، وكان القيام بسب أعدائه (علي وبنيه) مقياساً للطاعة والاستقامة، فمن يستجب له ويسب أعداءه، عُدَّ خير الناس بما فيهم أولئك الذين يقوم بسبّهم..، ولا شك أن ذلك القحطاني الذي شتم أمير المؤمنين عليه السلام والحسين عليه السلام تقرباً للوالي الأموي اعتبر نفسه خيراً منهما

---

(١) ابن الأثير ٤/ ٤٤٤ - ٤٤٥ والطبري ٤/ ١٩٥ وشرح ابن أبي الحديد ١/ ٣١٥.

ما دام أن الذي أمره بذلك، ورضي بذلك منه هم أسياده الذين اعتبر إمامتهم وولايتهم وطاعتهم طوقاً في عنقه وأمانة عنده.

وكانت تلك حالة منكرة تدل على تردي أوضاع المسلمين في ظل دولة الظلم التي لم تعد تعنى بإخفاء إنحرافها وشذوها عن عموم المسلمين. فهل أن الدين قد ذهب ولم يعد له وجود في ظل دولة الظلم؟ وهل أن هذه حالة يمكن السكوت عنها؟ وهل أن ما أثار ابن عمر بن الخطاب، عبد الله بن واقد لم يكن ليثير زيداً؟

رافض للذل والعبودية: ـ «والله لا يحب الدنيا أحد ذلّ»

ومهما يكن السبب الذي أقدم زيداً على هشام، فإن هذا الأخير أراد امتهانه بشتى الأساليب، فبينما هو لا يسمح له بمقابلته ويأمره بالعودة إلى المدينة، ثم يضطره لرقى عليّة له طويلة حتى يلقاه، ثم يواجهه مواجهة فظة يقول له فيها أنه لا يصدقه ويتهمه بأنه يذكر الخلافة ويتمناها، فإنه يعمد آخر الأمر إلى طرده بعد أن رأى صلابته وعدم استعداده للتنازل أمامه[١]. . . وهو الأمر الذي يسند إليه بعضهم سبب ثورة زيد على دولة هشام الأموية.

(١) (شخص زيد إلى هشام بن عبد الملك، فجعل هشام لا يأذن له، فيرفع إليه القصص، فكلما رفع إليه قصة كتب هشام في أسفلها: ارجع إلى أميرك، فيقول زيد: والله لا أرجع إلى خالد أبداً، وما أسأل مالاً، إنما أنا رجل مخاصم، ثم أذن له بعد طول حبس. . .
لما قدم زيد بن علي على هشام بن عبد الملك، أعلمه حاجبه بمكانه، فرقي هشام إلى عليّة له طويلة، ثم أذن له، وأمر خادماً أن يتبعه، وقال: لا يرينّك واسمع ما يقول: قال: فأتعبته الدرجة ـ وكان بادناً ـ فوقف في بعضها فقال: والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل، فلما صار إلى هشام قضى حوائجه، ثم مضى نحو الكوفة ونسي هشام أن يسأل الخادم حتى مضى لذلك أيام، ثم سأله فأخبره، فالتفت إلى الأبرش، فقال: والله ليأتينك خلعه أول شيء. وكان كما قال. .
وذكر عن زيد أنه حلف لهشام على أمر، فقال له: لا أصدقك، فقال: . . . إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله، ولم يضع قدر أحد عن ألا يرضى بذلك منه. فقال له هشام: لقد بلغني يا زيد انك تذكر الخلافة وتتمناها، ولست هناك وأنت ابن أمة! فقال زيد: إن لك جواباً، قال: تكلم، قال: ليس أحد أولى بالله، ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعثه، وقد كان إسماعيل من خير الأنبياء، وولد خيرهم محمداً ﷺ وكان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة مثلك فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر، وما على أحد من ذلك إذ كان جده رسول الله ﷺ وأبوه علي بن أبي طالب ما كانت أمّه أمة. . . =

توجهات معروفة من قبل القيادة الأموية

ويروي لنا آخرون قصة مشابهة لهذه. . . (دخل زيد على هشام، فلما مثل بين يديه لم ير موضعاً يجلس فيه، فجلس حيث انتهى به المجلس وقال: يا أمير المؤمنين، ليس أحد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله، فقال هشام: أسكت لا أم لك، أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة، وأنت ابن أمة، فقال: يا أمير المؤمنين: إن لك جواباً إن أحببت أجبتك به، وإن أحببت أسكت عنه، فقال هشام: بل أجب. قال: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحاق، فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً وجعله للعرب أباً، فأخرج من صلبه خير البشر محمد ﷺ، فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي! وقام وهو يقول:

شرّده الخوف وأزرى به ... كذاك من يكره حرّ الجلاد
منخرق الكفين يشكو الجوى ... تنكثه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة ... والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة ... يترك آثار العدا كالرماد)[1]

= فقال له هشام: أخرج، قال: أخرج، ثم لا تراني إلا حيث تكره، فقال سالم: يا أبا الحسين، لا يظهرن هذا منك فقال له: خرج بنا أسرى على غير ذنب من الحجاز إلى الشام ثم إلى الجزيرة ثم إلى العراق إلى قيس ثقيف يلعب بنا وقال:

بكرت تخوفني المنون كأنني ... أصبحت عن عرض المنون بمعزل
فأجبتها أن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل
إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضيق المنزل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك الله وإني أعطي الله عهداً إن دخلت يدي في طاعة هؤلاء ما عشت، وفارقه وأقبل إلى الكوفة). الطبري ٤/ ١٩٦ وابن الأثير ٤/ ٤٤٥ وروى المسعودي قسماً من هذه القصة ٣/ ٢٠٦ وكذلك اليعقوبي ٢/ ٣٢٥ والعقد الفريد ٤/ ١١٧ و٥/ ٢٢٥ و٣٤٧ و٧/ ١٣٩ مع بعض الاختلاف وشرح ابن أبي الحديد ١/ ٣١٥.

(١) المسعودي ٣/ ٢٠٦ واليعقوبي ٢/ ٣٢٥ وقد ذكرنا بعض المصادر التي ذكرت قصصاً مشابهة لهذه. ويروي ابن أبي الحديد أن هشاماً قال له: (فما يصنع أخوك البقرة؟ فغضب زيد حتى كاد يخرج من أهابه، ثم قال: سماه رسول الله ﷺ الباقر وتسميه أنت البقرة. لشد ما اختلفتما. لتخالفنه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة وترد النار. فقال هشام: =

ولا شك أن الحكام الأمويين وأعوانهم كانوا يحاولون دائماً النيل من آل علي عليه السلام حتى ذهبوا في ذلك إلى حد السباب المقذع، وقد واجهوا زيداً ببعضه كما واجهوا العديدين من آل البيت عليهم السلام، ولا شك ان إلحاق الإهانة بهم والتقليل من قيمتهم وأهميتهم بنظر المسلمين بدا أمراً ضرورياً وملحاً بنظر القيادة الأموية، إلا أننا لا نعتقد من خلال اطلاعنا على سيرة زيد ومزاياه الشخصية الفريدة ومعرفته التامة بتوجهات الأئمة من آل البيت، والده علي زين العابدين، وأخيه الباقر وابن أخيه الصادق عليه السلام إنه يمكن أن يستدرج إلى موقف إنفعالي يعبر فيه عن غضبه على من وجّه الإهانة له ولذويه، بتلك الثورة التي أريق فيها دمه ودماء أصحابه.

وإنما نعتقد أنه ثار لجملة من الأسباب الموضوعية رأى معها أنه لا بد له من تلك الثورة، وإذا ما صدرت منه بعض العبارات والجمل التي تدل على تذمره من وجود العائلة الأموية على سدة الحكم، فإننا لا ينبغي أن نحمل ذلك على أنه الأمر الوحيد الذي أثاره، وإن الأمر الآخر هو إبعاده عن مجلس الخليفة أو إلحاق بعض الغبن أو الأذى الشخصي به.

فالقصص التي رويت لنا والأحداث التي ذكرت لا يمكن أن تكون هي دافع زيد للثورة حتى ولو كانت قد وقعت فعلًا.

إنحراف بلغ الذروة.. علامات على نهاية حياة دولة الظلم الأموية

لم يدم عمر الدولة الأموية بعد مقتل زيد أكثر من عشر سنين، إذ هُزم آخر خليفة أموي مروان بن محمد الحمار في الزاب سنة إثنتين وثلاثين ومائة أمام القوات العباسية التي كانت ترفع شعارات علوية وتدعو للرضا من آل البيت، وهي دعوة طالما رفعها الثوار العلويون في مقدمتهم زيد رضوان الله عليه فاستهوت الناس وجعلتهم يلتحقون بركب الثوار، وكانت سبباً رئيسياً لانتصار العباسيين على الأمويين.

فالدولة الأموية كانت عند ثورة زيد قد أشرفت على شيخوختها، بل موتها،

=خذوا بيد هذا الأحمق المائق فأخرجوه. فأخذ الغلمان بيده فأقاموه. فقال هشام: إحملوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله. فقال زيد: والله لئن حملتني إليه، لا أجتمع أنا وأنت حيين وليموتن الأعجل منا). ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ١/ ٣١٥ (فخرج زيد من عند هشام وهو يقول: ما كره قوم قط حر السيوف إلا ذلوا). خطط المقريزي م ٤ ص ٣٠٩.

وكان انحراف الحكام الأمويين ومرتزقتهم قد بلغ ذروته بعد أن تجاوز عمر تلك الدولة ـ التي قامت على أسس بعيدة عن الإسلام بل ومناقضة له ـ أكثر من ثمانين سنة، ولم يكن من المعقول أن لا يتصدى أحد لتلك الدولة التي بدأت علامات الموت تلوح عليها، وإن بدت مزدهرة في الظاهر، وبدا قادتها ـ وفي مقدمتهم هشام ـ وكأنهم وصلوا إلى ذروة القوة والمنعة. . . وكان التعرض لها يعني مجازفة كبيرة بنظر أولئك الذين ألفوا الخضوع والاستسلام والارتماء بأحضان الحاكم الظالم وإطاعته طاعة عمياء.

لن تغني الأموال

وإذ أن هشاماً البخيل الذي استأثر بالأموال الأسطورية التي حصلها له عماله بمختلف الأساليب بدا وكأنه يعيش حالة زهد تجاه ما يشهده الناس من تمادي أفراد عائلته وعماله في الإفراط في الترف والملذات وصرف الأموال الطائلة، فإنه جعل الأمة كلها محرومة من أبسط حقوقها في المال، واستمرت حملة القمع في عهده لإسكاتها عن المطالبة بحقوقها أو لرفع الغبن والضيم وإقامة الحدود العادلة التي تضمن سلامتها وصلاحها كأمة إسلامية تفترض ممن يحكم باسم الإسلام أن يسير فيها سيرة عادلة صالحة.

فكانت سياسة التجويع والحرمان تبدو سلاحاً ناجحاً بوجه من يُحتمل أن يقوم بوجه دولة الظلم المتمادية وفي مقدمة أولئك آل البيت ومن ينتمي إليهم بنسب أو قرابة أو ولاء، حتى (أن أهل هذا البيت من بين هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً، حتى كانت همّة أحدهم قوت عياله)[1] على حد تعبير يوسف بن عمر الوالي الأموي على الكوفة الذي تصدى لقمع ثورة زيد في الكوفة.

ثورة بوجه الانحراف: « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين »

كانت بيعة زيد التي بايع عليها الناس: (إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم

(١) الطبري ٤/٢٤٨.

هذا الفيء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، وإقفال المجمَّر ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا)[١].

لم يكن من المعقول أن تقوم دولة في ظل الإسلام وتدّعي شرعيتها على أساسه، بذلك الخرق الفاضح لحدود الإسلام وقوانينه وأحكامه وأن تبتعد عن القرآن وتزوّر أقوال النبي وتسير بسيرة الفراعنة المستبدين الذين لا يحكّمون إلا مصالحهم وأهواءهم وأن تعمد إلى شتى ضروب الأذى والتنكيل بعموم أبناء الأمة وكأنهم من ممتلكاتها الخاصة. ولم يكن من المعقول أن لا تنتبه القيادة الحقيقية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام إلى ذلك وأن لا تقوم بأية مساع لإزالة سلطان البغي عن الأمة ودفع الحيف والأذى عنها، وقد رأينا الأدوار التي لعبوها في هذا المجال.

طليعة رسالية بقيادة آل البيت عليهم السلام

إن الطليعة الرسالية المنتمية لآل البيت عليهم السلام والتي كانت تتمتع بوعي استثنائي بحكم ذلك الانتماء وبحكم الفهم الحقيقي للإسلام المأخوذ عنهم ـ ومنها زيد رضوان الله عليه ـ كانت تدرك ضرورة التغيير الملحّ وإزالة القيادات العدوانية التي تسلطت بالمكر والإكراه على مقدرات المسلمين، والتي لم تحتفظ من الإسلام إلا بعض مظاهره الخارجية الطقوسية التي كانت تريد بها إثبات إنتمائها للإسلام وقيمومتها على المسلمين.

كان القرآن يُقرأ إلا أنه كان يفسر على هوى الحاكمين، وكان سيل الأحاديث المزورة يطغى على الأحاديث الصحيحة، وكانت موجة الظلم تعلو على عدالة الإسلام، وحتى الفتوحات التي كان ينبغي لها أن تتم بشكل مدروس وأن تكون محصلتها لمصلحة المسلمين كانت تجري بشكل عشوائي لا يقصد منه ضم الناس للإسلام بقدر ما كان يقصد منه ضم المزيد من الثروات لخزينة الحاكم[٢] وإبعاد المقاتلين الذين لا يضمن ولاءهم إلى تخوم المملكة بينما يظل الجنود الموالون

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٩.

(٢) وقد رأينا إقدام الحكام الأمويين على طرد غير العرب من المسلمين وإلحاقهم بقراهم ومدنهم السابقة لاستحصال الجزية منهم مع أنهم بنظر الإسلام يتساوون في الحقوق والواجبات مع غيرهم من العرب المسلمين.

وجلّهم من أهل الشام يعبثون بمقدرات المسلمين ويسلطون على أموالهم وأعراضهم ويستنفزون لقمع كل حركة معارضة في الداخل[١]...

لا بد من تعرية السلطة وكشف توجهاتها المعادية للإسلام

لم يكن هناك بدّ من تعرية السلطة الحاكمة وكشف توجهاتها المعادية للإسلام، والسعي لإبعادها عن المركز القيادي الذي استولت عليه بأساليبها العدوانية الماكرة.

ولم يكن أسلوب الحكم الذي أراده رسول الله ﷺ ودعا إليه ومهد له بخافٍ على الفئة التي استخلفها رسول الله ﷺ من بين جميع المسلمين، وإن استبعدت عن القيادة الفعلية لهم، كما أن الفئة الطليعية التي تنتمي لآل البيت إما بالنسب أو الولاء والعقيدة كانت تدرك إدراكاً حقيقياً طبيعة توجهات الإسلام لإرساء الحكم القائم على مبادئه الحقيقية لا ذلك الذي يقوم على الرغبات والغرائز المتدنية للفئة التي حاربت الإسلام منذ البداية ولم تنتم إليه إلا مكرهة بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم استطاعت التسلط عليهم واستغلالهم وإعلان حكمها، لا حكم الإسلام عليهم.

كان تشبيه رسول الله ﷺ لآل بيته عليهم السلام بسفينة نوح[٢] وجعلهم بمنزلة القرآن وإقرانهم به[٣] له دلالته الواضحة على تلك الفئة المنتقاة والمعدة لقيادة المسلمين وتجنيبهم المزالق والمهالك والأخطار والانحرافات، فقد كانوا هم القرآن الناطق وأقدر الناس على فهم كتاب الله وترجمته وتفسيره والعمل به، وكانوا أجدر الناس الذين كان ينبغي على الأمة أن تتمسك بهم وتضعهم على رأس السلطة لضمان سلامتها من كل انحراف أو خطأ، فقد أعلن رسول الله ﷺ من قبل أن الإسلام والسلطان إخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه، فالإسلام أس والسلطان

---

(١) وقد رأينا في هذا الفصل عند استعراض ثورتي مطرف بن المغيرة وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ان من الأسباب التي دعت لتينك الثورتين، إبعاد المقاتلين المسلمين من أهل العراق إلى أطراف الدولة، وبث المقاتلين من أهل الشام في عواصم الدولة وخصوصاً في الكوفة التي كانت مصدر قلق دائم للدولة الأموية.

(٢) وهو حديثه ﷺ «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

(٣) وهو حديث ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». وقد أشرنا إلى مصادر هذين الحديثين.

حارث، وما لا أسّ له يهدم، وما لا حارث له ضائع)[1]. . . ومن هنا كانت المطالبة بالخلافة أو السلطة أمراً لا يدخل في دائرة الرغبة الشخصية لأصحاب الحق فيها حتى يحصلوا على امتيازات وحقوق استثنائية بقدر ما كانت استجابة لأمر إلهي يدعو إلى أن يكون السلطان حارث، لا مجرد مستفيد من مكاسب جاهزة شقي الآخرون بها أو مستغل لها، وأن يحقق عدالة الإسلام بوعي من يمتلك الفهم الحقيقي له ويبدو وكأنه هو الإسلام ذاته.

الصراع المكشوف ليس في صالح الأئمة عليهم السلام

وكان ما يعلمه أهل البيت عن حقهم الأكيد في الخلافة والسلطة يعلمه الآخرون ومنهم مغتصبو السلطة أنفسهم، الذين كانوا يراقبون الأئمة عليهم السلام مراقبة دقيقة لإلحاق أشد ضروب الأذى والتنكيل بهم عند ظهور أدنى بادرة للمطالبة بالخلافة أو السعي لها، فلم يكن أمراً وارداً بنظرهم أن يتنازلوا طواعية عما شيدوه وأقاموه ليبقى إرثاً لأبنائهم وأحفادهم إلى الأبد، وكانوا سيلجأون إلى التصفيات الجسدية التي طالم لجأوا إليها من قبل للاحتفاظ بسلطانهم وملكهم، وسيكون الأئمة أول المستهدفين بتلك التصفيات. وقد رأينا كيف لجأ معاوية إلى دس السم للإمام الحسن عليه السلام لكي يخلو له الجو من بعده ويقيم ابنه يزيداً ولياً للعهد، وكيف لجأ هذا الأخير إلى تنظيم أبشع مجزرة في كربلاء قتل فيها الحسين عليه السلام ومجموعة من أهل بيته وأصحابه آزروه في وقفته الباسلة بوجه الإنحراف الأموي المكشوف.

ولم يكن أمثال هشام ليتورعون عن اللجوء إلى ما لجأ إليه أسلافهم من قبل، وكان لا بد للأئمة من انتهاج طرق للعمل تنسجم وطبيعة المراحل التي كانوا يعيشونها في ظل القيادات المنحرفة، وكانوا بسعيهم إلى إعداد فئات رسالية طليعية من بين أبناء الأمة وتربيتها على نهجهم السليم يجعلون الأمة متحفزة دائمة لمواجهة الانحراف والانقضاض على دولة الظلم وإن لم يكونوا يبدون في الظاهر ساعين للسلطة أو لتغيير نظام الحكم. إذ أن من شأن ذلك يفسح المجال لدولة الظلم لكي تنكل بهم وتنال منهم بل وتبيدهم ثم تعمد بعد ذلك إلى إخفاء جريمتها بعد أن تعرضهم على

(١) كنز العمال ١٠/ ٦ (رواه الديلمي).

المسلمين كمنافسين على السلطة طامعين بالمكاسب والامتيازات التي توفرها للحاكمين أمثالهم هم.

إن الصراع المكشوف بين الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وبين خصومهم وخصوم المسلمين الذين تسلطوا على مقدراتها بالإكراه والمكر لن يكون في صالح الأئمة، بينما يتمتع الخصوم بالقوة والسلاح الذي لن يتورعوا عن استخدامه بطريقة غادرة تلحق أشد الأذى بهم وبالمسلمين عموماً، ولم يكن معنى ذلك أن يسكت الأئمة عن أعداء الأمة أو يقروا أفعالهم أو تصرفاتهم ولم يكن من المعقول أن لا تكون هناك مواجهة بينهم وأن تكن حذرة أو سرية ولا تكون باسم الإمام نفسه.

كان واقع الأمة في ظل الحكم الأموي المنحرف تحتم القيام بعملين في وقت واحد: (أحدهما: العمل من أجل بناء القواعد الشعبية الواعية التي تهيىء أرضية صالحة لتسلم السلطة، والآخر: تحريك ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها، والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين. والعمل الأول هو الذي مارسه الأئمة بأنفسهم، والعمل الثاني هو الذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية. وكان الأئمة عليهم السلام يسندون المخلصين منهم...

فترك الأئمة عليهم السلام إذا العمل المسلح بصورة مباشرة ضد المنحرفين لم يكن يعني تخليهم عن الجانب السياسي من قيادتهم وانصرافهم إلى العبادة، إنما كان يعبر عن اختلاف صيغة العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية وعن إدراك معمق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه). الشهيد الصدر ـ بحث حول الولاية ٥٣ - ٥٤.

ولم نجد إماماً ندد بثورة قام بها أحد ذويه أو أصحابه للنيل من دولة الظلم المتجاهرة بالانحراف، بل وجدنا على العكس من ذلك من أشاد من الأئمة بتلك الثورات والقائمين عليها، ووجدنا أنهم كانوا يحثون الناس على الالتحاق بها وتأييد الثوار، طالما أن محصلتها النهائية ستكون لصالح المسلمين.

لم يكن يطالب بالأمر لنفسه

وقد روي أن طائفة ممن بايعوا زيداً (مرّوا إلى جعفر بن محمد بن علي، فقالوا له: إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه؟ فقال لهم: نعم بايعوه، فهو والله أفضلنا وسيدنا وخيّرنا...)[1].

وروي أن الإمام الباقر عليه السلام ضرب على كتفه وقال له: هذا سيد بني هاشم، إذا دعاكم فأجيبوه وإذا استنصركم فانصروه) ـ حياة الإمام الباقر/القرشي ص ٦٧ نقلًا عن عمدة الطالب ٢/ ١٢٧ من مصدرات مكتبة الإمام الحكيم ت ٢٤.

فهو بإطرائه زيد بتلك الدرجة كان يريد أن يزيل كل تحفظ بشأنه وكان يريد لهم أن يندفعوا وراءه دون حدود أو قيود.

وقد روي أيضاً أن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال للمأمون في معرض حديثهما عن زيد: (إنه كان من علماء آل محمد غضب لله فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام أنه سمع أباه جعفر بن محمد عليه السلام يقول: « رحم الله عمي زيداً، إنه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفّى لله في ذلك، إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد »[2].

وروي أن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سئل عن خروج زيد، فقال: (خرج على ما خرج عليه آباؤه)[3].

حركة رسالية ـ واجهة لأئمة أهل البيت عليهم السلام

لقد رويت لنا أخبار عديدة عن حزن وتألم الإمام الصادق عليه السلام لمقتل زيد وقيامه بتفريق بعض الأموال على عيال من أصيب معه من أصحابه، كما أنه عليه السلام أثنى على حركته والحركات اللاحقة التي كان من شأنها الإطاحة بدولتي الظلم الأموية والعباسية، وفي ذلك دليل كبير على صحة توجهات هذه الحركات وعلى أن القائمين بها لم ينطلقوا من دوافع وأطماع شخصية وإنما كانوا يهدفون إلى إعادة الأمور إلى

(١) الطبري ٤/ ٢٠٤.
(٢) عادل أدهم: الأئمة الإثنا عشر ص ١٧٩.
(٣) الخطط القريزي ٤/ ٣٠٧.

نصابها وتسليم القيادة إلى أئمة آل البيت عليهم السلام وإبعاد أنظار أركان الحكم القائم عنهم لئلا ينالوهم بالأذى والعدوان، وإنهم ـ إن صح التعبير كانوا واجهات غير معلنة لأئمتهم الذين يمتون إليهم بقرابة وثيقة ونسب من الولاء الكبير الذي عزّز منه فهمهم الواعي للإسلام وواجباتهم في ظله، وفي مقدمتها التصدي للظلم والعدوان الذي كانت تتعرض له الأمة باستمرار.

تحركات مرصودة

كانت تحركات زيد مرصودة من قبل أعدائه، وكانوا يرون أنه إذا أكمل استعداداته في الكوفة فإن عواقب ذلك ستكون وخيمة عليهم، فحاولوا معرفة قوته الحقيقية ومكان تواجده وقتلوا رجلين اتّهما بأنهما آوياه، وكان الغرض من ذلك إما دفعه للهرب، وهذا ما لم يكن يفعله زيد، أو إعلان ثورته قبل أن يكمل الاستعدادات اللازمة، وهو ما فعله، لأنه كان الأمر الوحيد الذي كان عليه القيام به، وهو ما جعله يفشل في معركته رغم بسالته وقوة بأسه.

وقد جعل ذلك بعض المؤرخين والناقدين يتهمونه بالعجلة، رغم أنه كان يعرض نفسه وأصحابه للإبادة والقتل السريع دون أن يحقق شيئاً لو لم يبادر بالخروج لإمساك زمام المبادرة ومفاجئة أعدائه، ومن هؤلاء الناقدين الزهري الذي علق عند مشاهدته رأس زيد في الشام بقوله: (أهلك أهلَ هذا البيت العجلة). الأصفهاني مقاتل الطالبيين ص ١٤٣.

وتبرز ظواهر إجتماعية عديدة جديرة بالانتباه إليها، شبيهة بتلك التي برزت خلال ثورة الحسين عليه السلام وظهور مسلم بن عقيل في الكوفة، وفي مقدمتها حرص أناس مغمورين لا ينتمون للسلطة ولا يحسبون من قيادات المجتمع لإظهار تحيزهم الواضح للحكم وقيامهم بالوشاية والدس والوقيعة وإظهار بطولة مفتعلة لكي يراهم حاكم الكوفة ويرضى عنهم، مع أنهم قد لا يجنون أية ثمار لأعمالهم تلك سوى احتمال لفتة بسيطة قد يثيبهم الحاكم فيها بضعة دريهمات. وقد لا يكون جزاء ذلك سوى نظرة احتقار يوجهها الحاكم إليهم، فالخيانة واختيار طريق الوشاية والدس والوقيعة قد ينكرها حتى الذي يستفيد منها مع أنه لا يحرم نفسه من الإفادة من أولئك الخونة والوشاة والنمامين الذين يعرضون أنفسهم دون مقابل.

محاولة للاستدراج

وهذه الظواهر تبرز في ظل دول الظلم التي غالباً ما تلجأ إلى أشد الأفعال ظلامية وشراً لتحقيق مآربها وأغراضها الشريرة، وإن حاول أقطابها الظهور بمظهر الورعين والحريصين على مصالح الأمة لا مصالحهم هم.

إن أولئك الذين حسبوا أن ثورة زيد لم تكن سوى مغامرة مصيرها الفشل المحقق أمام الدولة القوية المزدهرة ذات الثراء الأسطوري، وأولئك الذين حاولوا التخلي عنه بعد أن بذلوا وعودهم لنصرته في البداية، برروا تخلّيهم عنه بمبررات تختلف عن تلك التي لجأ إليها أسلافهم عندما عزموا التخلي عن مسلم ـ وقد سبق أن أشرنا إليها في هذا الكتاب ـ ولجأوا إلى أسلوب لئيم، علموا معه أن استقامة زيد وحرصه على وحدة المسلمين وإلفتهم، ستساعدهم على بلوغ غرضهم للتشنيع عليه وعزله عن جماهير الكوفة المتعبة المستهدفة بالظلم والشر، ولعلهم قد فعلوا ذلك بإيعاز من الوالي الأموي يوسف بن عمر، أو بعض من كانوا يوالونه.

فقد جاءه نفر منهم بعد أن علموا جدّ يوسف بن عمر في طلبه وطلب أصحابه، يسألونه رأيه في أبي بكر وعمر..! وبالتأكيد فإن رأيه لم يكن ليخالف رأي الأئمة من أهل البيت فيهما، والذين لم يتعرضوا بالنقد العنيف أو السب للشيخين رغم علمهم باستئثارهما وقيامهما بإبعادهم عن حقهم في الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، فلم يكن من شأن أي موقف متشنج معادٍ للشيخين سوى أن يثير مشاعر العداوة والخلافات بين المسلمين الذين أصبحوا شيعاً وأحزاباً منذ ذلك الحين، ثم تعمقت خلافاتهم عند حكم أمير المؤمنين عليه السلام، عندما كشفت قوى النفاق عن وجهها القبيح وواجهت خليفة رسول الله ﷺ الذي كان ينبغي أن يتسلم القيادة الفعلية للمسلمين منذ البداية، بجملة من المشاكل والحروب عمل على تأجيجها مؤسس الدولة الأموية معاوية نفسه الذي قام فيما بعد بأكبر عملية تزوير للحديث الشريف تستهدف النيل من أمير المؤمنين والحط من منزلته أمام المسلمين[1] وإبراز منافسيه القدامى وفي مقدمتهم الشيخان كأعظم شخصيتين بعد رسول الله ﷺ، ولم يكن دافعه لذلك ولاؤه للشيخين أو محبته لهما، فهو أبعد الناس عن سلوكهما

(١) وقد رأينا حملة السباب التي استهدفته عليه السلام طيلة حكم الدولة الأموية عدا الأيام التي حكم فيها عمر بن عبد العزيز.

ونهجهما، غير أنه فعل ذلك في غمرة سعيه المحموم للقضاء على منافسه إلى الأبد والقضاء على أي تطلع من أبنائه أو أحفاده في المستقبل لمنصب الخلافة الذي عده مكسباً شخصياً وملكاً خاصاً ينبغي عليه أن لا يتنازل عنه ما دام قد حصل عليه بكدّه وجهده.. !

(روى المدائني: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته، فقام الخطباء من كل كورة، وعلى كل منبر، يلعنون علياً ويبرأون منه، ويوقعون فيه وفي أهل بيته[1].

ثم كتب إلى عماله في جميع الآفاق: (لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة)[2].

وكتب إليهم: (أن أنظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيّه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا لي كل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته)[3].

وكتب إليهم بعد ذلك بعد أن كثرت الأحاديث عن فضائل عثمان: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليَّ وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته)[4]. ولا يخفى ما في هذه الأوامر من إشارات واضحة تدعو لوضع الأحاديث المكذوبة في الصحابة لكي لا يبدو علياً وكأنه تفرد بميزات لم تكن موجودة عند غيره من الصحابة وليبدو الجميع أمام المسلمين وكأنهم حالات فريدة.

ومن هنا حدث الالتباس عندما زاحمت الأحاديث الكثيرة الموضوعة في فضل الصحابة تلك الأحاديث الصحيحة التي رويت في فضائل أمير المؤمنين علي وأهل بيته عليهم السلام.

---

(١) ابن أبي الحديد ٥/ ٥٩٥ ـ وقد تطرقنا إلى ذلك عند استعراضنا جانباً من شخصية أمير المؤمنين عليه السلام وشخصية معاوية.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٥٩٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٥٩٦.

تفويت الفرصة على من أراد استغلال الخلاف

فهل يمكن لأي إنسان يتمتع بقدر محدود من الوعي والحرص على مصالح المسلمين، وفي ظل الدولة الأموية التي اعتمدت خلط الأوراق وجعلت لمعاوية قضية مزعومة قرنتها مع قضية مزعومة أخرى للخلفاء الأوائل بمواجهة أمير المؤمنين وادعت أنه كان يناوىء الجميع ويعادي الجميع وينظر إليهم نفس النظرة[١]، أن يثير قضية تؤدي إلى المزيد من الفرقة والشحناء والتباغض. .؟ ناهيك عن أناس يتمتعون بوعي رسالي فريد أمثال زيد بن علي ـ رضوان الله عليه ـ يدركون أن الدولة الأموية لم يكن يهمها سمعة الشيخين بقدر ما يهمها استغلال الاختلاف بشأنهما وشأن الخلافة وحكم الدولة الإسلامية بشكل عام لإثارة المعارك الجانبية بين المسلمين وتكون هي الرابح الوحيد في نهاية المطاف.

كانت محاولة طرح مسألة الحكم بعد رسول الله ﷺ ورقة حسب حاملوها أنها رابحة حتماً، إذا ما استطاعوا إحراج زيد أمام جماهير الكوفة الذين كان يتصرف بعضهم بدافع رد فعل شديد للظلم الذي كانوا يشهدونه ويعزون أسبابه إلى خطأ تركيبة الحكم منذ البداية أي منذ وفاة رسول الله ﷺ، خصوصاً وأن دولة الظلم كانت تعلن تحيزها الظاهر للخلفاء الأوائل مع أنها كانت تقف مواقف مغايرة لمواقفهم، وكانت هذه الدولة تريد قيام حملة سباب وتشنيع على الشيخين مساوية لتلك التي تقوم بها هي ضد أمير المؤمنين وغرضها أن تكون هي المستفيد الوحيد من الخصومات التي كانت تحاول أن تؤججها دائماً، مثلما يفعل أعداء الإسلام ـ حتى يومنا هذا ـ بإثارتها كلما رأى أن الجو أصبح صافياً والمسلمين أوشكوا أن يتوحدوا ويحلوا بعض مشاكلهم وخلافاتهم.

الإنشقاق

إجتمعت إلى زيد جماعة من رؤوس أهل الكوفة، وكان قد بايعه منها خمسة عشر ألف رجل سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان، والري وجرجان[٢]، فقالوا: (رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال زيد: رحمهما الله وغفر لهما. ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً.

---

(١) وقد تطرقنا إلى رسالة معاوية التي يتهم فيها أمير المؤمنين بأنه كان يحسد الجميع ويبغي على الجميع، وفيها يحشر نفسه مع الشيخين مع أنه ليس بمستواهما. .

(٢) الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين ص ١٣٥ والطبري ٤/ ١٩٩.

قالوا: فلم تطلب إذاً بدم أهل هذا البيت؟ إلا أن وثباً على سلطانكم فنزعاه من أيديكم؟

فقال لهم زيد: إن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا، ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد ولّوا فعدلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنة.

قالوا: فلم يظلمك هؤلاء! وإن كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين!

فقال: وإن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وإلى السنن أن تحيا، وإلى البدع أن تطفأ، فإن أنتم أجبتمونا سعدتم، وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته..)[1].

وإذا ما صحت هذه الرواية، فإنها تشير إلى أن محاورين نكدين، بل خصوم ألداء جاءوا زيداً لمحاولة إحراجه في تلك اللحظات الدقيقة التي كان يستعد فيها لمواجهة دولة الظلم الأموية، وتشير إلى أنه قد استطاع ببراعة أن يفوت الفرصة عليهم، لأنه لو لم يجيبهم بتلك الطريقة، لفتح باباً آخر للخلافات والمشاكل بين المسلمين حاول أئمة أهل البيت عليهم السلام إغلاقه منذ البداية لضمان وحدتهم وجماعتهم، ولم تبلغ أشد خطبة ألقاها أمير المؤمنين عليه السلام بشأن اغتصاب حقه في خلافة المسلمين، مبلغ الذهاب إلى السباب والطعن بمن فعل ذلك[2]، وقد بدا

(١) الطبري ٤/ ٢٠٥ وابن الأثير ٤/ ٤٥٢.

(٢) وقد جاء في خطبة الإمام المعروفة بالشقشقية قوله: (أما والله، لقد تقمصها ابن أبي قحافة، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً، وطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا، أرى تراثي نهبا...
حتى مضى الأول لسبيله فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده... لشدّ ما تشطرا ضرعيها...
فمُنيَ الناس لعمر الله بخبط وشماس، وتلون واعتراض، فصبرت على طول المدة وشدة المحنة..). شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ١/ ٥٠ - ٥٤ ولا يخفى تألم أمير المؤمنين من سلبه حقه، غير أثر الصبر الطويل رغم شدة المحنة والنتائج المفجعة التي تلتها والتي ألحقت أشد الأضرار بالمسلمين.

حريصاً في مناسبات متعددة ألّا ينالهم أذى كما بدا حريصاً على التفاف الناس حولهم ما داموا قد تعهدوا بحسن السيرة وألزموا أنفسهم بذلك، وما دام ذلك يضمن ألا يفترق الناس أو يرتدوا بعد وفاة رسول الله ﷺ خصوصاً وأن العوامل التي كانت تساعد على الردّة عديدة ومتنوعة والعهد بالجاهلية قريب جداً..

صحيح أن التجربة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ تعرضت لانحراف خطير في مجال الحكم وفي مجالات عديدة أخرى، غير أن تلك الإنحرافات كانت مبطنة بالإيمان ولم تكن مبطنة بالكفر كتلك التي وصل إليها الحال لدى الحكام الأمويين ولم تكن محسوسة لدى الأمة، فيما عدا فئة قليلة منها، لذلك فإن أي تصد لتلك التجربة المنحرفة سيفسر على أنه تنافس على السلطة ولم يكن ليفهم على وجهه الصحيح من جانب الأغلبية من أبناء الأمة التي لم تكن تفكر بعقلية إسلامية بحتة وخصوصاً تلك الأغلبية التي لم تلتحق إلا مؤخراً بالإسلام أو التي التحقت به عندما لم تر بداً من ذلك.

غير أن أمير المؤمنين رفض خط تلك التجربة المنحرفة عندما عرض عليه كشرط لاستلامه الحكم بعد وفاة عمر، عندما قيل له أن عليك أن تعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الشيخين، قال: أعمل بكتاب الله وسنة نبيه واجتهادي[١]...

إثارة الخلاف.. إثارة الفرقة

ولو أنه ألزم نفسه بخط التجربة المنحرفة كشرط لاستلامه الحكم، مع كل الوعي الصحيح والفهم الدقيق للإسلام الذي كان يتمتع به، لكان معنى ذلك أنه يساوم على مصالحه الشخصية، وهذا ما لم يكن ليفعله بأي حال من الأحوال لأنه (كان يريد أن تكون المعارضة في إطارها الرسالي وأن ينعكس هذا الإطار على المسلمين، أن يفهموا أن هذه المعارضة ليست لنفسه وإنما للرسالة، وحيث أن أبا بكر وعمر كانا قد بدآ الإنحراف، ولكن الإنحراف لم يكن قد تعمق بعد، والمسلمون القصيرو النظر الذين قدموا أبا بكر على علي، ثم قدموا عمر على علي، هؤلاء المسلمون القصيرو

---

(١) قال عبد الرحمن بن عوف لعلي (هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر؟ قال: اللهم لا، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي). الطبري ٢/ ٥٨٦ فهو كان حريصاً على التخلص من التجربة المنحرفة ولم يلزم نفسه بها حتى ولو كان الثمن هو الحكم.

النظر لم يكونوا يستطيعون أن يعمقوا النظر إلى هذه الجذور التي نشأت أيام أبي بكر وعمر، فكان معنى مواصلة المعارضة بشكل جديد أن يفسر من أكثر المسلمين بأنه عمل شخصي وأنها منافسة شخصية مع أبي بكر وعمر. وإن بدأت بذور الانحراف في عهدهما، إلا أنه حتى هذه البذور كانت على الأغلب مصبوغة بالصبغة الإيمانية، كانا يربطانها بالحرارة الإيمانية الموجودة عند الأمة، وحيث أنها حرارة إيمانية بلا وعي، ولهذا لم تكن الأمة تميز هذا الانحراف)[١].

وإذ أن وضع الأمة ذاك كان بعد عهد رسول الله ﷺ مباشرة، فلنا أن نتصوره بعد مائة سنة، وبعد أن شهدت الأمة سلسلة من الحكام، بدا لها معها أن عهد عثمان كان عهداً ذهبياً فكيف بعهد الخليفتين الأولين[٢]، كما أن هذه الأمة قد تعرضت لأكبر عملية غسيل للأدمغة عندما شن معاوية الماكر الذكي وعبقري الشر المتفرد أكبر حملة لمسح الإسلام وتزوير أحكامه ومفاهيمه وتاريخه، ورسخ في عقول الناس أن الإنحراف والابتعاد عن الدين أمر لا بد منه في النهاية.

فهل يجد امرؤ رسالي ينشد التغيير وتخليص الأمة من واقعها المؤلم في ظل الحكم الأموي الجائر والمولع في الانحراف سبيلًا إلى إثارة أمور تتعرض لانحراف سابق مستور غير واضح لدى فئات عديدة من هذه الأمة؟ لمجرد أنه يريد أن يسترضي جماعة يريد منهم أن يقوموا معه لمقاومة دولة الظلم وما جدوى إثارة أمثال هذه المسائل في تلك اللحظات الحاسمة التي كانت المواجهة فيها مع هذه الدولة؟

ألا نرى أن هذه المسألة تثار دائماً من قبل أولئك الذين يريدون العمل على تفرقة المسلمين، مع أنهم أبعد الناس ميلًا عن الطرفين بل عن المسلمين عموماً وأن من يثيرها الآن بشكل خفي أو مكشوف أشد القوى عداء للإسلام، فهل أن دوافع أعداء الإسلام تستهدف مصلحة الإسلام؟

---

(١) أهل البيت ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) ونعيد إلى الأذهان هنا النادرة الطريفة التي رويت عن معاوية ويزيد، عندما قال الأول للثاني (كيف تراك فاعلًا إن وليت؟ قال: كنت والله يا أبه عاملًا فيهم عمل عمر بن الخطاب، فقال معاوية: سبحان الله يا بني، والله لقد جهدت على سيرة عثمان، فما أطقتها فكيف بك وسيرة عمر) ابن كثير ٦/ ١٦٨.

لم يدعُ إلى سنّة الشيخين ولم يسبّهما

لم يكن بإمكان زيد أن يجيب محاوريه بغير ما أجابهم به، وقد بدت إجاباته في غاية الكياسة، وقد ذكّرهم بأن أسلافه لم يذكروا الشيخين بسوء وإنه مقتد بأسلافه، الذين ظلموا وأبعدوا عن مراكز القيادة مع أنهم كانوا أحق بسلطان رسول الله وأن القوم استأثروا عليهم ودفعوهم عنه، وأنهم رغم انحرافهم غير الملموس وخصوصاً في مجال الحكم والمصبوغ بصبغة إيمانية والذي لم تدرك الأمة أبعاده ونتائجه الخطيرة، يظلون بنظرهم مسلمين، فانحرافهم المرتبط بالحرارة الإيمانية للأمة يختلف عن الانحراف المكشوف الذي يتحدى مصالح الأمة (ولهذا استطاعت الأمة أن تلتفت إلى انحراف عثمان[1] بينما لم تلتفت بوضوح إلى انحراف أبي بكر وعمر، وبهذا بدأ علي بن أبي طالب معارضته لأبي بكر وعمر في الحكم بشكل واضح بعد أن مات أبو بكر وعمر، ولم يكن من المعقول تفسير هذه المعارضة على أنها معارضة شخصية بسبب طمع في سلطان)[2].

لقد أوضح زيد لمنافسيه أن الأمويين ليسوا كأبي بكر وعمر اللذين يتمتعان بمكانة عالية لدى فئات واسعة من الأمة.

وأوضح لهم زيد أن الجدير بهم أن يعودوا لرفع مطاليب الأمة المسلمة الأساسية، العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى السنن والبدع أن تطفأ.. لم يدعهم كما لم يدعهم جده أمير المؤمنين من قبل إلى سنة الشيخين إذ لم يجد أنها سنة أساسية ترتبط بالتجربة الإسلامية منذ البداية وإن على المسلمين الأخذ بها، بل دعا إلى السنن والبدع أن تطفأ وهي دعوة لا مجال معها للقول بأن زيد كان يرى تفضيل الشيخين على علي، بل يمكن الجزم أنه أراد الأمور أن تعود إلى نصابها الطبيعي كما كانت في عهد رسول الله ﷺ.. ومن هنا فلا مجال لاتهامه بأنه كان يقر حكم الشيخين. إلا أن ذلك ما دام قد كان أمراً واقعاً قد حدث وانتهى ولقي قبولًا من فئات عديدة من المسلمين وما دام الخوض فيه بأسلوب متشنج غير عملي وغير واضح يثير الفرقة والحساسيات بين المسلمين، فإن زيداً لم ير من موجب لتقليب الصفحات التي تسبب ذلك.

---

(١) ناهيك عن انحراف الأمويين المعلن والسافر.

(٢) أهل البيت ص ٦٣.

وحسب أهل الكوفة أن يلتفتوا إلى بيانه الواضح حول أحقية أهل البيت عليهم السلام بالقيادة والحكم، فلا ينزعجوا من دعوته للتمييز بين الأمويين المنحرفين وبين من سبقوهم من الخلفاء ويفوتوا عليهم فرصة خلط الأوراق التي لجأ إليها معاوية منذ البداية.

أقصى الإجراءات لمواجهة الثورة

لقد حشدت السلطة أعوانها لمواجهة زيد والقضاء على ثورته واتخذت جملة من الاجراءات منها جمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم لحصرهم فيه ومنع التحاقهم بزيد وتطويقهم بالعرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة، وقد تم ذلك قبل خروج زيد بيوم إذ غلقت أبواب المسجد عليهم كما غلقت دروب السوق واستنفر أشراف الكوفة الذين كانوا يبدون استعدادهم لنصرة الظلم دائماً وخرجوا برجلهم وخيلهم لمواجهة زيد الذي لم يوافه من أصحابه ليلة المعركة سوى مائتي وثمانية عشر رجلًا، وقد آلمه أن يحبس الناس رغم أعدادهم الكبيرة في المسجد الجامع[1]، وأن يتقبلوا الوضع رغم أنهم قادرون عملياً على التخلص من سجانيهم.

ولم يتح لمن بايعوا زيداً من أبناء المدائن والبصرة والحيرة وغيرهما أن يلتحقوا به لتغيير توقيت الثورة، وربما لم يتح للعديدين ـ بسبب ذلك ـ فرصة الالتحاق به وربما لم يستعدوا للموعد الجديد، وهذا ما جعل موقفه ضعيفاً بمواجهة جند الشام وأشراف الكوفة ومرتزقة الدولة من العرفاء والشرط والمناكب والمقاتلة... ولم يستطع بمن بقي مع أن يستنهض همم من حبسوا في المسجد وكانوا بالتأكيد عزلًا من السلاح ومطوقين بأعوان السلطة.

معارك عديدة وانتصارات على الجيش الأموي رغم قلة العدد

وقد جرت معارك قبيل المعركة النهائية استطاع فيها زيد وأصحابه دحر قوة من أهل الشام تفوق قوتهم كما استطاعت مجموعة صغيرة أن تقتل صاحب شرطة حاكم

---

(١) كان مسجد الكوفة الجامع واسعاً جداً، وفي بداية تخطيطه أوقف أحد رماة السهام الأشداء وطلب منه أن يرمي باتجاه الجهات الأربع، وقد رمرمى السهم بنصف كيلومتر تقريباً فيكون طول كل ضلع من أضلاعه كيلومتر ومساحته مليون متر مربع، وقد بني على هذا الأساس، ليسع ربما مليون شخص.

الكوفة وتلحق الهزيمة برجاله، كما دارت معركة أخرى بين زيد وجماعة من أهل الشام، ألحق زيد الهزيمة بهم في النهاية. كان الوالي الأموي يرى أمامه جماعة مستبسلة لم تكن تعتزم الاستسلام أو التراجع، وربما تميل الرياح لصالحها في النهاية، خصوصاً وأن زيد استطاع التغلب على أشد مجموعات أهل الشام كرهاً لأهل الكوفة الذين كان يقودهم عبيد الله بن العباس الكندي والذين كانوا يطوقون المسجد استعداداً لملاقاة زيد ولإرهاب من حبس من المسجد ومنعهم من الخروج بالقوة منه.

في المسجد: «أخرجوا من الذل إلى العز.. أخرجوا إلى الدين والدنيا»

وصل زيد وأصحابه المسجد وجعلوا (يدخلون راياتهم من فوق الأبواب، ويقولون: يا أهل المسجد اخرجوا، وجعل نصر بن خزيمة[1] يناديهم ويقول: يا أهل الكوفة، أخرجوا من الذل إلى العز، أخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا دنيا. فأشرف عليهم أهل الشام فجعلوا يرمونهم بالحجارة من فوق المسجد ـ وكان يومئذٍ جمع كبير بالكوفة في نواحيها...)[2].

كانت محاولات إدخال الرايات المسجد رغم وجود أعداد أهل الشام الكبيرة التي تصدت لهم بعنف تستهدف دفع معنويات المحاصَرين وتشجيعهم على الالتحاق بصفوف الثوار إلا أن القوة الأموية الموجودة يبدو أنها قد أحكمت الطوق حولهم ومنعتهم من أي تحرك مضاد، وكانت لصيحات نصر بن خزيمة مدلولاتها الواقعية في تلك الظرف، فما كسب المستضعفون في ظل دولة الظلم؟ لقد ذهب بدنياهم أقطاب تلك الدولة وأعوانها الكبار واستأثروا دونهم بكل شيء وجعلوا منهم مجرد أدوات لتنفيذ أغراضهم وطموحاتهم الشخصية... وقد بلغ انحراف الدولة مداه في كل مجال. وسلخت الأمة من كل تطلع قد يعيدها إلى خطها الرسالي المشرّف، وأصبحت ألعوبة بيد أمراء السوء الذين لم يؤمنوا بأية قيم سماوية عليا رسّخها أو أرساها الإسلام. وها هي قد فقدت كل شيء.

إن عودتها للإسلام تعني حصولها على كل شيء، على الدين وعلى الدنيا، على قيم الإسلام الحقيقية وممارساته العادلة التي تعيد إليهم ما اغتصب منهم في ظل

(١) وهو من أصحاب زيد المخلصين، وهو الذي اقترح عليه فك حصار المسجد الأعظم.

(٢) الطبري ٤/٢٠٦ وابن الأثير ٤/ ٤٥٤.

دولة الظلم، لأن ذهاب تلك الدولة يعني العودة إلى دولة الإسلام التي تحقق لهم ممارسات حياتية من شأنها أن يجعلهم يتذوقون حلاوة الإسلام ويتفانون فيه ويحققون في ظله طموحاتهم المشروعة الصحيحة المبنية على عدالته وشريعته لا شريعة الغاب التي طلع بها عليهم حكام السوء.

وكان أحرى بتلك الصيحة أن تصل إلى كل الأسماع وأن تعيها كل القلوب التي ترفض الظلم وتعاني منه، غير أن نطاق القوة المستكبرة في الكوفة قد اشتد، ولم يتح للثوار تحقيق النصر رغم استبسالهم وثباتهم.

بعد انصراف زيد من المسجد ونزوله دار الرزق، تصدى له أحد القادة الأمويين بجمع من فرسان أهل الشام (فقاتله قتالًا شديداً، فخرج من أهل الشام وقتل منهم ناس كثير، وتبعهم أصحاب زيد من دار الرزق حتى انتهوا إلى المسجد، فرجع أهل الشام مساء يوم الأربعاء أسوأ شيء ظن »[١] بعد أن دارت الدائرة عليهم هذه المرة.

وقد أنّب عمر بن يوسف ذلك القائد واستبدله بآخر بعثه لمواجهة زيد جرت معركة شديدة بينهما (.. ثم أن زيد بن علي هزمهم، وقتل من أهل الشام نحواً من سبعين رجلًا، فانصرفوا وهم بشرّ حال، فلما كان العشي عبأهم يوسف بن عمر، ثم سرّحهم، فأقبلوا حتى التقوا هم وأصحاب زيد، فحل عليهم زيد في أصحابه فكشفهم، ثم تبعهم حتى أخرجهم إلى السنجة، ثم شد عليهم بالسنجة حتى أخرجهم إلى بني سليم، ثم تبعهم في خيله ورجاله، حتى أخذوا على المسنّاة.

ثم إن زيداً ظهر لهم فيما بين بارق ورؤاس، فقاتلهم هناك قتالًا شديداً، فجعلت خيلهم لا تثبت لخيله ورجله)[٢].

كان يبدو أن لا مجال للتغلب على زيد في مثل تلك المواجهات، بل إنه هو الذي انتصر عليهم رغم قلة رجاله وتجهيزاته، وكان الأمر ينذر بمخاطر عديدة قد تنشأ عن انتصار كبير يحققه عليهم، وقد تميل الكفة إلى جانبه نهائياً، وهو الأمر الذي كان عليهم اجتنابه والحيلولة دون تحقيقه، فالكوفة لا يمكن أن تظل متجاهلة انتصارات زيد ولا بد أن تنتفض كلها معه في نهاية المطاف إذا ما استمرت هذه الانتصارات.

(١) الطبري ٤/٢٠٦ - ٢٠٧ وابن الأثير ٤/ ٤٥٤.

(٢) الطبري ٤/٢٠٦ - ٢٠٧ وابن الأثير ٤/ ٤٥٤.

الغدر والمكر

وكان لا بد لقيادة الغدر والسوء أن تلجأ إلى أسلوب من أساليبها الماكرة لتجنب مواجهة الرجال المستبسلين في سبيل الإسلام ودفع الشر والأذى عن المسلمين، فبعث يوسف بن عمر إلى الناشبة، وهم رماة السهام والنشاب وأمرهم بالمشاركة في المعركة.

وإذ أن هؤلاء يقفون عادة بعيدين عن مكان المبارزة والصراع في أماكن حساسة تبعد عشرات الأمتار عنها فيظلون بمنأى عن المخاطر التي يتعرض لها الفرسان والمشاة الآخرون أو تتاح لهم فرصة رمي عدة نبال في الدقيقة الواحدة، وعادة ما يكونون ذوي مهارة في عملهم، فإن عدداً كبيراً منهم إذا ما اشترك في معركة بمواجهة فرسان قليلين مثل أصحاب زيد فإن مهمتهم ستكلل بالنجاح حتماً خصوصاً إذا ما اتخذوا أماكن حساسة محتمين بالجدران وجذوع النخل وغيرها.

إصابة زيد بسهم غادر

ثبت رجال زيد بمواجهة هذه القوة الجديدة، إلا أن سهماً أصاب جانب جبهته اليسرى فتشبث في الدماغ، جعلهم يرجعون (ولا يظن أهل الشام إلا أنهم رجعوا ألا للمساء والليل)[1] ولم يحسبوا أنهم قد أصابوا منه مقتلًا، وأنه سيموت عما قليل...

قطعوا الرأس وصلبوا البدن

ودفنه أصحابه في حفرة في نهر صغير لكي لا تؤخذ جثته ويُمثل بها، إلا أن عبداً سندياً دلَّ عليه[2]، فاستخرجوا الجثة وقطعوا الرأس وأرسلوه إلى يوسف بن عمر الذي بعثه بدوره إلى هشام (فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق، ثم أرسل به إلى المدينة، ومكث البدن مصلوباً حتى مات هشام، ثم أمر به الوليد فأنزل وأحرق)[3].

وكعادة الطغاة عندما يتنفسون وتتاح لهم فرصة القضاء على أعدائهم بمختلف

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) وقيل إن الذي دل عليه عبد قصّار.

(٣) الطبري ٤/٢٠٩ وابن الأثير ٤/ ٤٥٥.

الأساليب غير المشروعة، فإنهم يلجأون إلى السباب والشتيمة والتهديد، ويظهرون بمظهر الأبطال الذين لا يغلبون، وقد رأينا عبيد الله بن زياد وقبله زياداً أباه ومعاوية سيدهما وغيرهم من الطغاة الذين تسلطوا على رقاب الأمة بالقهر والإكراه يلجأون إلى هذا الأسلوب[١] . . ولا عجب أن يعمد ممثل هشام في العراق إلى ما عمد إليه أسلافه فيأتي الكوفة بعد أن قتل زيد ليلقي هذه الخصبة التي تدل على أنه كان مقتنعاً بانحياز أهل العراق عنه وعن أسياده في الشام وكره الشعب المسلم للأمويين.

تهديدات لأهل الكوفة

(يا أهل المدرة الخبيثة، إني والله ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنان، ولا أخوف بالذنب، هيهات، حُبيت بالساعد الأشد. أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان. لا عطاء لكم عندنا ولا رزق. ولقد هممت أن أخرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم. أما والله ما علوت منبري إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فأنكم أهل بغي وخلاف، ما منكم إلا من حارب الله ورسوله، إلا حكيم بن شريك المحاربي ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم، وسبيت ذراريكم)[٢] . . .

ثم (بعث أهل الشام، يطلبون الجرحى في دور أهل الكوفة، فكانوا يخرجون النساء إلى صحن الدار، ويطوفون البيت يلتمسون الجرحى). الطبري ٤/ ٢٠٨.

كان أهل الكوفة كلهم بنظر الولاة الأمويين أهل بغي وخلاف، بل أهل المدرة الخبيثة على حد تعبير الطاغية يوسف بن عمر الذي لم يستثني منهم سوى شخصاً واحداً سماه لهم، وحتى أولئك الذين ساعدوه ووقفوا إلى جانبه لم يسلموا من ذلك التقريع وتلك الشتائم.

ولعل هؤلاء لو كانوا قد وقفوا موقفاً مشرفاً مسانداً لزيد لما لحقهم من إهانات كتلك التي صبّها يوسف بن عمر عليهم ولمرّغوا جبهته بالتراب بدل أن يمرغ هو جباههم.

---

(١) ولا تغيب عن البال خطب الحجاج النارية عندما تنفرج الأزمات وكلماته الوعظية الرقيقة أيام الأزمات والشدائد. . .

(٢) الطبري ٤/ ٢١٠.

مذلّون مهانون

وأمر هؤلاء المتعاونين المنحازين إلى دولة الظلم باختيارهم ودون أن يدعوهم أحد لذلك، أمر مثير للانتباه حقاً، فهم لم يكونوا من الوجهاء المرموقين أو المستفيدين من عطاء الدولة، لكنهم من المحرومين المبعدين عن الجاه والمال كليهما، ومع ذلك فإننا نحسب أن طموحات وضيعة تدعوهم للتقرب من أقطاب الدولة بالسعاية وإبداء المواقف البطولية المشهودة[1]، ولا نحسب أنهم يطمحون بأكثر من ابتسامة رضا أو قليل من الدراهم لا غير، ومع ذلك يندفعون اندفاعة عمياء وراء الظالمين وكأن مستقبلًا مشرقاً ينتظرهم إذا ما خدموا هؤلاء، وكأن طاقة للحظ السعيد ستفتح أبوابها إذا ما أحسنوا أداء تلك الخدمة التطوعية التي لم يطالبهم بها أحد.

وأمامنا هنا قائمة طويلة من هؤلاء المتطوعين الذين كان جل همّهم أن تلتفت إليهم دولة الظلم وتجعلهم من أعوانها.

فهذا سليمان بن سراقة الذي وشى بزيد لدى يوسف بن عمر وسبّب إعلان الثورة قبل أوانها وفشلا فيما بعد. . .

وهذا نائل بن فروة الذي حاول أن يظهر بطولته! أمام يوسف بن عمر ليعجب به والذي تعهد تقبل نصر بن خزيمة أو يقتل دون ذلك. . وقد قتله نصر فخسر كل شيء.

وهذا العبد السندي ـ أو العبد القصار ـ الذي دلّ أعوان يوسف بن عمر على مكان جثة زيد، بعد أن حاول أصحابه إخفاءها في مجرى أحد الأنهار.

وهذا التابع الأموي الذي كتب إلى هشام يذكر له أمر زيد. . .

وهذا القحطاني الذي حاول النيل منه وشتمه في مجلس حاكم المدينة الأموي.

وهذا المملوك الخراساني الألكن الذي بعثه ممثل يوسف ليتجسس على أصحاب زيد ويكشف أخبارهم بزعم أنه قدم من خراسان حباً لأهل البيت عليهم السلام وأن معه مالًا يريد أن يقويهم به. . .

---

(١) وقد أفردنا فصلًا صغيراً عند استعراض ثورة الحسين عليه السلام في هذا الكتاب للحديث عن هذه الظاهرة، وتحدثنا عن بعض النماذج التي لفتت الأنظار إليها.

ولم يزل يلقاهم حتى أدخلوه على زيد، فخرج مذلّ يوسف على موضعه[١] . . .

ألا يا ناقض الميثاق أبشر بالذي ساكا
نقضت العهد والميثاق قدماً كان قدماكا
لقد أخلف إبليس الذي قد كان منّاكا

وبرد قوله عندما قيل له: أتقول هذا لمثل زيد؟، قائلاً: إن الأمير غضبان فأردت أن أرضيه[٢] . . . ولا ندري ما الذي دفعه ليرضيه سوى نفسه الحائرة المهزومة.

وهذا الجندي الذي كان ضمن جنود يوسف بن عمر والذي اندفع دون أن يطلب أحد منه ذلك لشتم فاطمة سيدة نساء العالمين بنت رسول الله ﷺ، والذي لقي عقابه في إحدى معارك زيد مع جنود السلطة ـ الأصفهاني/ مقاتل الطالبيين ص ١٤٠.

إن هذه النماذج تتكاثر في ظل دول الظلم وأمرها جدير بدراسات إجتماعية جادة من شأنها كشف هذه الأدواء ووضع علاج لها في المستقبل إذا ما تعرف الناس عليها واكتشفوا ضآلة المكاسب التي يحصل عليها أصحابها، بل الخسائر الكبيرة التي تلحق بهم وبمجتمعاتهم. . . ألسنا نعاني من هذه الظاهرة حتى يومنا هذا؟

الروح الحسينية

وإذ أننا لا نؤرخ لثورة زيد إلا بالقدر الذي يفيدنا في هذه الدراسة، فإننا لا نتعرض لكل تفاصيل هذه الثورة الكبيرة، غير أننا نؤكد هنا أن الروح الحسينية كانت واضحة في الثورة الزيدية، وقد أجّجت سلسلة الثورات التي بدأت بزيد وابنه وبعض العلويين من أبناء الحسن والحسين عليهما السلام، فكربلاء امتدت لتشمل كل البلاد

(١) راجع المصادر السابقة ففيها أخبار متفرقة عن هؤلاء.
(٢) وقد رد عليه أحد شعراء المدينة بقوله:
أيا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفّاكا ألا صبّحك الله بخزي ثم مسّاكا
أشتم ابن رسول الله يرضي من تولاكا ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا
(الطبري ٤/ ٢٠٩ - ٢١٠).

الإسلامية وفي كل العهود التي تعرض فيها المسلمون للظلم والأذى، وزيد أصبح امتداداً للحسين عليه السلام، أي أنصار مخلصين للحسين عليه السلام وأطروحته لمواجهة الظلم، كان أولئك الذين وقفوا مع زيد واستشهدوا بين يديه!، وأي أنصار مخلصين للحسين وثورته أولئك الذين رفضوا الظلم والعبث بالإسلام ومقدرات المسلمين على امتداد تاريخهم، والذين وقفوا مع كل راية تعادي ذلك الظلم وذلك العبث وتنكره وتريد إزالته.

إن دور أئمة أهل البيت عليهم السلام لإزالة الانحراف والعودة إلى الخط الذي رسمه وأرساه رسول الله صلى الله عليه وآله كان دوراً واحداً متكاملاً عديد الحلقات والفصول، ولم يكن هناك أي تناقض في أي حلقة أو فصل منها رغم بعض الدعاوى التي تشير إلى ذلك.

وإذ أننا تحدثنا عن ذلك فيما سبق من فصول هذا الكتاب، فإننا نؤكد هنا ثانية إن الذين ساروا تحت راية علي أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام وقتلوا تحت تلك الراية لم يكونوا كلهم من الشيعة الموالين لعلي والحسين، فالمذاهب الإسلامية لم تتبلور في ذلك الحين ولم تظهر، بل إن ظهورها كان متأخراً عن تلك الفترات.

إنهم ساروا تحت الراية التي رفضت الإنحراف والمساومة، وكان خط آل البيت عليهم السلام هو الذي خفقت فوقه تلك الراية على امتداد العصور، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يمثلون المعارضة الدائمة للانحراف والظلم، وكان لا بد أن يلجأ إليها كل رافض لهما وكل مسلم واع يعرف الإسلام معرفة واضحة مبينة.

العدالة الإلهية يجسدها خط أهل البيت عليهم السلام

ولعل أولئك الذين أشاروا على أمير المؤمنين بإقرار معاوية على الشام وأولئك الذين أخذوا عليه عدالته المتناهية ومواقفه المبدئية من الانحراف، وأولئك الذين لم يحبذوا خروج الإمام الحسين لمواجهة يزيد رغم قلة أعوانه وأنصاره ورغم الاحتمال الكبير لتعرضه للقتل وعدم قبوله بمساومة يزيد أو الاعتزال في بلدٍ ناءٍ إلى حين. لعل أولئك لو شاهدوا ما تمخضت عنه أمثال تلك المواقف فيما بعد وشاهدوا نتائجها الإيجابية التي كانت لصالح المسلمين في كل وقت والتي جعلتهم يفتحون أعينهم جيداً ويرصدون حركات أعداء الإسلام الذين أصبحوا حكاماً وقادة للمسلمين. . .
سيدركون، لو كانوا قد رأوا طلائع المسلمين من كل المذاهب تتطلع بإعجاب إلى ذلك الخط الرسالي وتنضم إليه، إنهم كانوا على خطأ، وأن الرابح الوحيد والفائز

الوحيد بالنصر والشهادة كليهما، هو الذي لم يبخل بماله ونفسه في سبيل الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ لا ذلك الذي وضعه معاوية ومأجوره، وإنه جاد بكل شيء ليظل الإسلام باقياً في نفوس المسلمين إلى الأبد.

(.. إن علي بن أبي طالب عليه السلام في معارضته، وعلي بن أبي طالب في حكمه لم يؤثر على الشيعة فقط، بل كان يؤثر في مجموع الأمة الإسلامية، علي بن أبي طالب ربّى المسلمين جميعاً، حضن المسلمين جميعاً.. أصبح أطروحة ومثلًا أعلى للإسلام الحقيقي. من الذي كان يحارب مع علي بن أبي طالب؟ هؤلاء المسلمون الذين كانوا يحاربون في سبيل هذه الأطروحة العالية، في سبيل هذا المثل الأعلى؟ أكانوا كلهم شيعة بالمعنى الخاص؟ لا، لم يكونوا كلهم شيعة. هذه الجماهير التي انتفضت بعد علي بن أبي طالب على مر التاريخ، بزعامات أهل البيت، بزعامات العلويين الثائرين من أهل البيت، الذين كانوا يرفعون راية علي بن أبي طالب للحكم، هؤلاء كلهم شيعة؟

كان أكثرهم لا يؤمن بعلي بن أبي طالب إيماننا نحن الشيعة، ولكنهم كانوا ينظرون إلى علي على أنه المثل الأعلى، إنه الرجل الصحيح الحقيقي للإسلام..)[1].

وهكذا كان الذين أيدوا الحسين عليه السلام ونصروه حتى بعد أن قتل وانضموا إلى فضائل الثائرين المكافحة ضد الظلم، لم يؤيدوه لأنهم كانوا شيعة له خاصة، بل لأنهم علموا أنه كان (شيعة) لجده ﷺ وللإسلام، وإنه كان يمثل الخط الصحيح المستقيم المبرأ من الإنحراف والظلم وبعد أن وجدوا فيه مثلًا أعلى يتطلعون إلى خطه ونهجه على الدوام، وبعد أن وجدوا أنه كان ينتصر للإسلام بحياته ودمه.

شهداء في سبيل الإسلام

وهكذا صرح الإمام الصادق عليه السلام أمام أحد الذين شاركوا زيداً في ثورته قائلًا: (مضى والله عمي وأصحابه شهداء، مثل ما مضى عليه علي بن أبي طالب وأصحابه)[2].

وقال عندما بلغه نبأ مقتله: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عند الله أحتسب عمي،

(١) أهل البيت ص ٦٩.

(٢) بحار الأنوار ٤٦/ ١٧١.

إنه كان نعم العم. إن عمي كان لدنيانا وآخرتنا. مضى والله عمي شهيداً، كشهداء استشهدوا مع رسول الله ﷺ وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم)[1].

وإذ أن هذه الأحاديث الواضحة تضيّع الفرصة على أولئك الذين ادعوا أن زيداً كان يدعو لنفسه، ربما بدافع الثأر للإهانة أو الإهانات التي لحق به وأهل بيته، فإنها تدلل على أنه كان حريصاً على السير وفق توجيهات الأئمة عليهم السلام وإنه كان إحدى الواجهات المعروفة لهم، وقد ضحى في سبيل الإسلام وقيادته الحقيقية وحرص أشد الحرص على أن تظل تلك القيادة المتمثلة بالإمام الصادق عليه السلام بعيدة عن شر وعبث القيادة الأموية المتسلطة على مقدرات المسلمين.

(هناك علماء من أكابر علماء السنة، أفتوا بوجوب الجهاد، وبوجوب القتال بين يدي ثوار آل محمد ﷺ، وأبو حنيفة قبل أن ينحرف، قبل أن يرشيه السلطان ويصبح من فقهاء عمال السلطان، أبو حنيفة نفسه الذي كان من نواب السنة ومن زعماء السنة، هو نفسه خرج مقاتلًا ومجاهداً مع راية من رايات آل محمد وعلي عليه السلام وأفتى بوجوب الجهاد مع راية من رايات علي عليه السلام مع راية تحمل شعار علي بن أبي طالب)[2].

حركة يحيى بن زيد

الوليد بن يزيد ـــ أكبر انتهاك لحرمات المسلمين

لقد ظلت البذور التي نثرها زيد تطلع علينا بغرسات مورقة موردة لثوار آخرين ساروا على نهجه في الدفاع عن الإسلام والقيادة الحقيقية للمسلمين.

ثار من بعده ابنه يحيى الذي كان قد شارك أباه في المواجهة الساخنة في الكوفة ولم يتركها إلا بعد أن دفنه واعتقد أنه أصبح بمأمن من عبث الأعداء.

كانت سنة خمس وعشرين ومائة، وهي السنة التي أعلن فيها يحيى ثورته تشهد بقيادة الوليد بن يزيد الذي أصبح خليفة على المسلمين بعد وفاة هشام، أكبر انتهاك

---

(١) عيون أخبار الرضا ١ - ٢٢٥.

(٢) أهل البيت ص ٧٠ وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (إن أبا حنيفة قد تحققت مودته لنا في نصرته زيد بن علي عليه السلام). مقاتل الطالبيين ١٤٥.

لحرمات الإسلام والمسلمين وأكبر خروج سافر عن الشريعة المحمدية.

(كان فاسقاً، شريباً للخمر، منتهكاً حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة، فمقته الناس لفسقه، وخرجوا عليه) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ٢٣٣ (اشتهر بالخمر والتلوط) ص ٢٣٣ قال عنه يزيد بن الوليد الناقص (بعداً له، أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي) نفس المصدر ٢٣٣ وقد رود في مسند أحمد حديث « ليكونن في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، لهو أشد على هذه الأمة من فرعون لقومه) ص ٢٣٤ (ولما ولي الخلافة وأفضت إليه، لم يزدد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق إلا تمادياً وحدّا. .) الطبري ٤/ ٢٣٥ (ومما اشتهر عنه أنه فتح المصحف فخرج (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فألقاه ورماه بالسهم وقال: تهددني بجبار وعنيد وها أنا ذاك جبار عنيد إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد) ابن الأثير ٤/ ٤٨٦.

ولو أن مؤرخاً أرّخَ لعهود المجون والاستهتار في العالم لرأى أن عهد الوليد بن يزيد كان هو العهد الذهبي المزدهر الذي فاق فيه (خليفة الله) كل خلقه في هذا المجال وتمادى فيه إلى أبعد حدّ وفتح الباب على مصراعيه أمام من جاؤوا بعده من (خلفاء المسلمين) ليعبثوا ويستهتروا دون اعتبار لأية قيم أو مبادىء.

تحشيد المعارضين للنظام

ظل يحيى ابن زيد يعمل طيلة أربع سنوات بعد استشهاد أبيه في الكوفة متنقلًا بينها وبين المدائن وخراسان حيث عمل على تحشيد طلائع جديدة من المسلمين تتصدى للحكم الفاسد بعد أن فاحت رائحته ولم يعد بالإمكان التستر عليها أو السكوت عنها.

حاول يوسف بن عمر أن يتقرب إلى الوليد بن يزيد بمطاردة يحيى وسجنه، وإذ أن يحيى لم تبدر منه بادرة ظاهرية حتى ذلك الحين لمناوئة الحكم، فإن الوليد خشي إن هو قتله أن يثير الرأي العام ضده، خصوصاً وإن منافسين له من العائلة الأموية نفسها قد ظهروا على الساحة وأخذوا يتربصون به الدوائر، فأمر واليه على العراق أن ينفيه عن خراسان وأن لا يدعه يقيم بها.

سبعين رجلًا بمواجهة عشرة آلاف

وقد بدا للعمال الأمويين في خراسان والعراق وأعوانهم أن يقمعوا حركة يحيى ابن زيد قبل أن تظهر بوادرها ويكمل استعداداته، فأمر والي خراسان نصر بن سيار بعض قادته أن يمضوا إلى عمرو بن زرارة ـ هو يومئذٍ على قومس ـ (ثم ينصبوا ليحيى بن زيد فيقاتلوه، فجاؤوا حتى انتهوا إلى عمرو بن زرارة، واجتمعوا فكانوا عشرة آلاف، وأتاهم يحيى ابن زيد، وليس هو إلا في سبعين رجلًا، فهزمهم وقتل عمرو بن زرارة)[1].

وفي الجوزجان جرت معركة أخرى بينه وبين أعوان السلطة أصاب فيها سهم غادر جبهة يحيى فقتل في تلك المعركة فاحتز رأسه وصلبت جثته ثم أحرقت بعد ذلك وذرّت في الفرات.

ثورة زيد ويحيى ـ المعول الأخير الذي أطاح بالدولة الأموية

كانت ثورة زيد ثم ثورة ابنه يحيى من بعده ـ مع أنهما لم تحققا نصراً ظاهراً على الدولة في حينهما، كما بدا الحال مع ثورة الحسين عليه السلام للكثيرين، إلا أنهما كانتا فيما يبدو الضربة الأخيرة للمعول الذي أطاح بالدولة الأموية.

أيعقل أن الحسين عليه السلام ثار من قبل وهو الأقل قوة وتجهيزاً، بوجه الدولة القوية المزدهرة ذات الأعوان والعدد، دون أن يضع باعتباره أنه يقوم بعمل حقيقي من شأنه تغيير مصير المسلمين ولو بعد حين، وإن كان يرسي دعائم التصدي والثبات بوجه الظلم والانحراف والتزوير، وإنّ دمه ودماء أصحابه التي بدت وكأنها ذهبت هدراً دون نتيجة أو غاية مرجوة، ستسقي بساتين الجهاد والثورة إلى الأبد وإلى أن تعود الأوضاع إلى سيرها الطبيعي ولو بعد مئات أو آلاف السنين؟

هل لم يكن أصحاب الحسين بدرجة من الوعي تجعلهم لا يدركون طبيعة أهدافه الرسالية الكبيرة، رغم اندفاعهم الشديد لمواجهة أعدائه وأعداء الإسلام تلك المواجهة الساخنة التي كانوا ضحايا ليها.

وهل خلت الساحة فيما بعد من أصحاب جدد للحسين يدركون ما أدركه أصحابه الأوائل من قبل، ويعلمون علم اليقين أن المواجهة ينبغي أن لا تنتهي وأن

---

(١) الطبري ٤/ ٢٣٣.

حسب الظالمون والمنحرفون أنهم الطرف الأقوى والأشد.

تعليمات القيادة الوارثة

وإذ أن الثائرين هنا كانوا من نفس خط الثوار الأوائل، وكان قادتهم ينتمون إلى قائد الثورة الأولى، الإمام الحسين عليه السلام وكانوا من أبنائه، وكانوا يتلقون توجيهاتهم وتعليماتهم من القيادة الوريثة المنحدرة من صلبه والمتمثلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وبالإمام الصادق عليه السلام على الخصوص الذي حرص أن لا يقوم هو بالمواجهة لطبيعة الظرف الذي كان يمر به المسلمون ولإمكان إقدام السلطة الحاكمة ـ لو كان هو الذي قام بالمواجهة ـ على نسف وتدمير كل تراث آل البيت عليهم السلام واستئصال كل ما من شأنه أن يذكر الناس بمحمد وآل محمد، وإلا.. هل يتورع أمثال الوليد الذي اعتزم أن يذهب إلى مكة ليشرب الخمر فوق سطح الكعبة والذي رمى القرآن بنشابة، يعبث ويلهو، عن إصدار أمر عابث لتدمير آل البيت ومحو آثارهم وطمس الخط الرسالي الحقيقي الذي رسمه محمد صلى الله عليه وآله وكانوا الحفظة الحقيقيين له بوجه تيارات وعواصف الانحراف التي هيّجها الحكام الأمويون دون حساب إلا لمصالحهم الخاصة وأطماعهم وتوجهاتهم البعيدة عن الإسلام جملة وتفصيلًا، إلا ما ذكر عن اهتماماتهم ببعض المظاهر الشكلية ليتسنى لهم الإدعاء بأنهم يحكمون حقاً باسم الإسلام وأنهم يمثلون المسلمين.

لا بد أن تستمر المواجهة الساخنة

كان لا بد للمواجهة الساخنة أن تستمر وأن تشعر دولة الظلم أن هناك من هو على استعداد لمواجهتها وعرقلة خططها المعادية للمسلمين، وفي نفس الوقت كان لا بد من ديمومة الخط الرسالي الصحيح بعلوم الإسلام الحقيقية التي كان يحملها حملًا أميناً وواعياً أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكانوا هم الوحيدين الجديرين أن ينقلوا هذه العلوم وينشروها بين المسلمين، وكانوا هم الوحيدين الجديرين أن يتقبل منهم المسلمون ذلك وأن يصدقوهم بعد أن كثر وضاعوا الحديث ومزوروه والمتاجرون به.. وكثر وعاظ السلاطين وشيوخ السوء المتهالكين على أبواب السلطان.

وهكذا نشأت أكبر مدرسة، بل المدرسة الوحيدة الكبرى، لعلوم الإسلام في عهدي الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، في فترة بدا فيها أن الإنحراف يعيش عهده الزاهر، وكان لا بد من وضع قواعد تلك المدرسة الكبيرة التي كانت أصلًا لكل

المدارس الأخرى التي ازدهرت وعاشت طيلة عهود الإسلام وإلى يومنا هذا. . . حتى تلك التي انحرفت عنها فيما بعد.

لا بد أن تستمر مدرسة أهل البيت عليهم السلام

ولو أن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لم تقم في ذلك العهد لانطمست كل علوم الإسلام، ولكان الإسلام مجرد أثر غابر ولكان القرآن عرضة لتأويلات مريعة تجعل من آياته أداة لخدمة دول الظلم التي عمدت إلى ذلك فعلًا ومنذ عهد مبكر، وكان بطل التحريف والتأويل الأول معاوية بن أبي سفيان الذي لا يزال يحظى بتقدير كبير لدى فئات عديدة من المسلمين، بفعل إيحاءات الحكام الآخرين الذين هم نسخة مكرورة معادة منه والذين يحاولون الإفادة من (الشرعية) والأسس التي أقام عليها حكمه.

(إن الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً.

تعرية الزعامة المنحرفة مهمة إيجابية

تمثل هذا الدور الإيجابي في إيقاف الحام عن المزيد من الانحراف. . .

وتمثل في تعرية الزعامة المنحرفة التي أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو عن طريق الاصطدام المسلح بها والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها كما صنع الإمام الحسين مع يزيد. .

وتمثل في مجابهة المشاكل التي تهدد كرامة الدولة الإسلامية وتعجز الزعامات المنحرفة عن حلها.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة بإرادة صلبة لا تلين وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فإن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر الأحايين بدلًا من مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة، غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملًا إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه، لأن انحراف الزعامات القائمة كان يعكس الوجه المشوه للرسالة فكان لا بد

للقادة من أهل البيت أن يعكسوا الوجه النقي المشرق لها وأن يؤكدوا عملياً باستمرار المفارقات بين الرسالة والحكم الواقع، وهكذا خرج الإسلام على مستوى النظرية سليماً من الانحراف وإن تشوهت معالم التطبيق. .

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى. . .)[١].

تنمية التوجه الثوري الرافض

إن توجهاً ثورياً رافضاً للانحراف تكوّن بعد ثورة الحسين عليه السلام، ظل ينمو في كل أقطار الإسلام. وقد رأينا أنه كان ينمو ويشتد ويكاد أن يجتاح الزعامات المنحرفة لو لم تتصد له تلك الزعامات بعنف وتلجأ إلى أشد الأساليب بطشاً ودموية لمواجهة الثوار الذين استلهموا مبادىء الثورة الحسينية وأيقنوا بجدواها وضرورتها كحل لإيقاف الانحراف.

إن ذلك التوجه الثوري أوجد تياراً قوياً بين صفوف أبناء الأمة، غير مرئي دائماً إلا أنه محسوس تمثل بالاستعداد السريع لمقاومة الزعامات المنحرفة إذا ما تمادت في تحديها واستهتارها وعبثها، فأن يطلع على الأمة كل يوم ثائر جديد ينتصر للإسلام مثل زيد وابنه يحيى ومحمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم وغيرهم وأن تلتحق بهم جماهير غفيرة من أبنائها، يعني أن عقيدة الأمة تتجدد باستمرار رغم معاول الهدم التي تلجأ إليها دولة الظلم. . مما يجعل هذه الدول رغم جبروتها وقوتها الظاهرية وأعوانها وثرواتها تحسب حساباً لقوى المعارضة والثورة وتمتنع عن العديد من التصرفات والممارسات المشينة العلنية التي من شأنها أن تشوه صورتها أمام الأمة، وتحاول تحسين هذه الصورة بادعاء الحرص على الإسلام بل وبالتقرب أحياناً من القيادة الشرعية المتمثلة بآل البيت عليهم السلام، أو بفرض حصار أو رقابة شديدة حولهم في محاولة لعزلهم عن الجماهير وتطويقهم ومنع أي اتصال بهم مدركة أن خطراً ما يهب عليها من ناحية هذا الإمام أو ذاك لخطورة الأدوار الإيجابية التي يمارسها أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين لم يعمدوا في الظاهر إلى القيام بأي نشاط عسكري مع أنهم كانوا

---

(١) أهل البيت/ ص ١١ - ١٥ - ٢٢.

يسعون لإقامة دعائم الحكم الصالح مدركين (أن إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً ويعي أهدافه الكبيرة، ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب. .)[1].

إن الأدوار المتعددة التي لعبها كل إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكانت محصلتها أن استطاعوا استقطاب قطاعات واسعة من الأمة إلى صفهم، أقلقت زعامات الانحراف وأفزعتها وجعلتها تحسب ألف حساب للإمام المعصوم من آل البيت وتتيقن من قدرته الكبيرة على التصدي لها ومنع مشاريعها المدمرة، وإن لم تعرف بالتأكيد سبب تلك القدرات وسر تأثير الإمام على جماهير الأمة، وهذا ما جعلها تفكر ملياً قبل الإقدام على عمل طائش قد يطيح بها إلى الأبد، خصوصاً وانها أدركت أن سهولة تشكّل حركة ثورية مناوئة أصبح أمراً وارداً، بل إن وجود الحركة المناهضة كان واقعاً فعلاً. . وإن أعداداً كبيرة من الأمة على استعداد لمواجهتها والإطاحة بها مهما كانت النتائج.

(الزيدية) تيار ثوري مناهض للظلم والانحراف

وكانت (الزيدية) أحد التيارات الثورية المناهضة للظلم وخط الانحراف[2] في تلك الظروف التي كان فيها ذلك الخط ينحدر نحو الهاوية ودولة الظلم قد تمادت إلى أبعد حد في جرائمها وشذوذها.

إن الأثر الذي تركته ثورة زيد في الكوفة ويحيى في خراسان كان قوياً جداً بل

(١) المصدر السابق.

(٢) ولا بد من الإشارة إلى اختلاف معظم العقائد والمذاهب التي نشأت بعد ذلك ونسبت للزيدية عن الخط الرسالي الثوري الذي انتهجه زيد بن علي وأولاده وأولاد الحسن بن الإمام الحسن عليه السلام الذين تناوبوا على قيادة ذلك الخط بتوجيه غير معلن من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكانت بعض المواقف المتأخرة لبعض الزيديين أو من يرى رأيهم متناقض مع ذلك الموقف الرسالي الذي وقفه قادة الحركة في البداية، فقد روي (أن ممن سعى بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى السجن هو يعقوب بن داود، وكان يرى رأي الزيدية) البحار ٤٨/ ٢١٠. وكان أبو حنيفة أشهر الذين انحرفوا وساوموا السلطان العباسي بفعل الإرهاب أو الرشوة. . .

صاعقاً جعل الأمة تلتفت بوضوح إلى ما تقوم به زعامات الانحراف، وتعتزم الثبات والصمود أمام نزعاتها المصلحية الشريرة والتصدي لها بعنف مهما كان الثمن، كما أن أجيالًا من المسلمين نشأت على الولاء والحب لآل البيت عليهم السلام وخطهم الرسالي السليم الذي رأت أنه الخط الوحيد الذي يمكن أن يعصمها من الخطأ والانحراف.

إن الدعوة للرضا من آل البيت التي رفعها زيد ويحيى ومن جاء بعدهما قد لقيت ترحيباً من عموم المسلمين، وقد وجد العباسيون فيما بعد أنها أضمن وسيلة لانتزاع الحكم من الأمويين فرفعوها بعد أن قرروا أن يلتفّوا حولها ويجردوها من مدلولها الحقيقي.. فالرضا من آل البيت يفهمه المسلمون على أنه أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام، وسيتاح للعباسيين الإدعاء فيما بعد ـ بعد أن يعززوا سلطتهم ومركزهم أنه أحد الهاشميين ولا يهم أن يكون من أبناء علي أو العباس، ما دام سيبدو إمام الأمة متباكياً على الحسين وزيد ومسلم بن عقيل ويحيى، وما دام يدعي الحب لأمير المؤمنين وأولاده من بعده...

١٠ - نتائج متوقعة.. تمادي الدولة الأموية بالظلم.. بداية للسقوط النهائي

الثورة: مفعول أكيد لكشف الانحراف

يتطرق بعض مؤرخي ثورة الحسين إلى أمر يعتقدون معه أن تلك الثورة لم تكن ناجحة، وذلك بسبب ما يلاحظونه من حالة الازدهار الظاهري للدولة الأموية طيلة فترة طويلة ومظاهر القوة التي بدت بها تلك الدولة التي عمدت إلى قمع أعدائها ومعارضيها وتوسيع فتوحاتها والأخذ بوسائل الغنى والرفاه حتى عاش خلفاؤها حياة أسطورية في الترف والنعيم. . !! ومهما تكن الأسباب التي تدعو هؤلاء للتحيز إلى جانب تلك الدولة، وهي عديدة. . فإن آخرين، على الضد من هؤلاء يعتقدون أن الثورة التي أثارت قدراً كبيراً من الاستنكار بين أوساط الأمة، قد عملت معاولها بسرعة متزايدة ومتصاعدة ـ ومنذ البداية ـ على هدم ذلك النظام الذي كان السبب في مذبحة الطف، حتى أن مجرد موت يزيد كان نتيجة حتمية لتلك الثورة، مع أن موته كان أمراً متوقع الحدوث، كموت غيره من الناس، طالت مدة حياته أم قصرت وسواء كان ذلك بسبب حادث أو مرض أو غيره. .

صحيح أن تلك الثورة قد عملت معاولها بصورة فعالة ومنذ البداية، إلا أن عملها كان يسير بشكل بطيء إلا أنه متصاعد وفعال بل وأكيد.

وإذ أن هذه الدولة قد بقيت وقويت واستمرت، فإن هذا قد يترك أولئك الذين يريدون بناء نتائج سريعة وحاسمة، في حيرة كبيرة.

مات يزيد، وثارت المدينة ومكة والكوفة، وقُتل قتلة الحسين ومَن قتلهم أيضاً، وقامت عدة ثورات ـ كما رأينا ـ إلا أن الدولة الأموية لم تسقط حالًا، بقيت وتصاعدت ممارساتها المنحرفة وتمادت في انحرافها واستهتارها إلى أبعد حد، وبدت قوية في الظاهر ـ وهو ما زاد حجة خصومهم قوة كما قلنا ـ وزادت أسلحتها وتعددت وسائل القمع والإرهاب التي عمدت إليها، بل واكتسبت خبرة في مجال بسط سيطرتها ونفوذها.

وقد يتساءل البعض ممّن يحيّرهم ذلك، هل استشهد الحسين عليه السلام ليتصاعد الظلم ويطغى؟ ويتمادى الظالمون في ممارساتهم الجائرة..؟ فإنهم أمام عدم قدرتهم على الإجابة وعلى فهم الموضوع برمته، لا يلبثون أمام ذلك إلا قليلًا حتى يلتفتون إلى بعض مظاهر الضعف التي ربما تلوح في أفق دولة الظلم الأموية في بعض الأحيان ليتخذوا ذلك دليلًا وحيداً على نجاح ثورة الحسين عليه السلام بعد أن يكبّروه ويضخّموه..

لقد هالهم أن الذين ارتكبوا جريمة قتل الحسين وأصحابه، ما داموا قد فعلوا ذلك وظلوا على سدة الحكم، قد أصبح بإمكانهم ارتكاب العديد من الجرائم الأخرى دون رقابة ودون أن يرفع أحد من الأمة يداً أو اصبعاً في وجوههم. لقد تمادوا فعلًا إلى أبعد حد في تلك الجرائم المقززة، حينما حسبوا أن التمادي كان حقاً مشروعاً لهم وأنهم يستطيعون الذهاب إلى أبعد غاية ممكنة ما دام ذلك يحق بسط نفوذهم وسيطرتهم.. مع أن ذلك يعني ـ على المدى البعيد ـ السير الحثيث والأكيد نحو السقوط والهاوية.

إن التمادي في الانحراف ـ مهما كانت قوة المنحرف وسلطانه ـ لا يعني أنه أصبح بمنجاة من المصير المشؤوم الذي سيؤول إليه بعد ذلك، ولو بعد حين من الزمن، بل يعني الوقوع بين براثن انحرافات أخرى وخيمة لا تحمد عقباها، بل إنه الموت الأكيد والإندثار المحتّم.

التصاعد في وتائر الانحراف يعني الانحدار نحو السقوط النهائي

والتصاعد في الانحراف يتناسب عكسياً مع القدرة على النمو الطبيعي والبقاء، ويتناسب طردياً مع التسارع في السقوط، فهو ليس أمراً طبيعياً ينسجم مع السنن الطبيعية ومقومات وجود الإنسان وخلقه وخلافته على الأرض.. فلا أحد يستطيع أن يدلل على أن عوامل بقاء وديمومة دولة الظلم موجودة مع كل ذلك الانحراف الذي كانت تمارسه وتسير فيه.. ومظاهر الغشم والقوة والعنف الظاهرية ليست عوامل ثابتة تقيها من السقوط إلى الأبد، مع أنها قد تبقيها قائمة لفترة من الزمن قد تطول نسبياً وقد تقصر تبعاً للظروف القائمة.

وقد وردت إشارتان لأمير المؤمنين والحسين عليهما السلام كليهما حول هذه النقطة الحساسة، يتكلمان فيها عن نتيجة التمادي في الانحراف والظلم، وهي نتيجة طبيعية

محتومة تبدو لمن يدرسون أوضاع مجتمعات الظلم ويتعمقون في دراستها، وليست من قبيل الرجم بالغيب أو النبوءات التي لا تقوم على أي سند أو أساس، كما قد يتراءى لبعض الدارسين أو الباحثين...

دولة الظلم الأموية نتيجة حتمية لابتعاد الأمة عن الإسلام

قال أمير المؤمنين عليه السلام يصف دولة الظلم الأموية التي توقع ظهورها كنتيجة حتمية لما سبق من إنحراف وابتعاد عن قيم الإسلام الحقيقية وكنتيجة لاختلال المفاهيم والموازين واختلافها لدى أبناء الأمة التي أرادها الله أن تكون أمة واحدة، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، وأرادها الباغون والمنحرفون أن تكون شيعاً وطوائف متفرقة، ليحققوا بفرقتها واختلافها أهدافهم ومطامعهم... (ألا إن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مظلمة، عمّت خطتها، وخصت بليّتها وأصاب البلاءُ من أبصر فيها، وأخطأ البلاءُ من عميَ عنها. وأيم الله لتجدُنَّ بني أمية لكم أرباب سوء بعدي كالناب الضروس، تعدمُ بفيها وتخبط بيدها، وتزبن برجلها وتمنع دَرّها. لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم أو غير ضائر بهم، ولا يزال بلاؤهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه والصاحب من ستصحبه. ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة، وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا على يرى...

حتى يظن الظان أن الدنيا معقولة على بني أمية، تمنحهم درّها، وتوردهم صفوها، ولا يُرفع عن هذه الأمة سوطها ولا سيفها...

والله لا يزالون حتى لا يدعوا لله محرّما إلا استحلوه، ولا عقداً إلا حلّوه، وحتى لا يبقى بيت مدد ولا وبر إلا دخله ظلمهم، ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان، باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه، وحتى تكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيده، إذا شهد أطاعه، وإذا غاب اغتابه، وحتى يكون أعظمكم فيها غناء أحسنكم بالله ظناً...)[١].

---

(١) من خطب لأمير المؤمنين عليه السلام نهج البلاغة ٢٣٥ - ٢٤١ - ٢٤٢.

عمل مقصود لإبعاد الأمة عن الإسلام

إن العمل الدؤوب المنظم لحرف الأمة عن الإسلام وإبعادها عنه والذي كرس له معاوية كل إمكاناته ووقته نجح نجاحاً (باهراً) وجعل شريحة كبيرة منها منذ البداية، وهم أهل الشام، تنظر إلى الإسلام والحياة بجملها بمنظاره ومفاهيمه.. وكان غلبته وسيطرته على منصب الحكم سيتيح له أن يجعل الأمة كلها تستسلم له وتنحرف معه، مؤمنة له الوضع الذي يستطيع معه إنكار كل شروط العقد الإلهي للخلافة الوارد في القرآن الكريم والمبيّن بدقة من قبل النبي ﷺ ووصيه عليه السلام، والذي كان يفترض وهو (معاوية) أحد أطرافه، وقد أصبح (خليفة) فعلًا، أن يكون أشد الملتزمين به والمدافعين عنه. وهكذا كان أول خارج عن صيغة الحكم أو الخلافة الإسلامية عن عمد وسبق إصرار، ولم يكن مجرد منحرف عن تلك الصيغة التي جاء بها الإسلام وأرادها أن تكون صيغة دائمية.. وهكذا خرج ورثته عن تلك الصيغة التي ربما لم يعرفوها أصلًا.

فكانوا أرباباً من دون الله لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم ومنافعهم، يقربون من يعمل لتقوية سلطانهم وملكهم ويبعدون من لا يلمسون منه النفع، ويقتلون ويفقرون من يشكون في ولائه ويحتملون عداوته.

وما يملك العبد إذا ما آذاه ربه! قد يكون مغيظاً أو محنقاً، وقد يتمتم مع نفسه أو مع بعض العبيد الآخرين كلمات يعبر بها عن غيظه وانزعاجه، ولكنه لا يملك في النهاية أمام سطوة سيده إلا أن يستجيب لرغباته صاغراً خاضعاً.

وستكون محصلة الظلم الذي يحيق بالأمة إبعادها عن الإسلام، وتكون في هذه الحالة عاجزة عن معرفة حقوقها والتزاماتها وواجباتها. لن تفهم الحرام حتى تبتعد عنه. ولن تسير خلف من ينبغي أن تسير خلفهم لكي يجنبوها المصير البائس الذي يراد جرّها إليه.

دولة الظلم لن تكون بديلًا عن الإسلام

دولة الظلم التي توقع أمير المؤمنين قيامها بديلًا عن دولة الإسلام العادلة، قد لا تدعي نبذ الإسلام علانية، بل إنها على العكس من ذلك تدعي أنها المدافع الوحيد عنه والقيّم الأكثر إخلاصاً على المسلمين، وقد تتستر ببعض أغطيته وبراقعه لإخفاء عيوبها وانحرافاتها والظهور بمظهر مقبول أمام الأمة.. إنها ـ على النطاق العملي

ستعمد إلى إبعاد الإسلام عن سياستها وتوجهاتها ولن تتيح للناس الإطلاع إلا على ما تريد هي أن يطلعوا عليه بعد أن قامت بالتزوير والتشويش والدس والافتراء..

دولة الظلم الأموية كانت نموذجاً فريداً لم يوجد من قبل. كانت نموذجاً مستحدثاً مركباً بعناية ودقة، وهي دولة ذات تجارب غنية بأساليب التزوير والكذب والاستبداد والقهر.. ولن يشمل ظلمها فئة دون فئة، بل إنه سيمتد ليشمل كافة الناس، غير أن شعورهم بالظلم سيكون أضعف مما تتوقع الدولة منهم، بل إنها في الواقع تتوقع أن يكون هذا الشعور ضعيفاً فعلًا رغم أنها تستعد دائماً لأعنف رد فعل منها بأعنف إجراءات تستعد لها هي دائماً.

إن الأمة، تحث وطأة الجهل والخوف، وسيطرة الظروف الإستثنائية التي تخلقها الدولة دائماً، بإيهامها بوجود عدو محتمل وموهوم، وقد يكون هذا العدو موجود فعلًا، تقع تحت شعور بأنها تعيش في ظرف طارىء يحتم عليها أن تتقبل ما يمكن أن ترفضه في ظرف عادي طبيعي.. ولأن الظروف الاستثنائية عديدة وكثيرة، يصبح الظرف العادي حلماً في ذهن الأغلبية من أبناء الأمة، وقد يكون هو الظرف العادي الطبيعي بعد أن اعتادت إليه وألفته، غير أن الظرف العادي الحقيقي الذي لن تشهده الأمة إلا في ظل الإسلام قد يدفع بعض أفرادها للسعي إليه والقيام بعمل إيجابي في سبيله، يرونه كذلك، وتراه الدولة لوناً من ألوان المعارضة السلبية المناكدة المخاصمة، ما دام يعكر عليها الجو الهادىء الراكد الذي أوجدته وخلقته وما دامت محصلة انتزاع امتيازاتها وسلطانها.

لن يتاح لأحد في ظل دولة الظلم أن يرفع يداً أو إصبعاً، وإن احتج سيكون احتجاجه صامتاً أخرساً، وستحصى عليه أنفاسه وحركاته وسكناته..

فرعون لا يرى إلا نفسه ومصالحه

السلطان لن يرى إلا سلطانه، وسيكون كل من يريد أن ينال من هذا السلطان عدواً له، حتى ولو كان هو الإسلام نفسه.. وسيجد أن عليه لا أن يطوع نفسه لكي يسير مثلما يريد الإسلام، بل ليطوع الإسلام ليكون مثلما يريد هو، يشكّله ويبرزه بحلة جديدة (مقلوبة على حد تعبير أمير المؤمنين) أمام الناس، حلّة تنسجم مع حلة السلطان نفسه، وإلا فإنه سيعلن رفض الإسلام جملة وتفصيلًا، وسيهدد الأمة

بإشارات موحية واضحة، بأنه ليس بحاجة إليه ما دام قد أوجد قانونه الخاص به وما دام يستطيع هو بجنده وشرطه وأمواله أن يسوس الناس ويسيطر عليهم ويضمن مصالحه ومصالح أعوانه ومقرّبيه.

سيكون الذي يُخص ببلاء دولة الظلم ـ وهي الدولة الأموية التي يتكلم عنها أمير المؤمنين عليه السلام هنا ـ مَن أبصر من أبناء الأمة ووعى وأدرك أبعاد الفتنة الأموية الكبيرة لأن هذا وحده جدير بأن يتصدى لها ويقف بوجهها ويمنع انتشارها، أما من عميَ عنها ولم يبصرها، ولم ير هناك ظلماً ينبغي أن يقف عند حده، فليس بعدو لهذه الدولة، بل أنها تستغله لصالحها وهو عون لها في مشاريعها وتصرفاتها..

دولة الظلم ستبدو مزدهرة قوية حتى لتبدو الدنيا معها أنها معقولة على الظالمين من بني أمية وأنها مرهونة بإراداتهم ومشيئتهم إلى الأبد يستعبدون الأمة ويستأثرون بكل شيء، سيرى كثيرون ذلك ويعتقدون أن الأمور وجدت لتبقى هكذا إلى الأبد وأن عليهم أن يستسلموا لهذه الأوضاع فلا يسعون للتغيير والتمرد.

وستتمادى الدولة في ظلمها إلى أبعد حد ـ معتقدة أنها قوية فعلًا ـ وأن الأمور ستسير لصالحها إلى الأبد ولن يكون لظلمها مدى معين تقف عنده ولا تتجاوزه، وإنما ستستحلّ كل محرّم، بعد أن تجعل الجميع يعتقدون أنه غير محرم فعلًا، حتى وإن اعتقد بعضهم ذلك، فالبعض لا يهمها ما دامت قادرة على إسكاته.. وليبك على دينه.. وليبك آخر على دنياه.. فهي قد استأثرت بكل شيء.. ولم تدع حتى لأولئك الذين اعتقدوا أنهم سيعيشون حياة كريمة بعيداً عن العوز والحرمان ـ فرصة الأمل بذلك، فكيف بالحصول عليه.

الناس في ظل دولة الظلم

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (فعند ذلك أخذ الباطل مأخذه، وركبَ الجهل مراكبه، وعظمت الطاغية، وقلّت الداعية، وصال الدهر صيال السَّبُع العقور، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم وتواخى الناس على الفجور، وتهاجروا في الدين، وتحابوا على الكذب، وتباغضوا على الصدق، فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً، والمطر قيظاً، وتفيض اللئام فيضاً، وتغيض الكرام غيضاً. وكان أهل ذلك الزمان ذئاباً، وسلاطينه سباعاً، وأوساطه أكالًا، وفقراؤه أمواتاً، وغار الصدق، وفاض الكذب، واستعملت

المودة باللسان وتشاجر الناس بالقلوب، وصار الفسوق نسباً والعفاف عجباً، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً. .)[١].

تلك هي إحدى الصور التي رسمها أمير المؤمنين عليه السلام لمجتمع الظلم في ظل دولة الظلم قبل أن تنهار وتقوم على أعقابها دول أخرى ومجتمعات أخرى ربما تأخذ بطرف من العدالة ونصيب منها، وربما جاء ذلك نتيجة ثورة، إلا أنها قد تميل أيضاً وتعود كسابقتها بعد أن يستأثر واحد أو مجموعة ممن (ثاروا) فتعود الأمور كسابقتها وربما فاقت دولة الظلم المتأخرة من سبقها لتراكم الخبرات وتزايد الإمكانات.

ولو تساءلنا: هل هذه الصورة التي عرضها أمير المؤمنين عليه السلام علينا تدعو لتفاؤل القائمين على هذه الدولة وسرورهم؟ وهل يمكن القول ان المجتمع سينمو ويزدهر في ظل هذه الدولة، أم أنها بداية لسقوط محتم وانهيار شامل في النهاية؟

لا شك أن الشق الثاني من السؤال سيكون هو الإجابة الصحيحة عنه. . .

فإذا ما ظن أحد أن الدنيا أصبحت رهن أيدي الحكام الأمويين، ما دامت تمنحهم درها وتوردهم صفوها، وما دام سوطها وسيفها يعملان في رقاب أبناء الأمة وفوق ظهورهم، فإنه ظنه لم يصدق بذلك حتماً وكما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (وكذب الظان لذلك، بل هي مجّة من لذيذ العيش يتطعمونها برهة ثم يلفظونها جملة. .)[٢].

وإذ أن دولة الظلم الأموية تتمادى لأبعد حد في ظلمها وانحرافها حتى (. . لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا وأدخله الظَلَمة تُرَحةً وأولجوا فيه نقمة»[٣]، فإنها بذلك

---

(١) نهج البلاغة ٢٥٩.

(٢) شرح نهج البلاغة م ٢ - ١٣٢.

(٣) شرح نهج البلاغة م ٢ ص ٤٤٦. ومن الطبيعي أن الأخبار التي يوردها أمير المؤمنين عليه السلام هي عن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، كما سبق أن ذكر عليه السلام ذلك في مناسبات عديدة، يؤيد ذلك ما (جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدثين أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبر بني أمية تملك الخلافة بعده مع ذم منه عليه الصلاة والسلام لهم، نحو ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ فإن المفسرين قالوا إنه رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة. هذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله الذي فسّر لهم الآية به فساءه ذلك، ثم قال الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة، ونحو قوله صلى الله عليه وآله: إذا بلغ=

تعلن رفضها للإسلام واستغناءها عنه. وبذلك تكشف كل الأقنعة والبراقع التي تسترت بها في السابق وستكون عرضة لتجدد غضب الأمة منها ونقمتها عليها (. . فيومئذٍ لا يبقى لهم في السماء عاذر ولا في الأرض ناصر. .)[١] وسيحل بهم ما حل بغيرهم من الطغاة والظالمين وسينتقم الله منهم شر انتقام وسينتصف لكل المظلومين والمغلوبين والمضطهدين، (سينتقم الله ممن ظلم مأكلًا بمأكل، ومشرباً بمشرب، من مطاعم العلقم ومشارب الصبر والمقر، ولباس شعار الخوف ودثار السيف، وإنما هم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام، فأقسم ثم أقسم لتنخَمَنّها أُميةُ من بعدي كما تلفظ النخامة، ثم لا تذوقها ولا تطعم بطعمها ما كرَّ الجديدان. .)[٢].

دولة الظلم تسير إلى حتفها

وهنا نقول ـ دون محاولة لتوضيح هذه الصورة التي يعرضها علينا أمير المؤمنين عليه السلام لئلا نشوهها: ألم تكن دولة الظلم الأموية تسير باتجاه موتها وانتكاسها المحتوم؟ وتتصاعد ممارساتها على الوتيرة المرفوضة من الإسلام نهائياً، والتي جاء أساساً لمحوها من المجتمعات الجاهلية وإقرار مجتمع الإسلام القائم على أساسه هو فقط؟

لقد أقدم كل (خليفة) أموي على ما لم يقدم عليه من سبقه، فأضاف له شخصية خاصة به أعلن بها صراحة عن شذوذه وانحرافه عن الإسلام، وكأنما كان أولئك (الخلفاء) يتبارون في الخروج عن الإسلام وترك حلبته، وقد جعلوا أمر انتهاك الإسلام ونبذه أمراً واقعاً، وطلبوا من الأمة الخائفة المستسلمة التي لا يحق لها مناقشة سلوكهم الشخصي وممارساتهم العامة، أن تقبله ولا تناقش في شأنه. .

ولم يكن من حق أغلبية أبناء هذه الأمة الخانعة أن تناقش وتحسب ما دامت مغلوبة بل وميتة، بعد أن فقدت تحت وطأة الظلم والقهر الطويلين حتى شعورها بالظلم فأصبحت لا تشعر به أو تتحسسه وأصبحت مجرد أدوات طيعة صغيرة وضئيلة

=بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا اتخذوا مال الله دولًا وعباده خولًا. ونحو قوله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال ألف شهر يملك فيها بنو أمية. وورد عنه صلى الله عليه وآله من ذمهم الكثير المشهور. .) شرح النهج م ٢ ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

(١)

(٢) المصدر السابق.

تتطلع إلى أرباب تراهم كباراً يديرونها ويوجهونها.. هؤلاء الأرباب الذئاب الذين يخضعون بدورهم لسلطان وحشٍ كاسر لا يعرف إلا مصلحته وهواه..

وعلى أي قانون تسير الأمة وتحاسب وتناقش! أليس على أساس الإسلام الذي زُوِّر وغيِّر (ولبُس لبس الفرو مقلوباً) لتكون كل تصرفات الحاكم وأفعاله مشروعة مباحة؟!

الإنحراف مقدمة للسقوط

وقد استعرض لنا التاريخ تصرفات (الخلفاء) الأمويين، وأفاض واستطرد. وربما رأينا أن تلك الدولة التي حكمها أكثر من إثني عشر حاكماً خلال أكثر من ثمانين عاماً والتي لم يسر فيها أحد منهم سيرة حسنة سوى خليفة واحد هو عمر بن عبد العزيز لفترة قليلة من الزمن أغتيل بعدها من قبل العائلة الأموية نفسها ـ كانت تبدو قوية في الظاهر، مزدهرة مكينة، غير أن تلك القوة الظاهرية قد حملت عوامل فنائها واندثارها بنفس الوقت.

كانت أيام الأمويين الزمن الذي اختفى فيه الحق وظهر فيه الباطل وكثر فيه الكذب على الله ورسوله وزوّر الحديث وفُسِّرت آيات الكتاب على ما يشتهي الحاكمون، حتى لكأنهم جاءوا بإسلام آخر لا يحمل من الإسلام الحقيقي إلا اسمه ورسمه الظاهري، إن صح أن يكون له رسم، وقلبت كل المفاهيم والموازين...

كانت نهاية الإنحراف تلك محتمة بعد ما مُهِّد لها من قبل، وبدأ خط الشروع بالانحراف الأول يبتعد عن خط الإسلام الأساسي ولو ابتعاداً ضئيلًا غير مرئي ولا محسوس في البداية، إلا أنه قد ابتعد ولا بد أن يصل بعد فترة ـ كتلك التي استمر فيها الحكم الأموي ـ إلى نقطة لا مجال فيها للالتقاء بالخط الأول والعودة إليه.

وليس غريباً أن يتوصل أمير المؤمنين عليه السلام، برهافة حسه وشعوره الكبير بالمسؤولية ومعاصرته لكل أحداث الإسلام صغيرها وكبيرها، مع ما أخبره به رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى عرض نتائج الإنحراف الخطيرة بعدما رأى مقدماتها. وليس غريباً أن يجعلنا ننظر الصورة المقلوبة للإسلام التي أرادنا الأمويون أن نعيش في أجوائها وضمن إطارها.. وهو صورة قاتمة مقيتة تهول كل من عرف الإسلام معرفة حقيقية وعاش أجواءه النقية الصافية... (إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس

عند أهل ذلك الزمان سلعة أبورَ من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا أنفق منه إذا حرف عن مواضعه[1].

ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر.

فقد نبذَ الكتاب حَملَتُه وتناساه حَفَظتُه. فالكتاب يومئذٍ وأهله طريدان منفيّان، وصاحبان مُصطحبان في طريق واحد، لا يُؤويهما مُؤوٍ فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم ومعهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة وافترقوا عن الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب، وليس الكتاب إمامهم. فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ولا يعرفون إلا خطه وزَبَره.

ومن قبل ما مثّلو بالصالحين كُلّ مُثلة. وسمّوا صدقهم على الله فرية، وجعلوا في الحسنة عقوبة السيئة. وإنما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم وتغيّب آجالهم حتى نزل بهم الموعود الذي تُرد عنه المعذرة وترفع عنه التوبة وتحل معه القارعة والنقمة..)[2].

الإنحراف يعني الهلاك المحتم

ونهاية الإنحراف تلك تنتهي بالموت المحتم، وهي لا تدعو أولئك الذين أقدموا على جريمة تحدي القوة الإلهية المقتدرة فبدّلوا أحكامها وشريعتها، إلى التفاؤل والسرور وإن حسبوا أنهم بمنجاة من عقابها وإن الرياح تجري بما تشتهي سفنهم.. (لأن الله لم يقصم جبّاري دهر قط إلا بعد تمهيل ورخاء. ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزلٍ وبلاء..)[3].

التمهيل والرخاء يحسبهما الظالم في مصلحته وتتحدث السنن الإلهية أنها مقدمة للسقوط، فالترف مقدمة لمطالب وممارسات عديدة غير مشروعة وحياة الرخاء

---

(١) (قال شعبة، إمام المحدثين: تسعة أعشار الحديث كذب.
وقال الدارقطني: ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالشجرة البيضاء في الثور الأسود.
شرح ابن أبي الحديد م٢ ص ٤٠٨. وهذه حقيقية رهيبة ينبغي الوقوف عندها طويلًا ومعرفة سرها ودوافعها. وهي بلا شك تتعلق بإرادة الحاكمين الذين رأوا أن لا حياة لهم إلا بتزوير الإسلام وعرضه مقلوباً!

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٨.

(٣) نفس المصدر ص ١٣٣.

تتطلع إلى حياة أكثر رخاء منها، ومن اعتاد أن تجبى إليه خيرات الأرض وهو ساكن مستريح، بل وهو يشهر سيفه وخنجره، يتطلع إلى يوم يسحق فيه الناس كلهم إذا ما حسب أن أحداً منهم يتطلع إلى ما في يديه.. إنه يحسب أن كل شيء أصبح ملكه وطوع إرادته، وكوّن حقاً مفترضاً له بتقادم الزمن ومرور الأيام لم ينزل به كتاب أو يتحدث عنه رسول.

تعلّم من ذي علم

وعندما أعلم رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام طبيعة ما سيحدث في غياب الإسلام قائلًا: (يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرمته بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية والربا بالبيع..)[1].

لم يكن يقصد ﷺ أن هذه الأوضاع ستكون الثمار الطبيعية لمجتمع الإسلام، بل لمجتمعات الجاهلية والانحراف، وهي (ثمار) مرفوضة يمنعها الإسلام ويحرّمها، ولن تستطيع الأمة اجتنابها إلا إذا اقتربت منه وجعلت منه أملها الوحيد وهدفها الكبير، وهي لا بد أن تفعل ذلك يوماً وتقترب منه وتعود إليه عودة تامة، وإلا فهل كان الأمر من بدايته عبثاً، وهل وجدت هذه الرسالة لتقصى إلى الأبد ولا تكفر بها إلا قلة من أبناء هذه الأمة!

هل ضحى عشرات الآلاف من الأنبياء والرسل من أجل معاوية ويزيد والوليد!

هل مات عشرات الآلاف من الأنبياء الرسل وعذبوا وتعرضوا لكل صنوف الأذى والنكال، وهل أرسل الرسول ﷺ وجاهد وضحى وأوذي ومات أصحابه والآلاف المؤلفة من المسلمين في ساحات المواجهة مع الكفر والجاهلية وتشرد عشرات الآلاف منهم وأوذوا وتيتمت آلاف الأطفال وترملت آلاف النساء لإرساء رسالة السماء الكبيرة ونشرها، ليسقط المسلمون بأجمعهم بعد ذلك جثة هامدة بيد يزيد والوليد والحجاج وأشباههم؟ وهل كانت نتيجة تضحيات المسلمين وجهودهم طيلة قرن من الزمن رهينة بأيدي حفنة من الدين لا يمتون للإسلام بصلة بل وربما

---

(١) نهج البلاغة ٣٣٧.

يخجلون من انتسابهم إليه، ويسخرون منه ويرون فيه مطية لأحلامهم وأمانيهم غير المشروعة؟

هل قتل حمزة ليسخر منه أبو سفيان. وقتل علي ليرثه معاوية ومروان وأولادهما؟ هل كان الإسلام مكرساً لخدمة هؤلاء وليقع في أيدي صبيان أمية الخليعين المترفين لتكون دولته مملكة موروثة يسوقها الأب لابنه ويسوق معها الأمة كلها عبيداً وخدماً ومطايا. . ؟!

إيغال في الجريمة ــ صحوة الموت

لقد تجرأ أولئك الذين أقدموا على قتل الحسين عَلَيْتَكْلِرْ وأوغلوا في جرائمهم عندما رأوا أن الأمة قد شاركت بنفسها معهم بفعلهم الشائن، رغم أنها كانت ترفض ذلك في قرارة نفسها، إذ كانت مدفوعة إليه رغم إرادتها، ولم تكن مقولة الفرزدق وغيره الذين أخبروا الحسين عَلَيْتَكْلِرْ أن قلوب الناس معه وسيوفهم مع بني أمية، غير مصيبة. . ! فالأمة مستسلمة خائفة بل ومهزومة، ولم تبق فيها قدرة على الصمود أمام النظام الفرعوني المتسلط.

وقد ازداد تماديهم عندما أقدموا على قتل أهل المدينة ومكة وضربوا الكعبة وقتلوا آلافاً من أهلهما واستباحوا الحرمات وانتهكوا الأعراض وطلبوا من الناس مباعية يزيد على أنهم عبيد له، وهو أمر لا يمكن تفسيره بمنظور إسلامي بأي شكل من الأشكال ويطلب من الأمة قبوله وهضمه ـ كما فعل العديدون من أعوان السلطة من الوعاظ وواضعي الحديث المأجورين، ولا يدل إلا على الإنحراف والظلم قد بلغا غايتهما.

وقد قمعت المعارضة التي قامت في أعقاب يزيد، في الكوفة والتي تزعمها سليمان بن صرد الخزاعي أحد صحابة الرسول ﷺ والمختار بن أبي عبيد الثقفي أحد أشهر المطالبين بثأر الحسين والذي ألحق خسارة فادحة بالدولتين المتصارعتين المروانية والزبيرية، وبقيت إحداهما، وهي الدولة المروانية الأموية، وقويت بحد السيف، واستأنفت مسيرة سابقتها الدولة اليزيدية الأموية، وقد أعطت لنفسها حقاً باللجوء إلى كل ما تراه مناسباً لحماية نفسها وإتمام مسيرتها.

لقد جرت حرب سجال طيلة سنوات عديدة، كانت الغلبة فيها لآل مروان، وأصبحت الكرة بأيديهم، وكان (الحق المضاف) الذي أعطوه لأنفسهم والذي تمادوا

فيه لأبعد حد في جرائمهم واستهتارهم وعبثهم، جعلهم أمام الصورة المشرقة لرسول الله ﷺ والمكانة الكريمة التي بناها للإسلام في نفوس المسلمين، يبدون كالقرود أمام هؤلاء، ينزون ويتقافزون ويتلاعبون على منبره الكريم الذي أراده الله منبر حق وكرامة لا منصة للقرود واللاهين والحواة. . .

لم ير الأمويون لأحد حقاً في محاسبتهم ومراقبتهم، وبلغ رصيد الأحاديث النبوية الموضوعة لصالحهم حداً جعلهم يقدمون دون خشية على هدم ما بناه الرسول ﷺ وينتهكون كل حدود الإسلام ويتلاعبون بأحكامه. . . فهم ولاة الأمر الذي ينبغي على الجميع إطاعتهم والاقتداء بهم، وليس لأحد أن يخرج عن حكمهم حتى ولو كانوا فاسقين، فإمامة المفضول والفاسق جائزة، بل واجبة حتى لكأن الإسلام قد جاء ليكرس إمامة الفاسق وحسب. . !!

قتلت نفسها عندما قتلت الحسين عليه السلام . .

وكان الإمام الحسين عليه السلام يرى أن الأمة، ممثلة بالجيش الذي أرسله يزيد لحصاره وقتله، إذا ما أقدمت على هذه الجريمة، فإنها ستوقع بيدها على وثيقة إعدامها وقتلها هي بيد الذين استخدموها لقتاله وقتله أنفسهم. . .

وكان يعلم أنه الممثل الحقيقي لرسول الله ﷺ وللإسلام، وأن الأمة تعلم ذلك، وكان يحذرها، إذا ما تجرأت على قتله، فكأنها تقدم بذلك على قتل رسول الله ﷺ نفسه وتنتهك حرمته وحرمة الإسلام. . وليس أمراً مفترضاً وغير واقعي أن الإقدام على قتل الحسين عليه السلام يمثل نهاية التمادي في الجريمة دون وازع كما يمثل الانفصال التام عن الإسلام مهما حاول المشاركون بالجريمة إيهام أنفسهم أنهم ينتمون إليه وأنهم على استعداد للدفاع عنه. . . !

قال الحسين عليه السلام لقتلته قبيل تنفيذ المراحل الأخيرة من الجريمة:

«أما والله، لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني. وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله أن لو قد قتلتموني، لقد ألقى الله بأسكم بينكم، وسفك دماءكم ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم . .»[1].

(١) الطبري ٣/ ٣٤٣.

وكيف لا يكون الجزاء من صنف العمل؟ وكيف حدث أن هذه الأمة لم تكتف بعدم تقييم العمل الكبير الذي أقدم عليه الحسين ونهضته ومسيرته الملحمية لإنقاذها، فهو بقية الرسول ﷺ وممثله ووصيه وحامل رسالته ومبلّغ سره وأمانته، وأساغت لنفسها أن تسير خلف طغاتها وشذاذها وأعدائها لتقتل ابن الرسول هذا ووصيه قتلة شريرة وتمثل بجيشه وتنهب ثقله ومتاعه وتسبي نساءه وأطفاله وتشردهم وتعذبهم وتسجنهم. . .

إن هذا سيظل أمراً غير مفهوم في غياب عدم معرفة طبيعة تلك الظروف التي مهد لها معاوية طيلة أكثرمن عشرين عاماً وجعل الأمة غائبة عن الوعي مسلوبة الإرادة وأصبح في نهايتها قادراً على تنفيذ كل خططه وبرامجه الشريرة ومهّد لإمبراطورية الشر الأولى في تاريخ الإسلام.

إن إقدام السلطة على قتل الحسين وإشراك الأمة بذلك لن يجعل تلك السلطة تهاب الإقدام على قتل أي شخص آخر مهما علا مركزه وسمت مكانته، فتلك كانت أكبر عملية جس نبض تعرضت لها الأمة لمعرفة رد فعلها على قتل أكبر شخصية من المسلمين بل الشخصية الأولى فيهم، وسيكون ذلك تمهيداً لحملة محمومة من الانتهاكات والجرائم الأخرى التي ستقدم عليها بعد ذلك دون تردد أو تحفظ.

لقد كانت الأمة تقبلها إياه وقبولها أن تكون أداة بيد القاتل، تقتل نفسها أيضاً. . . فالقاتل الرئيسي سيعمد إلى تأليب بعضها على بعض وتجريد بعضها على بعض ما دامت تطاوعه وتستجيب له إلى تلك الدرجة التي تطاوعه وتستجيب له الأدوات الجامدة الفاقدة للحياة والحس كالسيف والرمح، وكان ذلك دون شك يحزن الإمام الحسين عليه السلام الذي أراد إنقاذها من هذا المصير المفجع، مع أنه مطمئن لمصيره هو والكرامة التي سينالها في دار القرار وفي هذه الدنيا، إذ أقدم على ما تراجع عنه الكثيرون ولم يتراجع رغم كل الثمن الكبير الذي دفعه.

تطلع دائم إلى النهوض

وإذ لم يتم له ذلك حالّا، ولم تتح له فرصة إعادة الأمة إلى الخط الرسالي الذي رسمه لها رسول الله ﷺ وبيّن أبعاده وحدوده، فإنه لم يتوقع أنها سوف لن تعود إلى هذا الخط أبداً في يوم من الأيام، وإن قد يبدو هذا اليوم بعيداً. .

لقد نجح الحسين عليه السلام نجاحاً باهراً بجعل الأمة تتطلع دائماً إلى النهوض من السقطات والإنحرافات المتكررة التي حاول أعداؤها إيقاعها فيها وتطمح إلى التخلص من دولة الظلم مهما كان شكلها وعنوانها ومهما اختلفت شعاراتها وادعاءاتها، ونجح بجعلها تدرك أنها لا تزال تملك مقومات النهوض والعودة إلى الإسلام.

لقد تمادت دولة الأمويين في ظلمها وطغيانها، وقويت واشتدت، غير أنها تلاشت، ولم يعد رصيدها سوى سيل ميل اللعنات صبّتها عليها الأمة فيما بعد لانحرافها المعلن وإيقاعها هذه الأمة المغلوبة في بحر من الفتن والضلالة والجهل والانحراف والضياع، وقامت على أعقابها دول أخرى إنحرف فيها (خلفاء) وسلاطين وأمراء كثيرون.. وقد تلاشت تلك الدول بدورها رغم مظاهر القوة والازدهار والأبهة الظاهرة، وبقي الإسلام، وبقيت جذوته في النفوس، وبقيت نزعة التضحية والتصدي واسترخاص النفس والمال وكل شيء في سبيله.

وتلوح أمام هذه النفوس، كلما أوشكت أن تضعف أو تنهار أو تستسلم مواقف الإمام الحسين وصحبه عليه السلام ومواقف أولئك الذين ثاروا بعده في الكوفة والمدينة ومكة والبصرة وبغداد وغيرها من حواضر المدن الإسلامية.

رأى العديدون من أبناء الأمة أن عليهم أن يسجلوا موقفاً مناوئاً للظلم والانحراف، كذلك الذي سجله الحسين وأصحابه، وحفلت صفحات التاريخ الإسلامي بصور عديدة لم يستطع الظالمون محوها وإغفالها، لثوار آخرين وقفوا وقفة مبدئية شجاعة بوجه كل دول الظلم المتعاقبة، ولم يرهبهم عنفوانها ولا انتهاجها أقسى الأساليب لقمعهم وإسكاتهم، وقد أخذت الأمة تفكر بشكل جدي ومسؤول بما يقوم به فراعنتها لبسط نفوذهم وسلطانهم، وكان هؤلاء يحسون بروح المقاومة والتصدي الموجودة في نفوس أبنائها وإن لم يعلنوا عنها بنفس الطريقة التي أعلنها الإمام الحسين عليه السلام.

الثورة أثرت على مجرى كل الأحداث الإسلامية اللاحقة

ألقت الثورة ظلالها وآثارها حتى على أولئك الذين لم يريدوا أن يعترفوا بها كأكبر حدث إسلامي حاسم، قامت به أكبر شخصية إسلامية، وهو حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووصيه وخليفته ـ بفعل التحرضات وخلفيات الخلاف والنزاع القديمة التي زجت بها فئات واسعة من أبناء الأمة، مع أنهم تأثروا بها بشكل مباشر أو غير

مباشر وتبنوا مواقفها الحازمة تجاه الظلم والانحراف. . . واستمرت جذوة الصحوة الإسلامية بفعل تلك الثورة في نفوس المتطلعين لحياة الإسلام وحكم الإسلام مهما كانت مذاهبهم وتوجهاتهم ونوعية الأمور التي اختلفوا حولها.

لقد كان للثورة تأثيرها على سلسلة الحوادث التي وقعت بعدها، مما جعل مسار الأحداث التاريخية يتخذ الشكل الذي اتخذه فعلاً ليؤثر على مجرى التاريخ الإسلامي برمته. . ماذا كان سيحدث ـ لو أن أحداً ما لم يواجه دول الانحراف بظلمها وانحرافها؟ صحيح أن تلك الدول لم تتراجع عن انحرافها وظلمها، لكنها أخذت تحسب حساباً شديداً للأمة المسلمة قبل الإقدام على خطوة علنية متهورة تجاه الابتعاد عن الإسلام ورفض منهجه، وتلجأ ـ مرغمة ـ للتظاهر ولو بالحد الأدنى المقبول من السلوك لكسب ودّها وليتسنى لها الادعاء بأنها إنما تحكم باسمها وأنها قد استمدت شرعية وجودها من إجماعها وقبولها إياها فئة حاكمة لها! إليس هذا ما تدعيه دول الظلم دائماً؟

الدولة العباسية قامت على شعارات الثأر للحسين عليه السلام وشهداء أهل البيت

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الدولة العباسية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية، جعلت من استشهاد الحسين عليه السلام ـ كما سنرى في المبحث المقبل ـ سبباً لكسب ودّ الأمة وعطفها، وجعلت من ذلك سلماً للوصول إلى السلطة بعد الإطاحة بالدولة الأموية التي أخذت عوامل سقوطها تتجمع في الأفق، مع أن هذه الدولة نفسها قد انحرفت منذ الوهلة الأولى لنشوئها، بل أن الانحراف كان مبيّتاً منذ البداية.

«...إنما ادّعيتم هذا الأمر بنا...»

ويشير كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن للمنصور إلى هذه الحقيقة إشارة واضحة حينما يقول له: (. . وإنما ادّعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم إليه بشيعتنا وحظيتم بفضلنا وإن أبانا علياً عليه السلام كان الإمام، فكيف ورثتم ولاية ولده وقد علمتم أنه لم يطلب هذا الأمر أحد بمثل نسبنا ولا شرفنا. .)[1].

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٩٢ وأورد الطبري قوله للمنصور (. . وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء، ثم قد علمت إنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. .) ٤/ ٤٣١.

لقد كانت نغمة الثأر لآل البيت عليهم السلام هي التي عزفها العباسيون في بداية سعيهم للحصول على السلطة وحتى في بداية حكمهم، كما فعل أبو العباس السفاح حينما خاطب رأس مروان الحمار، وقد وضع بين يديه، قائلًا: (الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك. ما أبالي متى طرقني الموت. قد قتلت بالحسين وبين أبيه من بني أمية مائتين وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي وقتلت مروان بأخي إبراهيم. . .)[1].

كان أبو العباس يريد أن يستغل تعاطف أبناء الأمة الذين أدركوا سلامة توجهات أهل البيت ونتائج ثورة الحسين في تحطيم الدولة وكان يعرض نفسه كأحد ثوار آل محمد وكأحد أشدّ الموتورين لقتلهم. . ولعله كان يضحك في قرارة نفسه على أولئك الذين يصدقون دعاواه بشأن حزنه على الحسين والثائرين من أهل البيت.

وقد وردت إشارة واضحة عن أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد فيها على ذهاب دولة أمية على مجاميع من المسلمين، منهم من يتمسك بآل البيت عليهم السلام كالآخذ بالغصن أينما مال ماله معه، فأينما سلكوا سلك معهم، ومنهم من لا يكون هذا حاله وإن ادّعى ودّه ونصرته لآل البيت، وقد تكون دعواه هذه وسيلة لغاية يطمح إليها، كما كان شأن بني العباس. . على أن الكل ادعوا أنهم شيعة هاشمية غرضها إزالة بني أمية. . منهم من كان يوالي أمير المؤمنين وبنيه عليهم السلام ومنهم من حاد عن ذلك أو أضمر الانحراف والخروج عن موالاته منذ البداية، بعد أن كانوا جميعاً من شيعته، أو هكذا ادعوا: (إفترقوا بعد إلفتهم، وتشتتوا عن أصلهم، فمنهم آخذ بغصنٍ، أينما مَالَ مال معه. على أن الله تعالى سيجمعهم لشر يوم لبني أمية كما تجتمع قزع الخريف، يؤلف الله بينهم، ثم يجعلهم ركاماً كركام السحاب، ثم يفتح الله لهم أبواباً يسيلون من مستثارهم كسيل الجنتين حيث لم تسلم عليه قارة ولم تثبت عليه أكمة، ولم يرد سننه طود ولا حداب أرض، يذعذعهم الله في بطون أوديته، ثم يسلكهم ينابيع في الأرض يأخذ بهم من قوم حقوق قوم، ويمكن لقوم في ديار قوم. وأيم الله ليذوبنَّ ما في أيديهم بعد العلو والتمكين كما تذوب الألية على النار. .)[2].

كان العباسيون ـ إلى أن استلموا السلطة ـ شيعة لعلي وآله عليهم السلام، ادعوا

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٣١١.

(٢) شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

ولاءهم وحبهم ونصرتهم والمطالبة بحقهم، إلا أن الأيام كشفتهم، ولم يكتفوا بأن سلبوا أصحاب الحق حقهم، بل قاموا بأكثر مما قام به الأمويون بحقهم وحاولوا التقليل من أهميتهم وركزوا الأضواء على أنفسهم، وحاولوا أن يظهروا أمام الأمة وكأن لهم قضية خاصة قبالة العلويين، وكأنهم قد ظلموا فعلًا عندما تصدى لهم بعض أبناء ذلك البيت العلوي الذي شيدوا على أساسه مجدهم وسلطانهم، وقد أفصحوا في النهاية في صراعاتهم حتى مع بعضهم البعض عن نواياهم بالاستحواذ على الملك العضوض، وقد رويت لنا قصص عديدة عن صراعات دامية بين أفراد الأسرة العباسية لم ير فيها أي فرعون منهم سوى نفسه ومصالحه ومجده الشخصي.

تنبيه دائم للأمة

لقد جعلت ثورة الحسين أعداداً كبيرة من المسلمين يلتفتون إلى دوافعها وأهدافها الحقيقية ـ رغم التشويه الذي حاول أعداء أهل البيت إلحاقه بها ـ ويتعاطفون معها، بل ويتبنون مواقف الثوار الذين وقفوا إلى جانب الحسين عليه السلام ونصروه في أحرج الظروف التي كانت تمر بها الأمة..

وقد كانت تلك الطليعة العقائدية المؤمنة التي أراد أمير المؤمنين عليه السلام إيجادها في العراق ـ إثر خروجه من المدينة بعد ظهور الأحزاب والقوى المناوئة لمسيرة الإسلام الحقيقية ـ قد نمت بوجوده ـ في الكوفة، ثم تضاءلت بعد ذلك لما لقيته من متاعب ومحن وهي تخوض مع ذلك الإمام العظيم معاركه الكبرى ضد الأحزاب وقريش والعائلة الأموية ومَن استقطبتهم والخوارج، ثم بعد اغتياله عندما واجهت العنف الأموي المتصاعد، الذي كان يبدو مكرساً لمواجهة كل أبناء الأمة وقتلهم إن اقتضى الحال، لو لم يعمل الإمام الحسن عليه السلام على إيقافه عند صلحه مع معاوية وبعد الشروط التي تضمنها عقد الصلح، كما أوضحنا في بحث سابق من هذه الدراسة، وبقي أمرها بين مدٍ وجزر وصعود وهبوط طيلة الفترات اللاحقة، وبقيت في قرارتها تميل لنهج أمير المؤمنين عليه السلام وخطه، وقد رأت في ثورة الحسين عليه السلام بوجه الانحراف المعلن بعد معاوية أملًا حقيقياً يلوح أمامها لتخليصها من ذلك الانحراف، فكانت تبدو مستعدة للمشاركة فيها. إلا أنها سرعان ما تراجعت على أعقابها بل وشاركت بجريمة قتل الحسين وأصحابه، ثم عادت وانتفضت على قاتليه وشاركت في ثورات عديدة ضد دولة الظلم ـ كما رأينا في هذا الكتاب ـ وكانت

مستسلمة في مراحل عديدة من حياتها في ظل دولة الظلم الأموية، غير أنها ـ دون شك ـ لم تكن راضية عن هذا الاستسلام، وكانت تتطلع إلى من ينقذها ويقودها ضد الأمويين وغيرهم فيما بعد. . ولم تتح لأحد فرصة فهم هؤلاء الثائرين الدائميين على الظلم رغم سكوتهم واستسلامهم الظاهري أحياناً، اللهم ألا لأولئك الذين عرفوا توجهاتهم وفهموا تصوراتهم.

صحوة إسلامية متجددة

غير أن الأمر لم يكن مرهوناً بأهل العراق وأهل الكوفة على الخصوص الذين أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن يجعلهم طليعة عقائدية وشيعة حقيقيين للإسلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن عزم على تربيتهم وقيادتهم ضد كل انحراف مشهود أو محتمل وكل خروج عن الإسلام، مع أن هؤلاء لم يكونوا جالية صغيرة في مكان ما من العالم وإنما كانوا يشكلون قوة كبيرة لها حضورها وروابطها الوثيقة، وكانت الكوفة تشكل المعسكر المتقدم للدولة الإسلامية بمواجهة أقطار شاسعة لم ينتم أغلبية سكانها للإسلام وكانوا معادين له وعلى أهبة الاستعداد للقضاء عليه. وكانت مدينة الجند تلك قد أثرت على غيرها فيما بعد، وانتشرت طلائعها لتشكل دولًا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي موالية لأهل البيت، وإن انحرف بعض من حسب عليهم وادعى أنه يسير على خطهم. وكانت الأحداث التي لعبوا فيها أدواراً مهمة، عديدة، وقد شاركوا عموم المسلمين بثورات ومواقف مبدئية مشهورة أثبتوا فيها صدق انتمائهم للإسلام وشدة حبهم له.

إن الصحوة الإسلامية التي غالباً ما تتجدد وتلوح دائماً في أفق حياة المسلمين، كانت نتاجاً دائمياً ومتجدداً لثورة الحسين عليه السلام الذي أصبح رمزاً لكل الثائرين على الانحراف والظلم، ولم يكن مجرد صوت ارتفع لبرهة من الزمن ليخمد بعد ذلك، وإنما كان فعلًا حاسماً ضحى فيه إمام الأمة بحياته من أجل الأمة.

ولم يُرد لثورته تلك أن تكون لأجل فئة أو مجموعة منها، وإنما لها جميعاً. .

وإذ لم تتح للكثيرين فرصة الاطلاع على حقائق هذه الثورة وملابساتها وظروفها ـ بفعل الإعلام المضاد لها ـ فلعلهم فاعلين ذلك الآن ليدركوا كما أدرك العديدون من أسلافهم أن الحسين عليه السلام لم يكن يسعى للحصول على سلطان أو مالٍ أو مكسب شخصي، فقد كانت مجرد إشارة موافقة بسيطة منه لمعاوية أو يزيد تجلعه في

مقدمة المستفيدين من (غنائم) الدولة الكبيرة التي كانت تفيض بها على أعوانها وصنائعها ومقرّبيها، ولعل موقف الحسين الرافض ليزيد هذا، رغم ما كان سيحصل عليه لو أنه قبل به خليفة، يثير الكثيرين من اللاهثين وراء المكاسب الشخصية والطامعين بها فيشنون حملة معادية عليه لأنه لم يقبل بما لو حصلوا على جزء بسيط منه لعدّوا أنفسهم من السعداء، وقد سجل بموقفه هذا على كل طامع علامة إدانة كبيرة تجعل الأمة تنظر إليهم بغضب واحتقار لأنهم اختاروا الوقوف إلى جانب الظالم ومساندته على حساب مصالحها وراحتها ورخائها والتي كانت تتحقق في ظل الإسلام لو كان هناك قيادة حقيقية تشعر بالمسؤولية التامة تجاهها.

ثورة الإسلام

كما أن ثورة الحسين عليه السلام لم تكن ثورة شيعية ـ بالمعنى الذي يصوره البعض ـ ممن لا يكلفون أنفسهم عناء البحث وفهم مسار التاريخ ومجريات أحداثه والذين انساقوا بدوافع عديدة لتشويه هذه الثورة أو التقليل من شأنها ـ فالشيعة ككتلة عقائدية اختارت مذهب أهل البيت عليهم السلام لم تكن قد ظهرت بعد، كما لم تكن المذاهب الإسلامية الأخرى قد ظهرت هي أيضاً، إلا أن من ناصروه قد تحيزوا إلى جانبه لأنه دعاهم إلى العودة الصافية الصحيحة لدين جده صلى الله عليه وآله متجاوزين كل العقبات والشوائب والأشوا التي وضعت في الطريق في محاولة لإبعاد المسلمين، وكانوا شيعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وللإسلام، ولم يكن هوى بعضهم منذ البداية مع أهل البيت عليهم السلام بل كانو ضدهم، إلا أنهم انبهروا بالموقف الصادق للإمام الحسين عليه السلام وصعقوا بحرصه الكبير على حماية الإسلام بدمه رغم المخاطر الكبيرة التي كانت تلوح أمامه، وذلك ما جعل حتى بعض الذين قدموا لقتله يتخلون عن مهمتهم وينضمون إليه في اللحظة التي بدا فيها أن موته مؤكد لا شك فيه.

إن تصفحاً واعياً لأحداث التاريخ الإسلامي تجعلنا ندرك أن هذه الثورة قد تركت طابعها الواضح على تلك الأحداث وإلى يومنا هذا وأنها قد فعلت فعلها لجعلها تتخذ المسار الذي اتخذته، وأنها قد جعلت الضمير الإسلامي يستيقظ لدى الجميع ولا يغفو، ولا يتمكن الظالمون والمنحرفون من إعادته إلى السبات بسهولة.

وقد حدثت ثورات عديدة من قبل بعض العلويين الذين ينتمون لأهل البيت عليهم السلام كثورة زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وثورة ابنه يحيى من بعده في عهد

الأمويين[1]، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين وغيره في عهد العباسيين، كما حدثت ثورات أخرى قاد بعضها ولاة وعمال وقادة آخرين للأمويين والعباسيين، ومهما كانت الدوافع الحقيقية لهذه الثورات فإن استمرارها وظهورها بين وقت وآخر كان يعبر عن روح كربلاء الرافضة للظلم والانحراف أبداً، كما أنه يدل على أن الثوار يجدون ما يبرر قيامهم بها أمام مجموعات كبيرة من الأمة تستجيب لهم وتثور معهم، ولم يكن من المعقول أن تفعل ذلك دون وجود أسباب حقيقية للثورة ودون وجود أرضية مناسبة لها، ولم يكن من المعقول أن يعزر بتلك الأعداد الكبيرة من الأمة دائماً ـ كما قد يدعي أعداؤهم ـ وينساقون دون وعي لمواجهة قوى أكبر منهم ما لم يقتنعوا بضرورة المواجهة والثورة وليشعروا كل قطاعات الأمة بالظلم الذي يقع عليها والانحراف المعلن الذي يقع تحت سمعها وبصرها ليتمكنوا من رفعه وإزالته..

ولا نعتقد أن الجميع يحسبون أن كل الأحداث والثورات التي وقعت فيما بعد، كانت نتيجة ثورة الحسين عليه السلام، فالدوافع كثيرة وأبطال تلك الثورات لم يكونوا كلهم من نمط أولئك الذين نصروا الحسين وتبنوا مواقفه ووقفوا إلى جانبه. غير أن تشابك الأحداث وربط كثير من النتائج بالمقدمات تؤكد أن تلك الثورة كانت ذات أثر كبير على الكثير منها وذلك يتطلب دراسات أكثر دقة وشمولية لكل حدث منها وعلاقته بتلك الثورة.

الحكم الأموي: حفر قبره بيده

إن ما أردنا توضيحه في هذا الباب هو أن الحكم الأموي قد حفر قبره بيده وأعدَّ لموته بإقدامه على التصدي لثورة الحسين بتلك الصورة المنكرة وقمعها بالشكل الذي تم فيه ذلك. وكان تماديه في الجريمة والانحراف والخروج المتعمد عن الإسلام، وقيامه بجرأة أكبر على قتل واستئصال كل المعارضين والثوار الآخرين، بعدما حسب أن الأمور قد استتبت له وأنه استطاع القضاء على تلك الثورات نهائياً، عاملًا على كشفه وفضحه أمام الأمة وتجسيم عيوبه وأخطائه التي استثمرها في النهاية الدعاة العباسيون الذين كانت على أيديهم نهايته البائسة، وإن عمد هؤلاء فيما بعد إلى اعتماد

(١) وقد أشرنا إليها في هذا الفصل.

نفس أساليب وخطط سابقيهم وكان حكمهم امتداداً لحكم أولئك، وكانت زاوية الانحراف تبدو أكثر انفراجاً وبعداً عن نقطة الشروع وكانت محصلة أعمالهم تتقاطع بشكل واضح مع القيم الكبيرة التي دافع عنها الإمام الحسين عليه السلام وجاءوا هم مدّعين الدفاع عنهم، ثم تنكروا لها بعد ما حسبوا أنهم قد فازوا بكل شيء. . .

١١ - سقوط الدولة الأموية والموجة الفرعونية العباسية

الأموية والعباسية.. توجه فرعوني واحد

لم يكن قيام الدولة العباسية نتيجة طبيعية للمقدمة التي شهدت ارتفاع الموجة الفرعونية الأموية، مع أنها كانت النتيجة المباشرة الواقعية لها[١]. . . فكيف حدث أن اتحدت الموجتان فيما بعد تحت تأثير ريح واحدة وشكلتا أكبر تيار فرعوني اجتاح المسلمين، وكانت الخبرة الأموية في مجال الانحراف تبدو وكأنها كانت تكرس لمصلحة الخلفاء العباسيين[٢] الذين أفادوا منها إلى أبعد حد ممكن وقد أضافوها إلى خبراتهم في مجال السياسة والحكم ليتسنى لهم البقاء خلفاء وحاكمين إلى الأبد[٣]. . . متذرعين ومدّعين أنهم المستضعفون الذين منّ الله عليهم وجعلهم أئمة

(١) وقد حاول أكبر خليفة عباسي، وهو المنصور، في خطاب له بمكة بعد بناء بغداد، أن يبين للناس أن مجيء العباسيين كان سنّة إلهية محتمة أشار إليها القرآن الكريم، بعد أن قام فراعنة الأمويين الجدد ببناء صرح دولتهم الظالمة على رقاب المسلمين ولم يلتفتوا إلا إلى مصالحهم وامتيازاتهم، وحاول يظهر دولته بمظهر الدولة العادلة التي يبشر الله بها المؤمنين بعد اندثار الظلم وزواله.. وقد جاء في خطبته.. (﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الأنبياء/ ١٠٥، أمر مُبرم، وقول عدل، وقضاء فصل، والحمد لله الذي أفلج حجته، وبعداً للقوم الظالمين، الذين اتخذوا الكعبة عرضاً والفيء إرثاً، وجعلوا القرآن عضين، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد! أهملهم الله حتى بدّلوا السنّة، واضطهدوا العترة، وعندوا واعتدوا، واستكبروا وخاب كل جبار عنيد، ثم أخذهم، فهل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً!) الطبري ٤/ ٥٣١ وابن الأثير ٥/ ٢٢٣.

(٢) كان الخلفاء العباسيون يتابعون سيرة بعض الخلفاء الأمويين ويحاولون الإفادة منها.. ويهمنا أن نشير إلى اهتمام المنصور بتدبير هشام بن عبد الملك في حروبه وملكه.

(٣) خطب داوود بن علي عم السفاح في أهل الكوفة سنة ١٣٢ وجاء في خطبته (.. فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى تسلمه إلى عيسى بن مريم..) الطبري ٤/ ٣٤٨ وابن الأثير ٥/ ٦٨ وقد أشار السفاح في هذه الخطبة إلى ما ذكره المنصور بعده فقال: (ثم وثب بنو=

وجعلهم الوارثين، كما أن الله قد منَّ بهم على المستضعفين ـ على حد تعبير أبي العباس السفاح أول خليفة لهم في أول خطبة ألقاها في أهل الكوفة، وأنهم (أهل البيت) الذين أشار الله إليهم في محكم كتابه الكريم إشارة واضحة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] محاولين التعتيم على أهل البيت الحقيقيين الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة وهم (محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام)، كما رويت في ذلك الروايات الصحيحة التي تداولها المسلمون في كتبهم وصحاحهم والتي حاول إنكارها من قبلهم الأمويون، فادعوا أمام المسلمين بأن أهل البيت هم آل أبي سفيان. وقد انطلت أكاذيبهم بشأن ذلك على أهل الشام المتأثرين بمعاوية إلى حد بعيد وكانوا نتاج تربيته وإعدادِه الخاص.

الدولة أموية والشعارات علوية

لقد قامت الدولة العباسية على شعارات علوية وحاولت التقرب إلى الأمة واستمالتها بالدعوة إلى الرضا من آل محمد وبالمطالبة بدم الحسين وزيد ويحيى.. وهو أسلوب ماكر ظاهره الدعوة لأحد أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو الأمر الذي من شأنه استجلاب تعاطف عموم جماهير الأمة والتفافها حولها، وباطنه الدعوة إلى إقامة حكم وراثي مستبد محصور ببني العباس مشابه للحكم الأموي إلا أنه يتفوق عليه بأساليبه المبتكرة الماكرة ومحاولاتها إيهام المسلمين بعد ذلك بأن المقصود بآل البيت هم آل العباس.

أكد العباسيون في معرض خطبهم وأقوالهم وأحاديثهم العامة على فضل أهل البيت في محاولة مستمرة للإيحاء بأن المقصود بهم أقارب الرسول كافة وخصوصاً بني العباس وإن لم يقولوا بذلك صراحة في بداية الأمر خوفاً من افتضاح أمرهم ومن شأن ذلك أن يعرضهم للخطر لأنهم لم يستكملوا استعداداتهم بعد لمواجهة الأمة

=حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض، وختم بنا كما افتتح بنا، وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح. وما توفيقنا «أهل البيت» إلا بالله..» الطبري ٤/ ٣٤٧ وتارخ الخلفاء ٢٣٩ وابن الأثير ٥/ ٦٧.

(١) الأحزاب ٣٣.

وفرض سيطرتهم عليها، وكانوا يبدون مستمتعين إلى أبعد حد بالأكذوبة التي كانوا يحاولون تمريرها على الأمة، وكانوا هم أعلم الناس بعدم صحة تلك الأكذوبة وكانوا يدركون حقاً من هم المقصودون بأهل البيت[1] الذين كانوا يتمتعون بأعلى سمعة بين المسلمين قاطبة، حتى أولئك الذين نصبوا لهم العداوة من الأمويين وأعوانهم.. والذين غطى بريقهم الساطع على ضوئهم الخافت وخمولهم لولا ما ذكر عن قرابة جدهم العباس لرسول الله ﷺ وما تميز به ابنه عبد الله بومضة من العلم لم تكن تقارن بعلم أي إمام من أئمة أهل البيت عليهم السلام وكانت تلك القرابة هي الخيط الذي تشبثوا به للادعاء بصلتهم الوثيقة برسول الله ﷺ محاولين به تجميل صورهم وإظهار أنفسهم بولاء كفوئين ينوبون عنه في حكم المسلمين. وقد ساعدهم على ذلك ما رآه المسلمون من قبح صورة أعدائهم الأمويين الذين سبقوهم بالجلوس على سدة الحكم، والذين استثمروا إعلانهم العداوة لهم للتقرب من الأمة.

العباسيون: استغلوا رصيد أهل البيت لدى المسلمين

كان لأهل البيت عليهم السلام، وقد خبرهم المسلمون وعرفوهم حق المعرفة وأدركوا أنهم الوحيدون الجديرون بقيادتهم وإيصالهم إلى شاطىء الأمان في ظل الإسلام، منزلة خاصة في نفوسهم وصدى طيباً، بعد أن خبروا وعرفوا أيضاً أعداءهم الحقيقيين من الأمويين وغيرهم.. لذلك كان العزف على نغمة بيان ذكرهم وفضائلهم ـ من قبل العباسيين ـ دون تحديدهم في البداية ـ في نية مبيّتة لسلب هويتهم كأهل لبيت الرسول ﷺ خاصة ونقلها إليهم ـ يقصد منه التقرب لعموم أبناء الأمة أولاً وادعاء كل التراث الضخم الذي حازوه والمكانة الضخمة التي حصلت لهم في نفوس أبناء الأمة. ومن هنا نشأت حملة مماثلة لتلك التي قامت في عهد الأمويين كرست للحط من منزلة أمير المؤمنين وأبنائه عليهم السلام ومطاردة كل علوي يرون فيه خطراً على

---

(١) ورد التأكيد على أن أهل البيت هم محمد ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، أوردت ذلك أهم كتب الصحاح والسيرة والتاريخ، وعز زمن ذلك نزول آية المباهلة ﴿... فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ واستدعاء رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي.. ومن أهم هذه الكتب وعددها أكثر من ستين كتاباً، صحيح مسلم وسنن الترمذي ومسند أحمد وتفسير الطبري وأحكام القرآن ومستدرك الحاكم وجامع الأصول ودلائل النبوة وذخائر العقبى والبداية والنهاية والإصابة والدر المنثور وغيرها...

مراكزهم وسلطانهم حتى ولو لم يكن أحد أئمة أهل البيت عليهم السلام . . . وقد جرى ذلك بعد أن ثبت العباسيون أقدامهم وقمعوا معارضيهم الآخرين، ولم يكن أحد ليجرؤ على تسخيف أطروحاتهم وتزويدهم خصوصاً وأنهم وجدوا جيشاً كثيفاً من وعاظ السلاطين وواضعي الحديث ومزوّريه مستعدين لعرض خدماتهم مقابل الأثمان السخية التي كانت تقدّم لهم.

إدّعى العباسيون الغضب من أعداء الأمة الأمويين لقتلهم الحسين عليه السلام وزيد ويحيى، ففي خراسان (خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقيل قتلته. .)[1]، فخراسان كانت المهد الذي احتضن ثورة يحيى وأهلها كانوا يمحضون أهل البيت عليهم السلام الود والوفاء بعد أن تعرضوا لأشد ضروب الامتهان والظلم والحرمان على يد الأمويين، وكانوا يرون أنهم الجديرون بقيادتهم وإنقاذهم من الظلم الأموي، بعد أن استشهد علم من أبنائهم وهو يحيى بين ظهرانيهم وقد جاء ينتصف لهم وللمسلمين بشكل عام. وبعيد استشهاده سمي آلاف المواليد في خراسان وأفغانستان وأذربيجان وأرمينيا ونجارى وسمرقند باسم يحيى وزيد اعتزازاً بمن قدما نفسيهما في سبيل الإسلام والمستضعفين من أبنائه، وإذ أن أبا مسلم كان ينتمي لهؤلاء المستضعفين من الموالي فإن دعوته للمطالبة بدم أهل البيت وأبنائهم وخصوصاً دم زيد، قد لقيت إستجابة تامة في تلك البيئة المهيأة لتقبل أي تحرك مضاد لدولة الظلم الأموية. وهكذا دعاهم في أول مواجهة بينه وبين ممثل الدولة الأموية ـ نصر بن سيار إلى الرضا من آل رسول الله صلى الله عليه وآله[2] وأظهر الدعوة في خراسان، وأمر أحد أصحابه، الذي كان يقص القصص في عسكره بذكر فضل بني هاشم ومعايب بني أمية[3]. . ومن الطبيعي إن الغطاء الهاشمي يتسع للعلويين والعباسيين ويفي بالغرض في تلك

---

(١) الطبري ٤/ ٥٧٤ ولجأ أبو مسلم إلى أسلوب التفرقة بين القبائل وإثارة العصبية القبلية بين ربيعة وقحطان من جهة ومضر من جهة أخرى، وأبدى أعداءه لمضر باعتبارهم عمالًا لمروان الجعدي وهم قتلة يحيى بن زيد. وقد ألقى أحد أصحاب أبي مسلم خطبة في جماعته جاء فيها (. . . مضر قتلة آل النبي (ص) وأعوان بني أمية وشيعة مروان الجعدي ودماؤنا في أعناقهم وأموالنا في أيديهم. .) ٤/ ٣١٩.

(٢) الطبري ٤/ ٣٠٨.

(٣) الطبري ٤/ ٣١٣.

المرحلة ريثما يتسنى للعباسيين سحبه من على ظهور إخوانهم العلويين الذين تقربوا بهم إلى الأمة، ثم ضربوهم بعد ذلك.

ونرى أن النيّة كانت مبيّتة منذ البداية للتمويه على المسلمين بالدعوة إلى الرضا، فقد بعث محمد بن علي (رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة أو أربع ومائة ـ وأمره أن يدعو إلى الرضا، ولا يسمي أحداً، ومثّل له مثالًا ووصف من العدل صفه..)[1]...

(الرضا من آل محمد): المعلوم المجهول

وقد قام هذا الرسول وهو أبو منصور طلحة بن زريق بأخذ البيعة وكانت صيغتها: (أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم؛ وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم..)[2].

وقبيل كل معركة أو واقعة مع أعدائهم أو مناوئيهم كانوا يدعونهم إلى كتاب الله عز وجل وسنة نبيّه ﷺ وإلى الرضا من آل محمد. وكان ذلك المفتاح السحري الذي يتوصلون به إلى قلوب المسلمين المظلومين والمضطهدين.

قحطبة بن شبيب: «.. تمسكوا بأهل البر والتقوى من عترة الرسول ﷺ...»

وتظهر كلمة ألقاها قحطبة بن شبيب صاحب لواء إبراهيم بن محمد بن علي العباسي في أهل خراسان مهارة ومكر القادة العباسيين وقابليتهم لاستغلال مشاعر أهل خراسان الموالين لأهل البيت والمعادين للسلطة الجائرة التي حكمت فيهم بغير ما جاء به الإسلام.

إن قحطبة يحاول هنا إثارة حسّ الانتماء للوطن الصغير (خراسان) الذي تعرض أهله غير العرب لحملة قاسية من حكامهم الأمويين (العرب)، الذين ابتعدوا عن الإسلام وقيمه الكبيرة الأولى التي رفعت العرب جميعاً بعد أن كانوا ضعافاً أمام القوى

(١) الطبري ٤/ ٣٢٠.
(٢) الطبري ٤/ ٣٢١.

الكبيرة التي كانت تسيطر على العالم ومنها الدولة الفارسية، فكأنه يريد أن يقول لهم تمسكوا أنتم بالإسلام واحكموا أنفسكم وحطموا من كانوا سبباً لخرابكم، وتمسكوا (بأهل البر والتقوى من عترة رسول الله ﷺ)...

وإذ أنه لا يصرح هنا بأسماء عترة الرسول ﷺ، فإنه يعلم حق العلم من هم، ويعلم أن الجميع يعرفونهم حق المعرفة، غير أن نيّة مبيّتة هنا تبرز بوضوح لقلب الموازين وقلب الحقائق بعد أن يتمكن النظام الجديد من بسط نفوذه وسطوته.

فالعباسيون يظهرون أمام المسلمين ـ ومنهم أهل خراسان، الموالون لأهل البيت الحقيقيين ـ كمطالبين بالثأر ومنتصرين لأبناء عمومتهم العلويين، ويريدون من عموم المسلمين ومنهم أهل خراسان طبعاً أن ينضموا إليهم للأخذ بذلك الثأر وإزاحة الأمويين... أما ماذا سيحدث بعد ذلك، فهذا ما لم يريدوا الإفصاح عنه، إذ أن لكل حادث حديث، وعلى الجميع أن يتحدوا هنا للإطاحة بأعداء أهل البيت عليهم السلام، ويتركوا الحديث عمن سيحكم في المستقبل، فبنو العباس أكثر غيرة على أبناء أعمامهم العلويين وأكثر حباً لهم!. وعلى من يدّعي الموالاة لأي من الطرفين أن يترك الخوض في أمثال تلك الأحاديث التي لم يحن وقتها بعد لكي يفوت على العدو المتربص فرصة إثارة المتاعب للجميع.

قال قحطبة مخاطباً أهل خراسان الذين كانوا يستعدون لمواجهة أكبر جيش أموي أتيح لهم أن ينازلوه والذي أثار قلقهم ومخاوفهم:

(يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين، وكانوا ينصرون على عدوّهم بعدلهم وحسن سيرتهم، حتى بدلوا وظلموا، فسخط الله عز وجل عليهم، فانتزع سلطانهم، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم فغلبوهم على بلادهم واستنكحوا نساءهم، واسترقوا أولادهم، فكانوا بذلك يحمون بالعدل، ويوفون بالعهد وينصرون المظلوم، ثم بدلوا وغيّروا وجاروا في الحكم، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله ﷺ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم لتكونوا أشد عقوبة، لأنكم طلبتموهم بالثأر، وقد عهد إلى الإمام أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة فينصركم الله عز وجل عليهم فتهزمونهم وتقتلونهم..)[1].

(١) الطبري ٤/ ٣٢٧.

وواضح من كلام قحطبة أن العباسيين كانوا يدعون أنهم قد توارثوا علماً يشير إلى أنهم سيغلبون ويحكمون وأن ذلك قد وصل إليهم عن طريق الأئمة العلويين وغيرهم. . وأن أمرهم ودولتهم شي محقق، وأن خبر ذلك قد ورد عن رسول الله ﷺ [(١)].

ومهما يكن من أمر فإنهم استمروا برفع شعارات الثأر لأهل البيت والانتصاف لهم من أعدائهم، والدعوة إلى الرضا منهم، فإذا ما حققوا أملهم باستقطاب فئات كبيرة من المسلمين المتعاطفين معهم واستطاعوا حرف الدعوة من مسارها المعلن لتكون في صالحهم، فإنهم عندئذٍ يستطيعون الإفصاح عن كل نواياهم وطموحاتهم في الحكم، وهذا ما فعلوه بعد أن تمكنوا وأصبحت إلى جانبهم فئات من محبي السلطة والقادة والزعماء الطامعين بالجاه والثروة.

لقد ادّعوا في البداية تحيّزهم إلى الخط العلوي ـ خط أهل البيت الحقيقيين الذين خُصّوا بالذكر، بعد أن أصبحوا أطروحة ومثلًا أعلى لدى المسلمين كافة، فالخلافة العباسية (قامت على أساس دعوة كانت تتبنى زعامة الصادق من آل محمد ﷺ، الحركة السلمية التي على أساسها نشأت الخلافة العباسية، كانت تأخذ البيعة للصالح، للإمام الصادق من آل محمد ﷺ، يعني هذه الحركة استغلت عظمة الإسلام، عظمة هذا الاتجاه، وتجمع المسلمون حول هذا الاتجاه، ولم يكن هؤلاء مسلمون شيعة، أكثر هؤلاء لم يكونوا شيعة، لكن كانوا يعرفون أن الاتجاه الصالح، الاتجاه الحقيقي، الاتجاه الصلب، كان يمثله علي بن أبي طالب عليه السلام والواعون من أصحاب علي، والواعون من أبناء علي عليه السلام . . .)[(٢)].

عرف المسلمون من كانوا إلى جانبهم

لقد أدرك المسلمون صواب توجهاتهم ومناهجهم ولمسوا صدق انتمائهم للإسلام وطبيعتهم المضحية في سبيل المسلمين والمتفانية في الإسلام، وعلموا أنهم الوحيدون الجديرون بقيادتهم والوصول بهم إلى شاطىء الأمان في ظل الإسلام وعدالته وقيمه الحقيقية العليا التي حرموا من تذوقها والشعور بها طيلة عهد الحكم الأموي.

---

(١) الطبري ٤/ ٣٤٤.

(٢) أهل البيت ٦٩ - ٧٠.

كانت الحركة العباسية المبطنة، القشة التي قصمت ظهر البعير الأموي، فلم تكن تلك الحركة ضخمة كضخامة ثورة الحسين عليه السلام، ولم يكن فيها من الزخم الرسالي ما يجعلها في عداد الثورات اللاحقة، غير أنها استثمرت كل ذلك وتلاعبت بعواطف المسلمين وأوحت لهم أنها إنما كانت تسير على نهج أهل البيت عليهم السلام وإنها تدعو للرضا منهم وتريد الثأر ممن وترهم ونالهم بالأذى والعدوان، وكانت إحدى نتائج ما قاموا به لرفع الظلم والحيف عن المسلمين، وإن كانت نتيجة غير طبيعية، فما نال المسلمين وأهل البيت عليهم السلام في مقدمتهم، أضعاف ما نالهم قبل ذلك.

نوايا مبيّتة منذ البداية

وتدل رسالة كتبها أبو جعفر المنصور لمحمد بن عبد الله على نوايا العباسيين المبيّتة ضد أهل البيت عليهم السلام وتوجهاتهم لحرف الأمر عنهم، كما تدل على أن المطالبة بدمهم لم تكن سوى أداة مزدوجة أرادوا بها التأثير على الرأي العام الإسلامي وإيهامه بحبهم لآل البيت عليهم السلام ثم للاحتجاج بذلك على من يريد إرجاع الأمر إليهم بعد ذلك، بدعوى أنهم كانوا الآخذين بالثأر. كما تدل على نفس التوجه الأموي المليء بالمغالطات والأكاذيب حولهم.

يقول المنصور: (... ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء في المحافل كالسبي المجلوب إلى الشأم، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم، وسنّينا سلفكم وفضلناه..)[1].

ولنتنبه إلى إشارته الخبيثة حول خروج الحسين المزعوم على ابن مرجانة، وكأن الصراع كان بينهما خاصة، وكأن الحسين لم يثر بوجه الدولة الأموية اليزيدية المنحرفة ويرفضها جملة وتفصيلًا... وهي إشارة أريد بها التهوين من شأن تلك الثورة الكبيرة التي جعلت دول الظلم كلها تحسب حساباً للأمة المسلمة على امتداد السنين، والتي كانت السبب الأول المباشر للإطاحة بدولة الظلم الأولى.

---

(١) الطبري ٤/ ٤٣٣.

١٢ - الثورات، والموجة الفرعونية الثانية أيام العباسيين

إنكشفت نوايا العباسيين منذ الأيام الأولى لاستلامهم الحكم، وأبدوا جهوداً منقطعة النظير للمحافظة على ملكهم، وإبعاد منافسيهم العلويين المقربين من الأمة، ولجأوا إلى أشد الأساليب إرهاباً ودموية لتصفية خصومهم الأمويين أولًا ومنع أي تحرك يرون أنه يشكل خطراً على وجودهم وكيانهم، واشتدت حملتهم بشكل خاص بوجه القيادة الشرعية الحقيقية للمسلمين المتمثلة بأئمة أهل البيت عليهم السلام، وشهد تاريخهم تصفية ستة منهم حيث لوحقوا وحوصروا وقتلوا في أوقات مختلفة.

لقد استنفذوا أغراضهم من التقرب من أهل البيت والعلويين بشكل عام للمكانة التي لهم في نفوس المسلمين ومن دعوتهم المعلنة الأولى للمطالبة بدم الحسين وزيد ويحيى، وكشفوا عن نواياهم وخططهم بعد أن تمكنوا وأحكموا استعداداتهم واستحكاماتهم بوجه كل خصم محتمل أو حقيقي وبعد أن طوّعوا وأخضعوا الأمة ثانية وأجبروها على الاستسلام والوقوع جثة هامدة بين أيديهم، وذهبوا إلى حد قتل أشدّ أعوانهم نصرة لهم وتفانياً من أجلهم.

لقد أسفر الانحراف عن وجهه ثانية ولم ير أقطاب الحكم ما يدعوهم لستر ممارساتهم الشاذة عن الأمة اللهم إلا ما يتظاهرون به أحياناً من استجابة لوعاظ السلاطين وذرف دموع التماسيح أمامهم، وغالباً ما يفعلون ذلك في ساعات الخطر وأوقات الأزمات لكسب ود الأمة وتعاطفها، وقد رويت قصص طريفة عن بكاء المنصور والرشيد، وتفنن بعض الرواة بعرضها بشكل شيق يثير عطف من لا يعرف حقيقة أولئك الحكام المتفرعنين.

محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن

كان محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أول ثائرين بوجه السلطة العباسية التي انتزت على منصب الخلافة بكل الوسائل المتاحة والتي لم تكن شرعية بأي حال من الأحوال.

وكان محمد عند اضطراب أمور الأمويين في مقدمة الثائرين عليهم من بني

هاشم، حتى لقد بايعه إبراهيم والسفاح والمنصور، وكان المنصور أشد المتحمسين لهذه البيعة[1]، إلا أن الأمور عندما استتبت له في النهاية جعل أكبر همه رصد تحركاته وتحركات أخيه، وبث الجواسيس والعيون لهذه الغاية. لقد كان اللص في غاية الخوف ممّن سلبه حقه وتخلّى عن بيعته، وكان متلهفاً على التخلص منه وقتله بأسرع وقت.

إن عهد المكائد الطويل ليفخر بتلك الفترة المزدهرة التي شهدت حكم المنصور وأساليبه في القضاء على خصومه ومناوئيه ومن يحتمل أن يكونوا في صفوفهم. وقد لجأ إلى أشدها ظلامية وعسفاً للقضاء على محمد صاحب النفس الزكية وأخيه إبراهيم بعد أن امتنعا عن الحضور إلى بلاطه لتقديم فروض الطاعة والولاء التي طلبها من الجميع، وربما كان سبب امتناعهما عن الحضور، خوفهما من غدره، وهو صاحب تاريخ معروف فيه.

لقد أقضّ اختفاؤهما مضجعه و (لما استخلف، لم تكن له همّه إلا طلب محمد والمسألة عنه وما يرد، فدعا بني هاشم رجلًا رجلًا، كلهم يخليه فيسألهم عنه، فيقولون: يا أمير المؤمنين، قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافاً. .)[2]. وقد (اشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب، ثم أعطى الرجل منهم البعير، والرجل البعيرين، والرجل الذود، وفرقهم في طلب محمد في ظهر المدينة، فكان الرجل منهم يرد المار كالماء وكالضال، فيفرون عنه ويتجسسون. .)[3].

الجواسيس: حضور دائم

وأرسل المنصور أحد جواسيسه ليستعلم حال محمد وأخيه من أبيهما بعد أن يستدرجه ويدعي أنه أحد مناصري ومحبي ابنه وقد أرسل مبعوثاً من سكان إحدى

---

(١) مقاتل الطالبيين/ أبو الفرج الأصفهاني ص ٢٠٦ و ٢٥٤ وما بعدها (وقد ذكر أن محمداً كان يذكر أن أبا جعفر ممّن بايع له ليلة تشاور بنو هاشم بمكة فيمن يعقدون له الخلافة حين اضطرب أمر بني مراوان. .) الطبري ٤/ ٤٠٢ وابن الأثير ٥/ ١٣٧.

(٢) الطبري ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣ وابن الأثير ٥/ ١٣٨ وما بعدها.

(٣) الطبري ٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣ وابن الأثير ٥/ ١٣٨ وما بعدها.

قرى خراسان لتقديم الدعم والاستعلام عن موعد إعلان الثورة، وقد نجح هذا الجاسوس بمهمته وأصبح أحد المقربين من المنصور[1].

وتذكرنا قصة هذا الجاسوس بقصة جاسوس آخر أرسله ابن زياد ليخترق أصحاب مسلم بن عقيل ويعلم قوته وموعد خروجه ـ وقد نجح أيضاً بمهمته[2].

تهدد المنصور عبد الله بالقتل وشدد عليه لكي يحضر ابنيه اللذين قيل أنهما ذهبا للبصرة وعدن وإلى السند ثم إلى الكوفة ثم إلى المدينة.. وأحضر الجاسوس الذي نجح بالحصول على بعض المعلومات منه وواجهه به ثم حبسه ثلاثة أعوام في محاولة منه للضغط على ولديه لكي يسلما نفسيهما أو يعجلا بإظهار ثورتهما وهو ما سوف يساعده على قمعها بسهولة إذ ستكون الاستعدادات لها ناقصة حتماً ـ وهذه تجربة أموية غنية وقديمة ـ استفاد منها المنصور مع خصميه اللذين كان يحسب لهما كل حساب ويخافهما على عرشه، رغم أنه حاول فيما بعد، وبعد القضاء عليهما التقليل من شأنهما.

ومن الظريف أن نذكر هنا أن فرصة اغتيال المنصور قد أتيحت لهما في مكة إلا أن محمد صاحب النفس الزكية امتنع عن ذلك وقال: لا والله لا أقتله أبداً غيلة حتى أدعوه[3].

مخاوف حقيقية

لم تكن مخاوف المنصور من محمد دون سبب، فمحمد لم يختف منه لمجرد أنه خاف أن يقتله، ولو كان الأمر كذلك لربما تغاضى المنصور عنه ولم يلاحقه تلك الملاحقة العنيدة، غير أنه تيقن من وجود بوادر ثورة كبيرة يقودها محمد، قد تطيح بعرشه في النهاية، فلئن حاول تطويع الأمة وإجبارها على الاستسلام فإنه كان واثقاً أن أمثال صاحب النفس الزكية لن يخضعوا بسهولة وإن الخوف من الموت ربما كان آخر ما يفكرون فيه.

---

(١) الطبري ٤/٤٠٢ - ٤٠٣ وابن الأثير ١٣٨/٥ وما بعدها.

(٢) راجع ما كتبناه عن أحداث الكوفة قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق.

(٣) الطبري ٤/٤٠٦ وابن الأثير ٥/ ١٤٠ وهو موقف مشابه لموقف مسلم بن عقيل عندما أتيحت له فرصة قتل ابن زياد غيلة فامتنع عن ذلك، وقد تحدثنا عن ملابسات ذلك الحادث وأسباب امتناع مسلم..

وقد أرسل أحد صعاليك العرب، صعيليكاً صغيراً على حد تعبيره هو ـ والياً على المدينة وأمره باللجوء إلى أشد الأساليب للقَبض على محمد وإبراهيم، وقد عمد هذا بإيعاز منه إلقاء القبض على كافة أفراد العائلة الحسنية من الذكور وأودعهم السجن في محاولة منه لكسر شوكتهم وتشجيع من يفكر بالوشاية بمحمد وإبراهيم، وقد لجأ إلى شتمهما من على منبر المدينة مما سبب إثارة حفيظة أهلها عليه حيث ردوا عليه بخشونة وحصبوه وألجأوه إلى الفرار.

معاناة الحسنيين في سجن المنصور

كانت معاناة المسجونين ومنهم عبد الله الحسني كبيرة في السجن، وقد عزم المنصور إلى أخذهم معه إلى العاصمة، وهناك احتمال كبير لتعرضهم لمزيد من الأذى على أيدي أعوانه. وقد أراد محمد وإبراهيم في محاولة منهما لتخليص ذويهما من السجن أن يسلما نفسيهما، إلا أن المسجونين رفضوا ذلك وطلبوا منهما المضيّ في مهمتهما إلى النهاية وإكمال الاستعدادات للثورة رغم الجو الخانق والرقابة الشديدة المضروبة عليهما.

فأمر الثورة لم يكن خافياً على بقية أفراد العائلة كما لم يكن خافياً على الإمام الصادق عليه السلام ـ روي عن حسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قوله: (غدوت إلى المسجد، فرأيت بني الحسن يخرج بهم من دار مروان مع أبي الأزهر يراد بهم الربذة، فانصرفت، فأرسل إلي جعفر بن محمد فجئته، فقال: ما وراءك؟ فقلت: رأيت بني الحسن يحرج بهم في محامل. قال: اجلس. فجلست. فدعا غلاماً له، ثم دعا ربه دعاء كثيراً، ثم قال لغلامه: اذهب، فإذا حملوا فأت فأخبرني. فأتاه الرسول، فقال: قد أقبل بهم، فقام جعفر بن محمد، فوقف من وراء ستر شعر يبصر من وراءه ولا يبصره أحد، فطلع بعبد الله بن الحسن في محمل معاد له مسودّ، وجميع أهل بيته كذلك.. فلما نظر إليهم جعفر هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا عبد الله، والله لا يحفظ لله حرمة بعد هؤلاء..) الطبري ٤/ ٤١٥ وابن الأثير ٥/ ١٤٤ ـ والعائلة الحسينية وكان تعاطفه عليه السلام وذرفه الدموع على أولئك الذين نالهم الأذى من أبناء أعمامه يدل على أنه كان يتمنى حقاً نجاح الثورة ضد المنصور، ويدلل على صدق توجهات الثوار وحرصهم على تخليص الأمة من معاول الظلم التي كانت تهدم كل ما بناه الإسلام.

وقد عمد المنصور إلى إحدى حيله المشهورة، حينما قتل محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان المسمى بالديباج ـ وهو أخو بني الحسن لأمهم، أمهم جميعاً فاطمة بنت الحسين بن علي عليه السلام، وأرسل رأسه إلى خراسان مع جماعة أمرهم أن يحلفوا بالله بأن ذلك الرأس هو رأس محمد بن عبد الله بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، يوهمون الناس أنه رأس محمد بن عبد الله بن الحسن صاحب النفس الزكية في محاولة منه لتطويق ثورة أهل خراسان المحتملة مع محمد صاحب النفس الزكية إذا ما أعلن ثورته، ولزرع اليأس في قلوبهم، وقد أدركوا كذبته تلك بعد أن أرسل إليهم رأسه بعد ذلك.

حركة محمد النفس الزكية

لم تكن حركة محمد النفس الزكية لتعلن في غير أوانها دون أن تثير المزيد من المتاعب له ولأصحابه، خصوصاً وأنه في وقت ما ـ أيام الحكم الأموي ـ قد بويع من قبل المنصور نفسه، الذي قيل أنه قد بايعه مرتين، ولا بد أنه محيط ببعض أبعادها وخيوطها، ولا بد أن معرفته بها ستتيح له توجيه ضربات قاتلة لها. وهكذا سعى المنصور سعيه الدؤوب الملح لكي يعلن محمد ثورته قبل أوانها وقبل أن يكمل استعداداته لها، وقد عقد عدة اجتماعات مع بعض مستشاريه وأقاربه لدراسة السبل الكفيلة بوأد الحركة حال ظهورها.

وكان وعي الأمة وتحسسها وقدرتها على كشف الانحراف قد تنامت بعد أن عاشت فترة طويلة في ظل الدولة الأموية وأدركت زيف توجهاتها وادعاءاتها وسياساتها. . لقد بدت تلك الدولة مكشوفة عارية بعد أن ضعف سلطانها، بل قبل ذلك، ولم تعد الأكاذيب والافتراءات والمظاهر الكاذبة تنطلي على الأمة التي لم تصل إلى ذلك الوعي دون معاناة حقيقية. فكان على العباسيين أن يلجأوا إلى أساليب جديدة لتقوية سلطانهم ومراكزهم، وهكذا كان على أقطابهم أن يستنفروا كل مكائدهم ودسائسهم ومكرهم للإطاحة بمركز القوة الكبير، المتمثل بالعلويين ـ والذي كان يبدو أنه على وشك الإطاحة بهم لو أنهم أبدوا أقل قدرٍ من التساهل والسكوت، وكان عليهم أيضاً أن يستنفروا كل طاقات الشر لدى من يرون أنه قد يكون عوناً لهم في مساعيهم وإن أضمروا النية على تصفية كل أولئك الأعوان عند ظهور أقل بادرة خلاف أو شكوى ولو مجرد شك بسيط في ولائهم وخضوعهم. . .

إن وعي الأمة المتزايد والمتنامي في ظل الأوضاع المتغيرة التي جاءت في أعقاب نظام قد مات للتو وولادة نظام جديد، جعلها تدرك أن هذا النظام الجديد لا يختلف عن سابقه وإن اختلف في بعض الشعارات والأهداف المعلنة، وكان ذلك سيسهّل مهمة محمد لمواجهة النظام الفرعوني الجديد.

ويبدو أنه قد أحبك خيوط تلك المهمة وأرسل رسله ومنهم أولاده واخوته لكافة أمصار الدولة الإسلامية لأخذ البيعة له، وإن بدا أن المنصور قد استطاع بجواسيسه وعيونه اختراق التنظيم الواسع الذي أقامه محمد والذي لم يستطع إكماله لأنه أجبر على القيام بثورته قبل موعدها المقرر (لأنه ما زال يُطلب أشد الطلب حتى سقط ابنه فمات وحتى رهقه الطلب)[1] وحتى أن بعض أصحابه لم يحتملوا تأخره وقعوده أكثر من ذلك وقالوا له: (ما تنتظر بالخروج؟ والله ما نجد في هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك. ما يمنعك أن تخرج وحدك؟)[2]...

توجه رسالي رغم الأذى الذي ألحق به

وهكذا خرج بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائة وألقى القبض على أعوان الدولة ومن أُرسل للقبض عليه وقتله، ولم يلجأ إلى الأساليب التي لجأوا إليها واتسم أسلوبه بقدر كبير من الانضباط والالتزام بتعاليم الدين الحنيف رغم أنه استهدف شخصياً بالأذى من قبلهم، وهو أمر يعكس التوجه الرسالي الصحيح لقائد الثورة، محمد ذو النفس الزكية.

وفي خطابه الأول الذي ألقاه في مسجد المدينة بيّن محمد السبب الذي دعاه للثورة بوجه القيادة العباسية المنحرفة، والتي أسفرت عن انحرافها حال قيامها وابتعدت عن الإسلام جملة وتفصيلًا وإن ادّعت كسابقتها أنها هي دولة الإسلام وأن على الجميع أن يدينوا بالطاعة (لولي الأمر) المنحرف الذي بدا أنه لم يشعر بانحرافه في غمرة سعيه المحموم لتثبيت عرشه والتمهيد لملك وراثي فرعوني يمتد في عقبه ونسله.

(١) الطبري ٤/ ٤٢٢ وابن الأثير ٥/ ١٤٧.
(٢) الطبري ٤/ ٤٢٢ وابن الأثير ٥/ ١٤٧.

قال ذو النفس الزكية:

(أما بعد أيها الناس، فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً الله في ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1]، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين. اللهم أنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت، الله فأحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً.

أيها الناس: إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدّة، ولكني اخترتكم لنفسي. والله ما جئت وفي هذه الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة..)[2].

وواضح من كلماته الأخيرة أنه كان يعتقد أنه قد أحكم حلقات حركته وأنه قد استكمل كل شيء، وأن عدوه سيواجه مشاكل في كل أنحاء مملكته.. وهذا ما لم يكن، إذ أن عدوه الماكر استعد لكل شيء[3] وكان يحكم الحلقات التي ضيّق بها على تلك الحركة الكبيرة.. (لما بلغ أبا جعفر خبره بادر إلى الكوفة، وقال: أنا أبو جعفر! استخرجت الثعلب من حجره) الطبري ٤/ ٤٢٩ وكان يقصد أنه عمد إلى أساليب من شأنه أن تلجي محمد إلى الخروج قبل أن يكمل استعداداته). ولو لم يفعل ذلك لكان قد تعرض حقاً للخطر المحتم على يد محمد وأصحابه.

كان أبو جعفر أعرف الناس بأبعاد ثورة محمد وأكثرهم معرفة بخطرها عليه، حتى أنه جزع جزعاً شديداً عندما وصلته أخبارها.

وقد أشار عليه عبد الله بن علي العباسي ـ وكان محبوساً عنده ـ أن يرتحل إلى الكوفة باعتبار أن أهلها من شيعة أهل البيت وأنصارهم وأن يحففها بالمسالح

(١) النازعات ٢٤.

(٢) الطبري ٤/ ٤٢٦ وابن الأثير ٥/ ١٤٨.

(٣) ذُكر أن أبا جعفر كان (يكتب إلى محمد على ألسن قوّاده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه، فكان محمد يقول: لو التقينا مال إلي القواد كلهم) الطبري ٤/ ٤٢٦ وابن الأثير ٥/ ١٤٨ وواضح أن المنصور كان يقصد أمرين أولهما استعجال محمد لإظهار حركته وثانيهما تضليله بشأن قوته وعدد الذين كانوا معه.

ويحاصرها ويمنع الدخول إليها والخروج منها ويقتل كل من يحاول ذلك، كما أشار عليه أن يبذل الأموال الطائلة لشراء الجند والأعوان، وأن يستقدم من هؤلاء أكبر عدد لنصرته.

أمان المنصور

وقد حاول المنصور أن يسترضي محمد ذي النفس الزكية وبعث إليه كتاباً يؤمنه فيه على نفسه وولده وإخوته وأهل بيته ومن اتبعهم ويسوّغه ما أصاب من دم أو مال، وعرض عليه مليون درهم وما سأل من الحوائج وأن ينزله من البلاد حيث شاء، وأن يطلق من في حبسه من أهل بيته وأن يؤمن كل من جاءه وبايعه واتبعه أو دخل معه في شيء من أمره ثم لا يتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً، وأن يوجه إليه من أحب ليأخذ له من الأمان والعهد والميثاق ما يثق به[1].

ولو كان هدف محمد مجرد التخلص من مطاردة المنصور والحصول على أمانه، لكانت تلك فرصة كبيرة يحصل فيها على ذلك بعد أن يتأكد من عهوده ومواثيقه... غير أن أمره لم يكن كذلك.. ولم تكن خطبته في أهل المدينة الذين لم يتخلف أحد من وجوهها إلا نفر[2]، إلا بياناً حقيقياً لأهداف تلك الثورة التي أراد بها إنهاء ذلك الحكم الفرعوني الجديد، ولم تكن ذريعة للحصول على العفو والأمان الشخصي له وأهل بيته.

وقد أجابه إجابة مفحمة على كتابه وعرض عليه من الأمان مثل الذي عرضه هو عليه، مع أنه أشار إلى (أماناته) المزيفة السابقة كالأمان الذي أعطاه لابن هبيرة وعبد الله بن علي وأبي مسلم... وقد غدر بهم جميعاً.

تشخيص محمد لانتهازية العباسيين

ونشير هنا إلى نقطة جديرة بالانتباه وردت في رسالة محمد وفيها يذكر كيفية استغلال العباسيين نقمة الأمة على الأمويين وتسللهم بين صفوف المعارضة الرئيسية المتمثلة بأهل البيت عليهم السلام ثم استحواذهم على كل شيء بعد ذلك.

---

(١) الطبري ٤/ ٤٣٠.
(٢) الطبري ٤/ ٤٢٧.

قال محمد في رسالته: (. . . إن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء. . .)[1].

ومن الغريب أن أبا جعفر كتب إلى محمد كتاباً يحفل بالافتراءات والشتائم والدس على أهل البيت، لم يكن ليكتب مثله حتى أشد ناصبي العداوة لآل البيت من الأمويين وغيرهم.

مع أنه اعترف ضمناً بأن العباسيين كانوا من المطالبين بثأر أهل البيت، ولم يكمل اعترافه بأن سبب ذلك كان للتوصل إلى أغراض مبيّتة لم يعلنوا عنها إلا بعد أن استتبت لهم الأمور.

استولى إبراهيم على البصرة بعد أن استولى أخوه محمد على المدينة والكوفة، وقد ندَب المنصور لمحمد عيسى بن موسى ومحمد بن أبي العباس وضم إليه أربعة آلاف من الجند ثم أرسل أحد مواليه فمنع طريق الشام وخطر وصول الميرة إليه، وكان الجيش الذي أرسله قد ضم عدة من قواد أهل خراسان وجندهم وجهزهم بالخيل والبغال والسلاح والميرة.

وعمد عيسى إلى مراسلة بعض أهل المدينة لتفريقهم عن محمد، وكانت رسائله تتضمن تهديداً قوياً لهم، كما اتسمت بأسلوب القدريين الذي نشأ أيام الأمويين لتعزيز سلطتهم، والذي طالما لجأ إليه معاوية ويزيد من قبل. . قال يزيد لجلاسه حين أتي برأس الحسين عليه السلام: إن الحسين إنما أتي من قبل فقهه، ولم يقرأ «اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» ـ الطبري ٣/ ٣٤٠ وقد تناولنا ما حاول يزيد الإيحاء به من ذكر هذه الآية الكريمة وهو أن الأمر مقدّر من الله وأن لا حق لأحد بالتدخل فيه. وكأن الملك قد أنزل له هو خاصة وكأنه سيدوم له إلى الأبد. وإن من يريد منازعته إياه فكأنما ينازع الله سلطانه. وهذا هو منطق الطغاة دائماً. . وقد جاء في إحداها (. . إن محمداً تعاطى ما ليس يعطيه الله وتناول ما لم يؤته الله. قال عز وجل في كتابه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن

---

(١) الطبري ٤/ ٤٣١ وابن الأثير ٥/ ١٥٢.

تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، فعجل التخلص وأقل التربص، وادع من أطاعك من قومك إلى الخروج معك. .) [2].

إجتمع مع محمد حوالي مائة ألف، وقد عمد إلى حفر الخندق الذي كان رسول الله ﷺ قد حفره لصد مشركي مكة والأحزاب. . ولأن محمداً لم يلجأ إلى ما يلجأ إليه طلاب الملك العادين وكان يتحرى الدقة في تصرفاته، وقد سمح لمن أراد من أصحابه تركه فعل ذلك وأحلّهم من بيعته، فإن أغلب هؤلاء قد تركوه حتى بقي في شرذمة ليست بالكثيرة[3] وبهذه الشرذمة القليلة التي لم تزد على عدة أهل بدر يوم لقوا المشركين وهي ثلاثمائة ونيف واجه جيش الدولة الذي تكاثر وأصبح جيشه لا يقاس به. وقد قيل أنه بلغ أربعين ألفاً. . .

عروض مغرية للتخلي عن الثورة

قدمت إليه عروض مغرية لكي يتخلى عن ثورته إلا أنه أصر على المضي إلى النهاية، وفي المعركة قتل بيده يومئذٍ سبعين رجلًا.

كان معه بعض أولاد الحسين عليه السلام إضافة لبني الحسن الذين بقوا في المدينة ولم يقض عليهم المنصور وكان شعارهم شعار النبي ﷺ يوم حنين: أحد أحد.

وقد دار قتال ضار بين الفريقين غير المتكافئين أبلى فيه أصحاب محمد بلاء حميداً. وكانت مشاهد عديدة جديرة بالتأمل والدراسة، مشاهد بطولة فريدة، لم تعرف الأمن الرساليين الحقيقيين ومشاهد للخيانة والجبن شابهت تلك التي شهدتها المدينة أيام واقعة الحرة حينما دلّ آل مروان أصحاب يزيد على مداخل المدينة، ففي هذه المرة (فتح بنو أبي عمرو الغفاريون للمسودة طريقاً في بني غفار، فدخلوا منه حيث جاءوا من وراء أصحاب محمد)[4].

وقد قتل محمد غدراً على يد أحد قادة المنصور، حُميد بن قحطبة، الذي لم يجرأ على منازلته، فأقدم على اغتياله.

---

(١) آل عمران ٢٦.

(٢) الطبري ٤/٤٣٨.

(٣) الطبري ٤/٤٣٩ وابن الأثير ٥/١٥٩.

(٤) الطبري ٤/٤٤٥ وابن الأثير ٥/١٦٠.

الغدر ثم الغدر

وقد حدّث من شهد واقعة قتل محمد، قال: (رأيت محمداً يومئذٍ، وإن أشبه ما خلق الله به لما ذكر عن حمزة بن عبد المطلب، يهذّ الناس بسيفه هذّاً، ما يقاربه أحد إلا قتله، ومعه سيف، لا والله ما يليق شيئاً، حتى رماه إنسان بسهم، كأني أنظر إليه، أحمر أزرق، ثم دهمتنا الخيل، فوقف إلى ناحية جدار، فتحاماه الناس، فوجد الموت، فتحامل على سيفه فكسره، قال: فسمعت جدي يقول: كان معه سيف رسول الله ﷺ ذو الفقار)[1].

وحتى بعيد قتله لم يستطع أعداؤه أن يقولوا فيه كلمة سوء واحدة حتى أنهم مدحوه، وحتى عدوه الألد المنصور مدحه، ووصم شخصاً أخبره أنه فرّ بالكذب، وإن أضاف نحن أهل البيت لا نفر! ويريد بذلك أن يشهد لنفسه أيضاً بالشجاعة... (كثروا محمداً وألحوا في القتال حتى قتل محمد في النصف من شهر رمضان سنة خمسة وأربعين ومائة.. وكان مكث محمد بن عبد الله من حين ظهر إلى أن قتل شهرين وسبعة عشر يوماً..)[2].

المنصور: مكر ونكر ودهاء

كان المنصور قد عزم على بناء بغداد في السنة التي خرج فيها محمد وإبراهيم، وقد توقف عن بنائها عندما وصلته أخبار الثورة في المدينة وذهب إلى الكوفة يدير المعركة بنفسه، ويستعد لها بمواهب الشر التي جبل عليها، فقد كان (حشو ثياب هذا العباسي لمكر ونكر ودهاء)[3] على حد تعبير أحد معاصريه، فاستنفر كل أعوانه وجواسيسه لكشف تحركاتهما خصوصاً بعد أن ترك إبراهيم مكة وقدم العراق، ودخل البصرة بعد أن مر بالموصل والأنبار وبغداد والمدائن والنيل وواسط وبعد معاناة ومخاطرات تعرض فيها لخطر الوقوع بيد أبي جعفر.

أحصى ديوان إبراهيم في البصرة أربعة آلاف وشهر أمره، وكان ماضياً في إكمال استعداداته عندما فوجىء بإعلان محمد ثورته في المدينة، وهو الأمر الذي أقلقه لأنه لم يكن مستعداً بعد للمواجهة النهائية مع الدولة التي تتفوق عليه

---

(١) الطبري ٤/٤٤٦.

(٢) الطبري ٤/٤٥٤.

(٣) الطبري ٤/٤٦١ وابن الأثير ٥/١٦٨ وما بعدها.

كثيراً[1] . . . وقد بادر أبو جعفر بإرسال الجند للبصرة حالًا . . وقد اختارهم من جند الشام لعداوتهم القديمة لأهل العراق، وقد قصد بذلك أن يروّع الناس ويكسر معنوياتهم، كما بادر إلى حظر التجول ومنعه في الكوفة وقتل عدداً من أهلها اتهمتهم بموالاة إبراهيم وضيّق الخناق على الناس فيها ليمنعهم من الالتحاق به وسد الطرق المؤدية للبصرة.

كان العراق كله ـ فيما يبدو ـ موالياً لإبراهيم، وكان أهله مستعدين للانضمام إليه عند أول إشارة منه، وكان حتماً سينتصر بهم، لو لم يعبىء أبو جعفر أعوانه وقواته ويستنفر كل إمكاناته لمحاربته.

الإستيلاء على البصرة

استولى إبراهيم على البصرة وانتصر على القوات العباسية التي كانت هناك والتي أرسلت لمقاومته ودارت عدة معارك كانت الغلبة فيها لأصحابه وقد امتدت حركته لتشمل الأهواز وفارس وواسط حيث أصبحت كلها في سلطانه[2] وخرج معه (جماعة من الفقهاء وأهل العلم)[3] . . .

مواجهات حتى رحيل إبراهيم إلى باخمرى

وأرسل أبو جعفر جيشاً ضخماً إلى واسط قيل أنه كان يضم عشرين ألف مقاتل وكانت بينهم وبين أصحاب إبراهيم وقعات عديدة لم تنته إلا بعد أن شخص إبراهيم إلى باخمرى.

(ولم يزل إبراهيم مقيماً بالبصرة بعد ظهوره بها، يفرق العمال في النواحي ويوجّه الجيوش إلى البلدان، حتى أتاه نعي أخيه محمد، وأخبر الناس بقتل محمد، فازدادوا في قتال أبي جعفر بصيرة)[4] . . . وكان أبو جعفر في غاية الحرج وكان

---

(١) ووردت رواية أخرى ذكرت: (لما ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن وغلب على مكة والمدينة، وسلّم عليه بالخلافة وجه أخاه إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة فدخلها في أول يوم من شهر رمضان سنة خمس وأربعين ومائة فغلب عليها) الطبري ٤/ ٤٦٨.

(٢) الطبري ٤/ ٤٦٩.

(٣) الطبري ٤/ ٤٦٨.

(٤) الطبري ٤/ ٤٧١.

عرشه في مهبّ الريح عرضة للإنهيار إذ لم يبق في معسكره إلا الفارجل، ما هم إلا سودان وناس يسير، وكان يأمر بالحطب فيحزم ثم يوقد بالليل، فيراه الرائي فيحسب أن هناك ناساً، وما هي إلا نار تضرم، وليس عندها أحد)[1] وقد استدعى قائده في المدينة بعد انتهاء المعركة هناك وقتل محمد وضمه إلى قواته التي كانت تقاوم إبراهيم.

عرش العباسيين معرض للإنهيار

كان ملك العباسيين معرضاً للإنهيار والسقوط وكان أبو جعفر يقاوم تلك الريح التي كانت تهب عليه من البصرة وواسط والأهواز وفارس والمدائن والسواد، بضراوة وعنف وقد تتابعت عليه الفتوق والخروق والعساكر المحيطة به مائة وألف سيف كامنة له بالكوفة بإزاء عسكره الضعيف ينتظرون به صيحة واحدة فيثبون[2]...

فالمعركة كانت معركة بقاء ووجود، إما أن يحصل أبو جعفر على كل شيء أو يفقد كل شيء ويفقد حياته أيضاً، فجيش إبراهيم أصبح قوياً وديوانه أحصى مائة ألف..

كان هوى البصرة والكوفة كليهما مع إبراهيم، وكان هو يستولي على البصرة ويقيم فيها، أما الكوفة فكان يقيم فيها أبو جعفر، الذي لم يسر إليه بنفسه وأرسل إليه بعض قواده وبقي هو فيها يراقب تحركات أهلها ليقمع أقل تحرك مشبوه ضدّه. ولو أنه سار في الجيش لمقاومة إبراهيم لانقلبت عليه الكوفة وطوقته من خلفه بعد مسيره، وهذا ما أدركه.. أما إبراهيم، فلو أنه أقام بالبصرة وأرسل جيشاً لمواجهة جيش أبي جعفر - وهذا ما اقترحه عليه بعض قادته - لأتيحت له فرصة أكبر للنصر، لأن مسيره ترك البصرة خلواً من القيادة الرئيسية المتمثلة به، وانهزامه أمام جيوش الدولة أو مقتله - إذا ما حصل ذلك - سيقطع الأمل نهائياً بالحصول على النصر ثانية، قال له بعض قواده من أهل البصرة: (أصلحك الله، إنك قد ظهرت على البصرة والأهواز وفارس وواسط، فأقم مكانك، ووجّه الأجناد، فإن هزم لك جند أمددتهم بجند، وإن هزم لك قائد أمددته بقائد، فخيف مكانك واتقاك عدوك وجبيت الأموال، وثبتت

(١) الطبري ٤/ ٤٧١.

(٢) الطبري ٤/ ٤٧٣.

وطأتك..)[1]... أما الكوفيون فقد كانوا يرون ضرورة أن يكون هو على رأس الجيش الذاهب للكوفة، لأن من شأن ذلك أن يقوي معنويات أهلها ويدفعهم للالتحاق به، قالوا له: (إن بالكوفة رجالًا لو قد رأوك ماتوا دونك، وإلا يروك تقعد بهم أسباب شتى فلا يأتونك، فلم يزالوا به حتى شخص..)[2].

ويبدو أنه كان غير مرتاح لذلك إلا أنه قد أراد أن يسترضيهم.. وقد أتيحت له فرصة بيات أصحاب أبي جعفر ليلًا ومهاجمتهم وهم لا يشعرون إلا أنه رفض ذلك مفضلًا المواجهة العلنية المكشوفة.

الحريجة في الدين في مواجهة الغدر والمكر

كان إبراهيم يتحرج مما لا يتحرج منه أمثال أبي جعفر، وكان منطقه الرسالي وحريجته في الدين تجعله في موقف يتيح لعدوه الماكر الذي لا يتورع عن اللجوء إلى أي أسلوب يراه مناسباً لدعم مركزه وقوته، للتغلب عليه. مع أن إبراهيم كان أكثر جنداً وفي موقف قوي.

ولعل تلك الأسباب جعلت بعض أنصاره وقادته يتمادون في فرض آرائهم ووجهات نظرهم التي غالباً ما تكون غير صائبة مما جعل عدوه يتفوق عليه في النهاية...

رفضوا أن يرسلوا رسولًا منهم للكوفة لكي يدعو إلى إبراهيم سراً ثم يجهر بعد أن يقوى أمره، بحجة أن ذلك يجعل المنصور يرسل خيلًا فيطأ البريء والنطِف والصغير والكبير...!

ورفضوا أن يخندقوا على أنفسهم بحجة أنهم أقوى منهم وظاهرون عليهم..!

ورفضوا الذهاب إلى الكوفة حيث مقر المنصور، بحجة أنه في أيديهم متى أرادوه..!

ورفضوا أن يصفوا جيشهم كراديس، فإن انهزم كردوس ثبت كردوس فأبوا إلا القتال صفاً.

---

(١) الطبري ٤/ ٤٧٣.

(٢) الطبري ٤/ ٤٧٣.

أما إبراهيم نفسه فقد رفض ثانية أن يبيّت أحدُ قادته أبا جعفر قائلًا إنه يكره القتل[١]. . . ولو كان أبو جعفر مكانه لما تورع عن أية وسيلة تتيح له التغلب على خصمه، فمن يريد الملك ينبغي عليه أن لا يكره القتل ولا يتجنب الحيلة والمكر والغدر.

في باخمرى

وفي باخمرى، وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة - إلتقى جيش إبراهيم وجيش أبي جعفر بقيادة عيسى بن موسى، وفي الجولة الأولى من المعركة، إنهزم جيش العباسيين ولم يبق مع عيسى سوى عدد قليل من أصحابه. وقد عاد المنهزمون من وراء ظهر جيش إبراهيم بعد أن لم يستطيعوا عبور نهر عميق اعترضهم، فكر أصحاب إبراهيم عليهم، وحسب من كانوا بمواجهتهم أنهم فروا من القتال فعادوا لقتالهم ثانية وارتفعت معنوياتهم. . . وقد قيل أن أعداء لإبراهيم قدماء من آل طلحة، وهم أعداء ألداء لأهل البيت عليهم السلام، قد شقوا الماء عليهم، فأصبح أهل عسكره مرتطمين في الماء، فانهزموا أمام عدوهم الذي بدأ يستعيد قواه ويستجمع شمله ولم يبق مع إبراهيم سوى عدد قليل قيل إنهم كانوا خمسمائة وقيل أربعمائة وقيل إنهم كانوا سبعين. . وقد اشتد القتال (حتى قتل الفريقان بعضهم بعضاً. . وجعلوا يقتتلون يومهم ذلك، إلى أن جاء سهم غادر لا يُدرى من رمى به، فوقع في حلق إبراهيم بن عبد الله فنحره، فتنحى عن موقفه، فقال: أنزلوني فأنزلوه عن مركبه، وهو يقول: « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » أردنا أمراً وأراد الله غيره، فأنزل إلى الأرض وهو مثخن، واجتمع عليه أصحابه وخاصته يحمونه ويقاتلون دونه. .)[٢]، فشد عليهم أصحاب عيسى بن موسى فقاتلوهم أشد القتال حتى أفرجوهم عن إبراهيم، وخلصوا إليه فحزّوا رأسه. . ومكث منذ خرج إلى أن قتل ثلاثة أشهر إلا خمسة أيام[٣]. . .

---

(١) تحدثنا في هذا الكتاب عن الأسباب التي تدعو الثوار الرساليين للامتناع عن الغدر وقتل أعدائهم غيلة، عند استعراض أحداث الكوفة بعد دخول مسلم بن عقيل إليها وقبل توجه الحسين عليه السلام إلى العراق.

(٢) الطبري ٤/ ٤٧٦ وابن الأثير ٥/ ١٧٤ وما بعدها.

(٣) الطبري ٤/ ٤٧٦ وابن الأثير ٥/ ١٧٤ وما بعدها.

غلبوا عدوهم ورجعوا فظنهم انهزموا!

وقد قيل: (لما انهزم أصحاب عيسى تبعتهم رايات إبراهيم في آثارهم، فنادى منادي إبراهيم: ألا لا تتبعوا مدبراً، فكرّت الرايات راجعة، ورآها أصحاب عيسى فخالوهم انهزموا، فكرّوا في آثارهم فكانت الهزيمة)[1]...

إنقلبت موازين تلك المعركة في طرفة عين، فبينما كان بعض المنهزمين من جنود الدولة يصلون الكوفة وكان المنصور يعد عدّته للهرب منها، أنهى ذلك السهم العائر المعركة بعد أن أصاب من إبراهيم مقتلاً، وانتهت تلك الثورة الكبيرة التي كادت أن تطيح بالعرش العباسي الناشىء.

وكانت حصة البصرة من عقوبة (المنصور) لا تقل عن عقوبة المدينة، حتى أنه أمر عامله عليها أن يفسد ثمرها، وعزله عندما تلكأ في ذلك، وولّى من قدم إليها فعاث فيها فساداً.

الثورة الحسنية استمدت روحها من الثورة الحسينية

كانت ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم تستمد من ثورة الحسين الأولى بوجه الظلم والانحراف، روحاً قوية شجاعة ترفض السكوت والمساومة، رغم أن دولة الظلم الأولى تلك قد اندحرت وحلت محلها دولة ظلم أخرى ترفع شعارات مغايرة إلا أنها ظلت امتداداً لها وظلت تعزز ممارساتها التعسفية الجائرة.. وبدت خطورتها من خلال الشعارات البراقة المضللة التي رفعتها والتي من شأنها أن تخدع جماهير المسلمين بحقيقتها، لولا التصدي الحازم منذ البداية لها من قبل العصبة الشجاعة من آل البيت ومن وقف معهم من جماهير المسلمين، ولم يكن هؤلاء بالقليل، ولم يكونوا ليثوروا دون بصيرة أو وعي ودون أن يجدوا الدوافع الحقيقية لذلك.

إن أعداداً كبيرة من آل الحسن وآل الحسين عليهم السلام، والتي اتخذت لها مكانة مرموقة بين المسلمين بفضل انتمائهم للرسول ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وقرابتهم من بقية أئمة أهل البيت الآخرين، قد انخرطت في حملة مقاومة مستمرة وقيادة ثورة

---

(١) الطبري ٤/٤٧٦ وابن الأثير ٥/ ١٧٤ وما بعدها.

دائمة لمقاومة الظلم والبغي والعدوان، مهما كان شكل الظالم ومهما كانت أشكال البراقع والأغطية التي حاول بها ستر عيوبه وجرائمه واعتداءاته على الأمة المسلمة، وإذ اصطف هؤلاء سوية مع المسلمين الواعين من القرّاء والفقهاء والعلماء من ذوي البصيرة والسداد من أهل المدينة والكوفة والبصرة وغيرها، وكانوا قادة للثورات المضادة لكل توجه فرعوني استبدادي، فقد دل ذلك على عمق شعورهم الصادق بالمسؤولية الرسالية تجاه الأمة ودل على أحقيّتهم وصواب توجههم الثوري المضاد لكل فرعون تنغل به الأيام ويتطاول على حكم الله وشريعته.

استغلوا الاسم لعزل الشيعة عن بقية المسلمين

ولئن قيل في فترة ما ـ للتقليل من شأن السائرين بركاب الثورة المضادة للظلم ـ إنهم من الشيعة، ولم يُقصد بذلك إلا عزلهم عن بقية المسلمين واعتبار أن لهم قضايا وطموحات خاصة تختلف عن قضايا بقية المسلمين، فإن سعة أعدادهم وتوزعهم في أقطار شاسعة من البلاد الإسلامية وانضمام فئات معروفة بأنها ليست من الشيعة إلى صفوفهم، جعلت بعض المؤرخين السائرين في ركان السلطان وبعض مزوري التاريخ وحاملي أطروحات الدولة ووعاظها والسائرين بركابها، يتخبطون مرة أخرى فيطلقون عليهم لقب الزيدية مرة، ويخترعون لهم أسماء أخرى منسوبة لأشخاص وفرق ادعوا أنها من الشيعة أيضاً، بل حتى لقد ذهبوا إلى حد إلصاق مختلف التهم بمذهب أهل البيت عليهم السلام الذي تبلور فيما بعد في عهد الإمام الصادق عليه السلام وسمي بالمذهب الجعفري تمييزاً له عن المذاهب الأخرى التي ظهرت في ذلك الحين. . . ولئن كان ذلك المذهب يمثل التوجه الإسلامي الأول الصحيح الذي أرسى دعائمه رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام، والذي يمثل الصيغة الحية الوحيدة التي من شأنها أن تحمي الإسلام من الضياع والاندثار وتحفظه من التلاعب والتزوير. . فإن أمراً واحداً ينبغي أن يحملنا على الوثوق به والاعتماد عليه، وهو حَمَلتُه من أئمة أهل البيت عليهم السلام الثقاة العلماء الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والاستقامة والعدالة. . . وكان من شأن حملهم لعلوم الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن أن تجعلنا على ثقة بأن أيدٍ أمينة قد أوصلته إلينا سالماً من كل تزوير أو تحريف، إضافة إلى الأمور الأخرى التي تجعلنا مطمئنين إلى صحة توجهاته العامة وتطابقها مع القرآن والسيرة والعقل، وقدرته عل البقاء والديمومة ومواجهة كل مشاكل الحياة ومتغيراتها.

الزيديّة: خط موال لأهل البيت عليهم السلام منذ البداية

ولئن قيل عن أولئك الذين وقفوا مع زيد عليه السلام وابنه يحيى الحسيّنَيين ومحمد وأخيه إبراهيم الحسنيّين، بأنهم من الزيدية، فإنه ينبغي أن لا يتبادر إلى أذهاننا ان فرقة جديرة من الشيعة قد ظهرت، وأن هذه الفرقة قد أوجدها زيد نفسه وأنه قد عزل نفسه عن بقية السائرين على خط أهل البيت عليهم السلام وأسماهم (الرافضة) كما راح بعض المؤرخين يذكرون في كتبهم، رغم أن هذه الفرقة كان مجرد خط من الخطوط الموالية لأهل البيت والسائرة على خطهم، ورغم اشتهارها بعد ذلك ببعض التعاليم الأخرى المغايرة للمذهب الجعفري في بعض الفروع والجزئيات. فقد رأوا بعض من رغبوا في التقليل من شأن الحركات المناوئة للعباسيين بوجه خاص (وصمهم) بتلك التسمية في محاولة أخرى لعزلهم عن بقية الجماهير، واعتبارهم كجهة من الجهات المعروفة بالنكد والمشاكسة وحب الخلاف والثورة كالخوارج، وأن لهم توجهاتهم الخاصة التي تختلف عن توجهات عموم المسلمين.

التوجه الزيدي الثوري لم يكن مذهباً مستقلًا

التوجه الزيدي في البداية لم يكن يعني مذهباً يستمد أسسه من أبي حنيفة أو غيره، فأبو حنيفة لم يكن يوجه زيداً أو يقوده وإنما كان أحد مؤيديه قبل أن يلتحق بركب السلطان، ولئن وجد ذلك السلطان العباسي مصلحة بإيجاد ثغرة بين مؤيدي زيد الحقيقيين وأولئك الذين تخلوا عنه، وبين أولئك الذين أصروا على تبني مواقف أهل البيت وتشريعات الإسلام الحقيقية وأولئك الذين وقفوا خلف أئمة مجتهدين أربعة، ثم عمل على إغلاق باب الاجتهاد إلى الأبد. وكأن الأمة لم يعد فيها من هو قادر على التفكير والدراسة واستنباط الحكم الشرعي، ثم راح هو نفسه يؤيد هذا المذهب أو ذاك في محاولة منه لضربها جميعاً وإيجاد نوع من الموازنة بينها يتيح له التفوق عليها، فإنه لم يكن ليفعل ذلك حرصاً منه على مصالح المسلمين ولحمايتهم من الأخطار والفرقة، وإنما لحماية مصالحه وامتيازاته وسلطانه هو...

التوجه الزيدي كان يعني التوجه المناهض للظلم

التوجه الزيدي كان يعني التوجه المناهض للظلم والانحراف الثائر بوجهه..
ولئن نُسبَ من أراد نصر الحسين عليه السلام في ثورته والأخذ بثأره بعد وفاته ومن سار على خطه إلى التشيع باعتبار أن الشيعة لها مفاهيمها وخصوصياتها المختلفة عن

توجهات عموم المسلمين! فإن هذا الغمز الخبيث الذي يراد من ورائه عزل هذه الطليعة الرسالية المستعدة للتضحية والثورة عن الأمة وإقناع هذه الأمة بأن هذه (فئة) ليست منها، فإن نسبة من أراد نصر الثوار من آل البيت إلى (الزيدية) أريد منه التقليل من شأن الثائرين بوجه دول الظلم باعتبار أن هؤلاء الزيدية مجرد أتباع أحد المذاهب الشيعية العديدة والكثيرة. . . ! مع أن الإسلام واحد، ولا يصح تقويم صحة أحد المذاهب بكثرة المنتمين إليه، كما لا يصح تصنيف المسلمين على أساس اجتهاداتهم في بعض الأمور المتعلقة بالأداءات الطقوسية وبعض المسائل المتعلقة بفروع الدين.

ولئن وجد العازفون على نغمة الخلاف والمذاهب فرصة كبيرة في لفت أنظار المسلمين عن قضاياهم الحقيقية وأتاح ذلك لهم فرصة للتغلب عليهم والوقوف على رأس السلطة دائماً، فإن على المخدوعين والمتضررين من أبناء الأمة أن يبحثوا عن الدوافع الحقيقية التي تجعل من دولة الظلم المنحرفة أصلًا تدعي تبنّيها لهذا المذهب أو ذلك وحبها له واستعدادها للوقوف إلى جانبه في (معاركه) وخلافاته مع المذاهب الأخرى خصوصاً مع المذهب (الشيعي)، ولا تقل الجعفري أو الزيدي الموالي للثائرين من آل محمد عليهم السلام فتعمل على تحطيم أو تحجيم كل توجه من هذا القبيل، قد يلفت نظر الناس إلى ممارسات هذه الدولة البعيدة عن الإسلام جملة وتفصيلًا.

حمل زيد ويحيى ومحمد وإبراهيم وغيرهم على امتداد الأيام، أيام الأمويين أو العباسيين أو بعدهم أرواح أولئك الرجال الذين وقفوا مع الحسين عليه السلام . . . وقتلوا دونه مستبسلين فرحين. . . ولئن كانت شرارة تلك الثورة الأولى أصبحت غير قابلة للانطفاء أو الاندثار، فإن الحملة المضادة لها ازدادت ضراوة وتعددت أساليب دولة الظلم الفرعونية لحجبها عن أنظار الأمة بمختلف الحجج والذرائع، إذ كيف لا يعمد أي فرعون من الفراعنة المتأخرين على محاربة تلك الثورة المعنادة لفرعون مشابه لهم، أقام حكمه على نفس الأسس التي أقاموها هم وأقاموا عليها (شرعيتهم) ووجودهم ودولهم.

غير أن ما يريد فرعون طمسه وإبعاد الأنظار عنه، لا يمكن أن يظل كذلك، ولا يمكن أن لا يلتفت الناس دائماً إلى الدوافع التي جعلت أشرف الناس وأكثرهم وعياً وعلماً يقدمون على التضحية بكل شيء، رغم أن الفرص متاحة أمامهم للحصول على مختلف المكاسب والامتيازات في ظل أية دولة لو كانوا يريدون ذلك.

إن ثورات عديدة حدثت أيام العباسيين، وإذ أننا لا نؤرخ لها في هذه الدراسة

المحددة، إلا أننا نلاحظ فيها روح الحسين ونور الحسين وملامح أصحاب الحسين... وما كان لدولة الظلم أن تتمادى إلى أبعد حد وأن لا تدعي انتماءها للإسلام وحبها له واستعدادها للدفاع عنه في ظل الأوضاع التي يتواجد فيها الثوار الرافضين للظلم الموالين للإسلام.

استعدادات للدجل والخديعة

وإذا ما اطلعنا على خطبة ألقاها المنصور في أهل خراسان في محاولة منه لاستمالتهم وكسب ودّهم، أدركنا أية استعدادت كبيرة للدجل والتزوير كان يقدم عليها أولئك الذين يمهدون لملك فرعوني عقيم وأدركنا دوافع (المؤرخين) الآخرين الذي يسيرون في ركابهم لقلب الحقائق وتشويهها، وعرض أكاذيبهم وتلفيقاتهم على أنها هي الحقائق والوقائع الصحيحة...

إن المنصور يعرض نفسه أمام أهل خراسان كإنسان مظلوم معتدى عليه، من قبل أولئك الذين وجّه إليهم أشد سهامه وسيوفه ومن قبل أولئك الذين نالهم بظلمه واستهدفهم بالشر والعدوان واستهدفتهم عائلته من بعده طيلة عشرات السنين، وهم أهل البيت عليهم السلام، ولم يكتف بتوجيه الطعون والنقد الكاذب والافتراء المتعمد لمن عاصروه وكان يحتمل أن يطيحوا بعرشه وحسب وإنما استعرض تاريخ الأئمة السابقين ابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام، وكأن حياتهم سلسلة من الأخطاء والاندفاعات العفوية غير المدروسة.. وهذا النقد، إن كان يوجه من إنسان حسِبَ نفسه من هذه العائلة وادعى انتماءه إليها، فأن فعلها المدمر وتأثيرها السلبي على من قد يخدع بظواهر الأمور وشهادة (الأهل) التي لا بد أن تكون (صادقة وبريئة)، سيمتد ليضلل أجيال عديدة من المسلمين، خصوصاً وإن فراعنة آخرين سيجدون فيها مادة دسمة لتعزيز أطروحاتهم بخصوص أهل البيت، وأحقيتهم (هم) بالحكم باعتبارهم ممثلين لسلطان الله في الأرض يسوسونهم بتوفيقه وتسديده! وحسب، لا بمنهجه ودستوره وقوانينه، وإنهم يمثلون مشيئته وإرادته[1]... وكأن وحياً مباشراً من الله ينزل عليهم خاصة ويوجههم ويخاطبهم... وكأنهم قد ألهموا العلم وألفهم وإلا فكيف يوفق الله

(١) من الطريف أن نرى هنا أن المنصور قد أعلن عن انحرافه صراحة أمام أهل بغداد، وإن غلّف ذلك بأسلوب اعتمد الدجل والتزوير وذكر الله، في محاولة منه لخداعهم وتهديدهم والإيحاء إليهم بأنه هو المصدر الوحيد للقوة والسلطان ما دام الله قد وفقه وسدده وألهمه.. قال لهم=

عبد الخليفة! إذا لم يكن يعمل بكتابه وشريعته.

إن فرعون أكثر وعياً وذكاء هنا من سابقه الذي قال لقومه صراحة ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فهو يقول: أنا عبد الله، غير أنه اختصني بكل شيء دونكم وتنازل لي عن سلطانه وقوته، وهذه مشيئته وليس لكم الحق في مناقشتها، وإلا فأني أنا الذي سيقدم على معاقبة من يفعل ذلك.

الخط الأموي والخط العباسي متلازمان متوازيان

ولو أن معاوية استمع لخطبة المنصور تلك لنام محبوراً قرير العين، فقد جاء من يكمل مهمته ويسير على منهجه في التزوير والتضليل وقلب الحقائق والكيد للإسلام والمسلمين...

قال المنصور لأهل خراسان بعيد أخذ عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته:

(يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منّا، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير؛ فقام فيها علي بن أبي طالب عليه السلام فتلطّخ وحكّم عليه الحكمين، فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه[1]! ثم قام من

=يوم عرفة: (.. إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده. وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه. قد جعلني الله عليه قفلًا، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ المائدة ٣ أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، إنه سميع مجيب) الطبري ٤/ ٥٣٣ وواضح من إشارته للآية الشريفة ونزولها أنه يريد تضليلهم بشأن نزولها بعد بيعة الغدير وولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ويجعل نفسه في صف أولئك الذين نصبوا العداوة له وأنكروا كل فضائله.. ولا تخفى دوافعه لذلك والتي أراد بها توهين وإضعاف أهل البيت عليهم السلام والخط الموالي لهم.

بعده الحسن بن علي، فوالله ما كان فيها برجل، قد عرضت عليه الأموال فقبلها، فدسّ إليه معاوية، إني أجعلك ولي عهدي من بعدي، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه، فأقبل على النساء يتزوج كل يوم واحدة فيطلقها غداً، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه[1].. ثم قام من بعده الحسين بن علي، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المدرة السوداء - وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هي حرب فأحاربها، ولا سلم فأسالمها، فرّق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل[2]! ثم قام من بعده زيد بن علي، فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه وأظهروه، أسلموه! وقد كان أتى محمد بن علي، فناشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة، وقال له: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب في الكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب، وناشده عمي داوود بن علي وحذّره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة[3]..

ثم وثب علينا بنو أمية، فأماتوا شرفنا، وأذهبوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها، وما كان لهم ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، ومرة بالشراة، حتى أبتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً، فأحيا شرفنا، وعزّنا بكم أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر

(١) لم نسمع ذلك إلا من المنصور الدوانيقي، فأمير المؤمنين عليه السلام قد قتله أشقى الخلق بشهادة رسول الله صلى الله عليه وآله، عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، وحادثة مقتله معروفة قد تطرقت لها كل كتب التاريخ.

(٢) تطرقنا في هذه الدراسة إلى أسباب صلح الحسن مع معاوية أما الزعم بتزوجه النساء الكثيرات فلا داعي للرد عليه لأنه من مفتريات الأمويين والعباسيين على السواء.

(٣) ومن الواضح أن المنصور يردد هنا المزاعم الأموية والمعادية لأهل البيت ومنها (انخداع) الحسين عليه السلام بأهل الكوفة وأنه أخطأ بخروجه وعرض نفسه للقتل دون مبرر..! كما أن المنصور هنا يهدد الكوفة ويجعلها أحد الأهداف المقصودة بظلمه كما فعل الأمويين...

(٤) استعرضنا في هذا الفصل أسباب ثورة زيد بن علي عليه السلام، ومن الواضح أن العباسيين حاولوا ثنيه عن ثورته لأن نجاحه كان يعني القضاء على طموحاتهم بتسلمه السلطة، ذلك الأمر الذي كانوا يخططون له قبل ثورة زيد بزمن طويل، وقد لجأوا إلى أساليب مشابهة لأساليب الأمويين أنفسهم لمواجهتهم والقضاء عليهم وهي الأساليب التي رأوا أنها الأمثل والأصح.

حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبيّنا ﷺ فقرّ الحق مقره، وأظهر مناده، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

فلما استقرت الأمور فينا على قرارها، من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا، ظلماً وحسداً منهم لنا، وبغياً لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيّه ﷺ.

جهلًا عليّ وجبناً عن عدوّهم لبئست الخَلّتان الجهل والجبن

فإني والله يا أهل خراسان، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهاله، بلغني عنهم بعض السقم والتهم، وقد دسست لهم رجالًا فقلت: قم يا فلان قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحذوت لهم مثالًا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة، استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحلّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين.

ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾[1])[2].

اللهجة التظلمية.. يلجأ إليها الطغاة لتضليل شعوبهم

كانت اللهجة التظلّمية التي غلّف بها خطابه تتضمن أكاذيب مكشوفة تعرض على أناس كانوا بعيدين عن مسرح الأحداث الذي ذكر أنها وقعت فيه، والذين كانوا يميلون إليه وقد اتخذ منهم شيعة وبطانة بمختلف أساليب الدجل والكذب.

فهو في الوقت الذي يحاول التقرب فيه من أهل خراسان، يحاول إثارتهم وتحريضهم على أهل الكوفة باعتبار أنهم سبب كل المصائب التي حدثت لأهل البيت، وهنا يحاول أن يوحي إليهم بأنه وعائلته العباسية مشمولون بتلك المصائب أو المشاكل التي سببها أهل الكوفة، كما أنه كان يحاول إثارتهم على أهل البيت عليهم السلام باعتبار أنهم سبّبوا مشاكل لآل العباس، وعندما خرجوا على الأمويين وثاروا عليهم،

(١) سبأ ٥٤.

(٢) الطبري ٤/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

ولولا ذلك لكانت علاقة العباسيين بالأمويين جيدة. .

كان خطابه يمثل تهديداً آخر يطلقه عميد الأسرة العباسية، كذلك الذي أطلقه معاوية عميد الأسرة الأموية من قبل! لقد أراد أن يري أهل الكوفة أنه يعتبرهم عدوّه الأول وأنه سيعمد معهم إلى أشد الأساليب وأكثرها قسوة وصرامة. . . كما أراد أن يرى المسلمين كافة أن أعداءه هم العلويون الذين يريدون مناقشته وسلبه السلطة، حسداً له وبغياً منهم عليه.

كما أنه باستعراضه الأساليب التي لجأ إليها بدسه عيونه وجواسيسه بين صفوف مناوئيه، يحاول الإيحاء للجميع بأن أية حركة معادية مهما كانت خفية ومهما حاول أصحابها التستر عليها وكتمها، لن تغيب عنه وأنه مطلع على كل شيء.

كان يبدو بمظهر صاحب الحق المظلوم الذي اعتدي عليه وأراد أعداؤه سلبه حقه (الشرعي) بالخلافة. وهكذا يفعل كل أولئك الذين يعمدون إلى أساليب البطش والقسوة عندما يريدون التنكيل بخصومهم وضربهم دون أن يقيدوا بقانون أو بشريعة إلا قانونهم وشريعتهم هم. . ذلك الذي يضمن بقاءهم على كرسي الحكم والسلطان.

كان منطق المنصور هو منطق من سبقه من الطغاة، كما أنه منطق من جاء بعده منهم. . . ففرعون لا يرى إلا حقه المطلق ولا يرى إلا هواه ورغباته ومصالحه. يرى أن الدنيا قد خلقت من أجله والأكوان تدور في فلكه وأن الله ـ إن كان لا بد من الاعتراف بوجوده وسلطانه ـ قد تنازل له عن كل ذلك الوجود وذلك السلطان واختصه هو دون العالمين به، وإذا ما كان قد أنزل ديناً وشريعة وضوابط وقوانين، فليست لكي يطبقها ويلتزم بها هو، بل لكي يطبقها ويلتزم بها الآخرون، بل ويلتزمون بالحدود التي يرى أنها لا تتعارض مع مصالحه وامتيازاته.

إن كان لا بد من الدين فليكن في خدمة فرعون

فرعون يرى وجوب تطويع الدين ـ إن كان لا بد من وجوده ـ ليكون الدين الذي يريد، يحذف منه ما يتعارض مع رغباته ويضيف إليه ما يتوافق مع تلك الرغبات.

ولئن أرسى فرعون سابق منتم لهذا الدين أساساً للانحراف، فإن اللاحقين جعلوا الانحراف قاعدة وأساساً. . وهكذا (جاء العباسيون فيما يمكن أن نسميه

« الانقلاب العباسي » فأخذوا « سوابق » بني أمية في عالم السياسة، على أنها أصول مرعية، بل أضافوا إليها من عند أنفسهم إضافات. .

لقد رأينا أن خط الانحراف الذي بدأ مع الأمويين[١]! قد زاد انحرافاً، وأضيفت إليه إنحرافات جديدة، وإن الحكومة والمجتمع كليهما زادا بعداً عن الإسلام بدرجات متفاوتة. . .)[٢].

لم يعادِ العباسيون الأمويين إلا لأن حياتهم ووجودهم مرهونة بهلاك وموتِ هؤلاء، أما أسلوبهم في الحكم ونظرتهم إلى (الملك) الذي آتاهم إياه (مالك الملك) دون الخلق أجمعين! وحقهم في القيادة والحكم والسلطان، فقد حذوا فيه على أثرهم حذو النعل بالنعل مستغلين قرابتهم برسول الله ﷺ ومدّعين أنهم أهل البيت الذين طهرهم الله تطهيراً.

ولم يعد أحد منهم يقبل فكرة أن يتولى آخر غيره زعامة الناس، حتى ولو كان هذا الآخر عباسياً أيضاً. . وكان كل فرد منهم يسعى ليكون ولده هو خليفة من بعده.

ولئن شهدت الساحة أحداثاً ساخنة تصدى فيها العباسيون للعلويين بمختلف وسائل العنف. . فقد شهدت تصدي العباسيين للعباسيين، وقد أجبر العديد منهم ممّن كانوا ولاة للعهد وأخوة وأقارب، على التنازل لابن الخليفة، لأن هذا الابن سيضعها في ابنه. أما إذا أعطاها لأخيه فإن هذا سيورثها ابنه، وشتان ما بين الابن وابن الأخ.

إن ثورات عديدة حدثت على امتداد تاريخ الحكم العباسي، ومهما يكن من أمرها وأمر القائمين عليها، فإننا نستطيع أن نقول عن تلك التي حدثت بدافع عقائدي مبدئي، أنها كانت تنتصر للإسلام، لأنها كانت ترى أنه ينتهك ويعتدى عليه. . . وسواء اعتقد القائمون بها أنهم سينتصرون في معاركهم العاجلة أم سيلاقون نفس مصير الثوار الذين سبقوهم، فإن ذلك لم يكن ليثنيهم عن خوض معاركهم ضد أعداء الإسلام الذين يعاصرونهم والذين يحتكرون السلطة والمال وكل شيء دون المسلمين ويسيرون فيهم سيرة الفراعنة الأولين، وإن كانوا يدّعون أنهم يعبدون الله أيضاً، غير أنهم جعلوا أنفسهم وكلاء له وظلّا في أرضه وأرباباً من دونه، وطواغيت يتسلطون

(١) تحدثنا في غضون هذا الكتاب عن بداية خط الانحراف، وقد كان قبل الأمويين دون شك.
(٢) محمد قطب/ كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص ١٢٥/ ١٥٣.

بالقهر والإرهاب على رقاب الناس[1].

فقد كانت ثورة الحسين عليه السلام وإقدامه على الموت لمواجهة أعنف هجمة شرسة على الإسلام بقيادة يزيد، تلوح أمام الثوار على مر الأزمان، ويرى من ينجح منهم بالالتحاق بموكب أصحابه وأنصاره أنه قد حقق أمله الكبير وفاز فوزاً عظيماً، ولئن استغلق أمر هؤلاء الثوار على أفهام الآخرين فإن وضوح منطقهم الخارق عندما ينتصرون للإسلام ويقفون إلى صفه يخرس من لا يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، كما يخرس كل من آثر العبودية والاستسلام في ظل الطواغيت والفراعنة، وأنّى لميت أن يقوم كما يقوم الأحياء الأصحّاء..!

(١) يعرّف الإمام ابن جرير الطبري «الطاغوت» في تفسيره بقوله: «هو كل طغيان على الله فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء» ـ تفسير ابن جرير الطبري ٣/ ١٩ ط ٣ سنة ١٩٦٨ مكتبة البابي الحلبي بمصر.

١٣ - نتائج قائمه

ثورة الحسين بمواجهة دولة الظلم على الدوام

أثبت الحسين عليه السلام بثورته إمكانية تحدي دولة الظلم ومجابهتها وعرقلة مشاريعها الإنحرافية ومساعيها الدؤوبة لترسيخ حكمها الفرعوني، رغم التفاوت الكبير في الإمكانات بين الثائرين والسلطة.. وكانت تلك الثورة إعلاناً واضحاً للأمة كلها في كل وقت وفي كل ظرف لتدرك أن عليها أن لا تهادن دولة الظلم رغم كل ما قد يقتضيه ذلك من تضحيات قد تصل حد الاستشهاد وتقديم كل عزيز وغالٍ، وقد ضرب بإقدامه الباسل مثلًا حياً يشخص أمامها باستمرار، وأرادها أن تقدم على ما أقدم عليه ـ بالقلة القليلة من أصحابه ـ إذا ما أحست بظهور بوادر الانحراف والظلم وأن لا تقف مرعوبة أمام جيوشها وأعوانها وما تبديه من ضروب القسوة والعنف.

ولو أنه هادن الدولة الأموية بقيادة يزيد ووضع يده في يده وبايعه، لكان قد أعطى الإشارة الخضراء لعموم أبنائها على مر الأزمان ليضعوا أيديهم بأيدي الظالمين والمنحرفين، دون أن يعيروا الإسلام وقيمه أية أهمية، ولأدى ذلك إلى أن ينسى حتماً ويوضع على الرفوف كأثر غابر من آثارها[1]... ولكان قد تحمل المسؤولية التاريخية أمام هذه الأمة باعتباره رائد الاستسلام والمصلح المهين الذي فتح الباب على مصراعيه لكل استسلام أو صلح مماثل، ألم يكن ذلك الذي سيحدث لو أنه بايع يزيد وقبع سعيداً بالسنوات الباقية من حياته وبما سيعود عليه استسلامه من فوائد ومكاسب شخصية، وألا نرفع نحن عقيرتنا بالصياح، محتجين على كل من يريد إيقاف عجلة الظلم، بموقف الحسين من يزيد لو أنه بايعه وقبل به خليفة وممثلًا لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه..؟

أراد الحسين عليه السلام تصحيح معادلة الخلافة التي جاء بها القرآن الكريم، والتي

---

(١) تحدثنا بإسهاب عن هذا الموضوع وتناولناه بعنوان (الحسين عليه السلام ومسؤولية الثورة.

دخلتها عناصر غريبة وحولتها من شكلها الرباعي[1] القائم على عقد إلهي ملزم وقائم على أساس الإسلام جملة وتفصيلاً، إلى صيغة أباح فيها الحاكم لنفسه العودة إلى الفرعونية المطلقة وجعل من نفسه إلهاً من دون الله وقيماً على الناس بإرادة خاصة كرست لتعزيز مصالحه وحكمه.

وقد أوضحنا في الفصل الأول الأسس التي تقوم عليها معادلة خلافة الإنسان على الأرض، وكيف أن أي إخلال بها يجردها من الشرعية ويجعلها غير جديرة بحمل اسم الإسلام بأي حال من الأحوال. وهذا الإخلال قد تم فعلاً، إذ حولت هذه الخلافة إلى ملك عضوض مطلق وكأنه أنزل على (الخليفة) خاصة كهدية مباشرة من الله، وكأن الرسول ﷺ كان حلقة زائدة لم تعد الحاجة تمس إليها ما دامت تتعارض وتوجهات الخليفة الملك، وما دامت تعاليمه وسنته قد أهملت بشكل تام وعطلت حدود الإسلام نهائياً ولم يلتزم إلا ببعض الأشكال العبادية المظهرية.

إن تحريم الحلال وتحليل الحرام بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية على حد تعبير رسول الله ﷺ في قوله لأمير المؤمنين، يعني رفض المنهج الإسلامي في الحكم والحياة ما دام لا ينسجم مع مصالح الحاكم ولا يحققها.

إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح لا يعني التهالك على الحاكم والسلطة

ولا تعني محاولة إعادة الخلافة إلى مجراها الشرعي الصحيح، تهالكاً على الحكم والسلطة وحباً لهما، كما تبادر إلى أذهان الكثيرين ممن صدقوا معاوية وأجهزته وأبواق دعايته. أو الذين كانت مصالحهم تقتضي تصديقه، مع أنه كان في الواقع أكثر المتهالكين عليهما كما أثبتت ذلك وقائع التاريخ، فقد رفض أمير المؤمنين عليه السلام بشكل حاسم أن يتسلم الحكم إلا على شريطة العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلمه هو عليه السلام، كما اشترط على الجماهير التي بايعته بعد مقتل عثمان في إجماع للصحابة لا مثيل له في تاريخ المسلمين، وكما صرح بعد ذلك أمام جمع حاشد منهم.. (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منّا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحكام، ولكن ليزد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح

(١) وقد تحدثنا عن ذلك أيضاً مستندين إلى أطروحات الشهيد الصدر (قده).

في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك..)[1] وكما صرح أيضاً في عدة مناسبات.

ولو أن الحسين عليه السلام ـ وهو ممثل علي عليه السلام وخليفته ـ أراد الوصول للسلطة وحسب لتتاح له فرصة الحصول على المكاسب التي تحققها، لكان قد هادن يزيد ومعاوية قبله، وسلك إليها نفس الأساليب التي سلكاها إلى أن تتاح له فرصة الوثوب، وربما كان بذلك قد أرضاهما إلى الحد الذي قد يقبلان فيه بتقسيم تلك السلطة وربما حصل على موافقة يزيد ليكون ولي عهده.

وإذ أن وسائل الأعلام ظلت بيد الأمويين، ومن بعدهم بيد العباسيين، فإن تهمة السعي لنيل السلطة ـ حباً بها ـ والتي وجهت للحسين كما وجهت لأبيه من قبل، أريد بها تضليل الأمة بشأن مساعيه الحقيقية، وهي التصدي للانحراف وإيقافه بكل طريقة ممكنة وفي مقدمتها القتال أن كان لا بد من ذلك والتعرض للشهادة.

وقد رأينا زيف هذه التهمة وعدم صحتها بل وسخافتها، لأن ما أراد الحسين بلوغه، هو وضع صاحب المسؤولية الأول (وهو هنا نفسه) أمام مسؤولية لتحملها بشكل تام، فلم تكن مطالبته بحقه إلا لكي يؤدي واجبه.

فهذا الحق، ليس حقاً شخصياً مجرداً يحق له التنازل عنه هكذا دون سبب وفي كل ظرف، وإنما هو حق مكرس له شخصياً وبوصية من رسول الله صلى الله عليه وآله عليه أن يتحمل آثاره ـ إن صح التعبير ـ ويقوم بواجبه تجاهه وهو حق لا يتيح له إمتيازات خاصة من الأموال والترف ـ وهو الشيء الذي لم يفكر به بأية حال من الأحوال ـ بقدر ما يحمله من مسؤوليات عديدة صعبة لا يستطيع غيره تحملها والنهوض بأعبائها والتزاماتها.

حق للحسين عليه السلام أم حق للأمة..

فعزمه على المطالبة بحقه لا يعني أنه يتهالك على الكرسي والعرش والمغانم الخاصة ومنافسة يزيد على حياة الترف والاستهتار، بل كان يعني أنه يريد إعادة الأمور إلى نصابها الصحيح وتصحيح نظرية الخلافة الإسلامية التي تشوهت وزورت في عهد معاوية ويزيد لتعني الخلافة على أساسها مغنماً شخصياً وملكاً خاصاً، كما رأينا في

---

(١) نهج البلاغة ـ تحقيق د. صبحي الصالح – دار الكتاب اللبناني – ص١٨٩.

الفصلين الأولين، وكان ملزماً أن يضحي (بالخليفة) في سبيل (الخلافة)، وبإمام الأمة الإسلامية في سبيل الأمة الإسلامية.

لقد جعل موقف الإمام الحسين العديد من المتسلطين والمتخلّفين بالقوة وبحد السيف، بعد أو وجدوا أن مصير من سبقوهم كان مصيراً أسوداً، وأن دولهم قد أمحّت وزالت بسبب الظلم والانحراف المعلنين ـ يقفون موقفاً حذراً في تعاملهم مع الأمة المسلمة، ويحاولون استمالة الناس إليهم بمختلف الطرق المتاحة ومنها التظاهر بالعدالة والتحيز إلى جانب هذه الأمة، والوقوف إلى جانب المظلومين والفقراء ومنحهم بعض المكاسب وبعض أشكال الحرية التي لا تمس مصالحهم وامتيازاتهم. لقد جعلهم يخافون نزع أثوابهم وبراقعهم وأغطيتهم الإسلامية التي لبسوها استرضاء لهم وكسباً لودهم.

إن الصحوة الإسلامية المتجددة، تستلهم على الدوام أحداثاً ورموزاً مؤثرة، ظهرت في تاريخ الأمة الإسلامية، ولن تكون تلك الأحداث والرموز مجرد أشياء حدثت فألقت ظلالاً باهتة أو آثاراً فاترة على مجرى التاريخ وانتهى أثرها، بل أن معطياتها تشع على الأمة على مر الأزمان.. ولعل الذي يستلهم من معارك الإسلام الكبرى كبدر وأحد وحنين والخندق وغيرها، عزماً وقوة متجددين، لا يفوته أن يستلهم من معركة الطف ورموزها قوة دافعة مضافة، ويرى في الرجال الذين قاموا بها نفس أولئك المجاهدين الأوائل الذين قادهم رسول الله ﷺ والذين أرسوا دعائم الإسلام وكيانه رغم قلتهم وضعف إمكانهم الظاهرة، فلم يثنهم ذلك عن مواجهة عدوهم، كما لم يثن الحسين وأصحابه عن مواجهة عدوهم أيضاً.

أعادت الطف بدراً، ورأى الناس في أصحاب الحسين في الطف، أصحاب رسول الله ﷺ في بدر، ورأوا أن بدراً يمكن أن تتجدد وتحدث في الطف وغير الطف.

وهكذا كان الأمر فعلاً رغم تسلط الظالمين وجبروتهم وتنوع أسلحتهم وأساليبهم، فقد رأينا من وقف مع فئة قليلة من أصحابه وأنصاره، وربما وحيداً لمواجهة دولة ظالمة بكل أجهزتها العميقة وقوتها وجبروتها، وقد حسب أنه يكمل فصلاً من فصول بدر والطف وأنه يقوم بدور لا يقل عن دور المشاركين فيهما.

مبدأ التوحيد لا يقر النهج الفرعوني

إن مبدأ التوحيد الذي حاولت الديانات السماوية ومنها الإسلام، ترسيخه لدى الناس والذي يعني نسف كل أنواع الشرك والعبودية لغير الله وخصوصاً ذلك الشرك الذي يبرز طائفة من الفراعنة والطغاة أرباباً من دون الله أو ممثلين لإرادته ومشيئته، هذا إذا تنازلوا واعترفوا به أو وجدوا أن اعترافهم به تحقيق لهم ما لم يتحقق للفراعنة الأوائل ذوي الخبرة والذكاء القليلين.

وليس مبدأ التوحيد مجرد فكرة منفصلة عن الواقع، وإنما هو مبدأ متكامل، تقوم على أساسه سلسلة من الفعاليات المتجانسة تنسجم مع هذا الواقع بشكل عام، ولا يقوم على أساس رفض الأصنام الحجرية التي نصبت آلهة للناس ليعبدوها لكي تقربهم إلى الله زلفى وحسب. فتلك الأصنام كان لها صنّاع من البشر، كما أنها نصبت بإرادة بشرية خالصة، ووجد أولئك الذين نصبوها من حاكمين وكهنة مصلحة في ذلك لأن من يتوجه إليها بالعبودية والطاعة، إنما يتوجه إليهم هم، وهكذا كانت الأصنام الحجرية حلقة مفيدة في مصلحة الأصنام البشرية.

ولو أن من نشأوا في ظل الإسلام، ووجدوا أنفسهم (خلفاء) وحكاماً، رأوا أن الناس لا تزال تعتقد بمثل تلك الأصنام الحجرية، لما توانوا عن الإكثار منها وإحكام صنعتها وهياكلها لضمان إخضاعهم، غير أن مرحلة الخضوع للأحجار قد انتهت ولا بد من وجود بديل لها، وإذ أن الإسلام يرفض كل ألوان العبودية والشرك، فإن ديناً ممسوخاً يحمل من الإسلام اسمه وشكله وبعض مظاهره وشكلياته، يمكن إذا ما زوِّرت العديد من أحكامه وتعليماته ـ أن يعوض عن ذلك الحجر ويحقق مصالح فرعون الجديد ذي الخبرة والدهاء والأعوان والمستشارين.

هل يمكن أن يقول إن معاوية أو المنصور يستطيعان إقناع الناس بالرجوع إلى عبادة الأصنام ليقفا هما من ورائها يتلقيان فروض الطاعة والولاء. . .؟ وهل لا يجد فرعون مهما تسمى، من الإسلام الحقيقي عائقاً حقيقياً أمام مساعيه وطموحاته. . .؟ وألا يكون الطريق الوحيد لتحقيق أطماع وطموحات الفراعنة الذين ولدوا في عهد الإسلام وفي ظله، تزوير هذا الدين وتطويعه ـ إن صح القول ـ ليكون آلة في أيديهم. . .؟ أليس ذلك الذي فعلوه؟

رفقاً بالعقل البشري

إن نظرة على (الأحاديث) المزورة التي تحث على طاعة الحاكم (ولي الأمر) وإن كان فاسقاً أو مفضولاً وعدم الخروج عليه لأن ذلك يعد خروجاً عن الإسلام وأحكام الله! والتي تنسب لرسول الله ﷺ أقوالاً وأحاديثاً لم يقلها بشأن عدالة الصحابة جميعاً وإن كانوا لم يروا رسول الله ﷺ ولم تكن لهم صحبة حقيقية معه.. والتي نسبت فضلاً وكرامات لبعض من كانوا أشد الناس كرهاً وعداوة للإسلام ورسوله ﷺ ونزعت الفضل من أقرب مقربيه وأحرصهم على دينه ورسوله ﷺ بل وذهبت حد إدعاء عدم عصمة الرسول ﷺ والتشنيع عليه بروايات وقصص مزورة، والذهاب إلى حد القول إن أهل البيت الحقيقيين الذين وردت شهادة بعصمتهم من الرجس وطهارتهم في القرآن الكريم وهم رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هم ليسوا هؤلاء، وأنهم آل أبي سفيان، كما ادعى الأمويون ذلك عندما كانت الأمور مستتبة لهم، وأنهم آل العباس كما ادعى ذلك العباسيون عندما أصبحوا حكاماً على المسلمين. إن نظرة على تلك (الأحاديث) التي أباحت للخليفة الحاكم ما لم تبحه لغيره... تعلن ميلاد دين جديد مزور ينسجم والطموحات الأموية والعباسية وكل طموحات فرعونية أخرى.. ففرعون لا يتنازل بسهولة أو يخضع لإرادة تتعارض مع إرادته أو تتقاطع معها، وقانونه هو هواه ومصالحه.

أحقاً أن قسماً منا لم يدركوا ذلك إلى الآن وأنهم لا يزالون مخدوعين بأكاذيب وافتراءات الفراعنة الدجالين..؟

(فكرة التوحيد، وربط الإنسان بكامل وجوده وجوانب حياته برب واحد أحد، هذه الفكرة، هي القاسم المشترك بين كل النبوات والرسالات التي عاشها الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض..)[(١)].

وقد أريد لهذا الإنسان من خلال الفهم الصحيح الواعي لفكرة التوحيدة أن لا يحسب أن تصرفاته وسلوكه يمكن أن يكونا بمعزل عن معتقده وإيمانه بالله الواحد الأحد القدير، وأريد له أن يفهم أنه بقدر نجاحه في تحقيق أعلى قدر من الانضباط والشعور بالمسؤولية فإنه يصعد درجة في سلم الإيمان، وبقدر نجاحه بتجسيم القيم

---

(١) أهل البيت - التغيير والتجديد في النبوة ص ٣٨.

الإلهية مجتمعة في بناء الروح والجسد والمجتمع فإنه يثبت تفوقه في مضمار الإيمان واقترابه مع الخالق العظيم.

إن القيم الإلهية لم تكن أمراً مجهولاً لدى الناس، وقد تم توضيحها وإبرازها بشكل دقيق ومألوف، متقبل وواقعي وممكن التحقيق، في القرآن الكريم والسنة المطهرة.. وكان الالتزام بها هو الذي يحدد الشعور بالمسؤولية لدى كل فرد مسلم، وقد أريد من الجميع أن يتحملوا نصيباً من مسؤولية بناء المجتمع وبناء الأمة، إضافة إلى مسؤولياتهم في بناء أنفسهم وعوائلهم وفق هذه القيم الإلهية التي ترفضها مجتمعات الجاهلية والظلم وتحاربها، مع أنها بالتالي تحاول انتقاء ما يروق لها منها بعد إعادة تشكيلها وصياغتها وإبرازها بصورة أخرى توافق هواها ورغباتها بعد أن تكون قد فشلت بالقضاء عليها.

كهنة محترفون وراء عرش فرعون

إن الكاهن المحترف الذي يقف وراء رجل الحكم، يبرز مع كل خطوة متعمدة لطمس المعالم الصحيحة للإيمان والتوحيد ويساند من يريد أن يضع نفسه في موقع الربوبية والسلطة المطلقة.

إن خط التوحيد الذي رسّخه الإسلام ورسمه بشكل واضح ونهائي ومنسجم مع التطلع الإنساني والتفكير الإنساني الصحيح، لن يظل فاعلاً ومؤثراً، ينسحب على أمور الحياة العملية ومعيشة الإنسان الصحيحة، ما لم يدعمه شعور كبير بالمسؤولية تجاه نفسه والآخرين ويحس أنه ملزم بتحملها دائماً وإلى آخر لحظة من حياته، وما لم يرافقه شعور واع بالعبودية التامة لله سبحانه وحده دون غيره من المخلوقات الضعيفة، مهما أبدت من ضروب القوة والتعاظم ومظاهر العسف والاستبداد..

إن (خط تحمل أعباء المسؤولية الأخلاقية للدعوة، يعني كون الإنسان بالغاً إلى درجة تؤهله لأن يتحمل أعباء دعوة لها ضريبتها وواجباتها وآلامها وهمومها)[1] أن يتحمل (مسؤولية رسالة لا حد لها ممتدة مع الزمان والمكان)[2].

إن استمرار تأييده لها ودفاعه عنها ووقوفه إلى جانبها وتضحيته في سبيلها يؤكد فهمه التام واستجابته الحقيقية لها.

---

(١) و(٢) أهل البيت ص ٤١ - ٤٢.

لا بد لخط الرسالة أن يظل واضحاً

وكان لا بد لخط الرسالة ـ رغم وفاة خاتم الأنبياء ﷺ واختفائه من على الساحة الأرضية ـ أن يستمر بنفس القوة المؤثرة بقيادة عناصر كفوءة مؤهلة تمتلك قدراً من الفهم والوعي والقابلية على تربية الأمة كلها والتأثير فيها تأثيراً إيجابياً بناء. إن ذلك الخط الجديد بإكمال خط الرسالة الأصيل لا بد أن يكون متصلًا به اتصالًا وثيقاً، يأخذ عنه ويمتد بنفس اتجاهه، وهو خط الإمامة أو الوصاية الشرعية المقيدة بعقد إلهي مبرم واضح الحدود والصيغة لا ينبغي الإخلال به أو الخروج عنه بحجة عدم فهمه أو اقتضاء المصلحة اللازمة لذلك أو بحجة (الاجتهاد) الذي لا يستند إلى أي سند أو قانون أو تشريع إسلامي معروف أو الذي تغلّبه المصالح الخاصة والأهواء الشخصية.

إن هذا الخط مسؤول عن تحصين الأمة وحمايتها من كل انحراف وخروج متعمد عن الإسلام، ولا بد لمن يتزعم هذا الخط أن يكون متمتعاً بأكبر قدر من الوعي والفهم الاستثنائيين، ولا بد أن يكون مستعداً لتقديم أكبر قدر من التضحية طالما أنه يطلب من الآخرين ذلك وطالما أنه يعلم أن المعركة مع أعداء الإسلام سوف تظل بلا هوادة وتستمر دائماً طالما بقيت النزعات الإنحرافية الشريرة التي لا يرى أصحابها إلا مصالحهم وامتيازاتهم وأنفسهم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن من يتحملون مسؤولية إمامة هذه الأمة ينبغي أن يكونوا على التصاق وثيق برسول الله ﷺ نفسه، لا من حيث النسب وحسب، فقد حدث أن وقف من الرسالة موقفاً معادياً من كان يمتّ إليه ﷺ بنسب وثيق، وإنما من حيث الولاء والانتماء المبني على الفهم الشمولي للقرآن ولكل ما جاء به رسول الله ﷺ والاستيعاب الكامل للرسالة والاندماج الكلي بها بحيث لا يرى أمامه إلا مَن أنزلها ولا ينحني أو يخضع أو يستجيب إلا له وحده.

إن هذه الاستجابة المطلقة للرسالة تستدعي إعداداً خاصاً من قبل الرسول ﷺ نفسه، إعداداً يستمر طيلة حياته بأكملها، كما أنها مرهونة بتسديد إلهي خاص شبيه بذلك التسديد الذي اختص به الأنبياء وخاصة الأولياء.. وإشارات القرآن واضحة بشأن وصاة الرسول ﷺ، كما أن أحاديثه ﷺ بشأن أمير المؤمنين وخلفائه عليهم السلام من بعده لا تحتمل اللبس والتأويل رغم الحملة المنظمة الكبيرة التي قادها معاوية وكل سلالات الحكم التي جاءت بعده لطمسها وتبديلها (بأحاديث) مزورة أخرى استهدفت

غرضاً معاكساً لذلك الذي أراده الرسول ﷺ. . وقد تطرقنا بمزيد من التفصيل إلى التضليل الإعلامي الأموي الذي استهدف أمير المؤمنين وآل البيت عليهم السلام عموماً بالشر والأذى لاستمرار إبعادهم عن مراكزهم الحقيقية التي أهلّوا لها تأهيلًا خاصاً من قبل رسول الله ﷺ ثم من قبل وصيه عليه السلام لكي يتحملوا مسؤولية قيادة الأمة على نفس النهج الصحيح والتصور الواعي الذي أرساه ﷺ وأراد خلفاءه من بعده أن يستمروا عليه. .

الخلافة الإلهية لا السيطرة الفرعونية

إن مسألة السيطرة على الطبيعة من قبل الإنسان وتوجيهها لصالح العموم، ينبغي أن تظل قائمة على نفس التصور الإسلامي الدقيق، وهي مهمة لا يتأتى للناس كلهم القيام بها بشكل متكافىء ومتساو، بل حسب فهمهم للإسلام واقترابهم منه. .

ومع أن طموح الإنسان يظل يتسع لبسط المزيد من النفوذ والسيطرة على الكون والطبيعة، وقد يتطلع إلى آفاق أخرى وكواكب أخرى، فإن هذه السيطرة ينبغي أن لا تظل رهينة بما يراه هذا الإنسان بمعزل عن قانون شمولي ينظم له فعالياته المختلفة ومنها خلافته على الأرض، وينبغي أن يظل الإسلام ماثلًا أمامه، ويظل خط النبوة الناصع المجسد حقاً لحاكمية الإسلام ماثلًا أمامه كذلك لا (لكي يأخذ الإنسان في مجال السيطرة على الكون والطبيعة، وإنما جاءت لتضع هذا الإنسان المسيطر على الكون بالدرجة التي هيأتها لها هذه الظروف ـ ظروفه الموضوعية ـ أن تجعل من هذا الإنسان إنساناً فاضلًا مدبراً حكيماً.

ونحن باستقراء تاريخنا المنظور ـ منذ جاء الإسلام إلى يومنا هذا ـ لا نجد أي تغيير حقيقي في هذين الخطين، لا في مدى إتساع الوعي التوحيدي عند الإنسان ولا في إتساع التحملات الأخلاقية في أعباء الدعوة. . نعم نجد التغير الواسع جداً في الخط الثالث الذي يعتبر خارجاً عن نطاق عمل النبوة ورسالتها. .)[١].

إن هذا التغيير الواسع في هذا الخط، وهو خط سيطرة الإنسان على أخيه

(١) التغيير والتجديد في النبوة ص ٤٢ - ٤٣.

الإنسان وعلى الكون والطبيعة، ما كان له أن يحدث بهذا الشكل والأسلوب ليكون باتجاه الابتعاد عن خط الإسلام، لو أن الإلتزام بخطي الإيمان والنبوة كما رسمهما الإسلام ورسوله الكريم ﷺ، ظل على حاله راسخاً. . إن التناقضات والاستغلال والظلم بقيت واتسعت مع اتساع اكتشافات الإنسان وتطور خبرته في السيطرة على المزيد من منابع الثروة والنفوذ.

ولم يكن ذلك ناشئاً عن خلل في التصور الإسلامي وفي التوجه الإسلامي، وإنما نشأ عن إنحرافات لها أسبابها وأبطالها، بدأت في وقت مبكر، أضيفت إليها فيما بعد أغطية من الشرعية واعترف بها كأمر واقع، ونشأت نتيجة حملة منظمة ألحقت بالإسلام شوائب وزوائد لم تكن فيه، وجعلته يبدو وكأنه كرّس لخدمة الأشخاص الذين أتيحت لهم فرصة تبوء السلطة. . وقد بدأت تلك الحملة المنظمة الدؤوبة ـ كما أوضحنا ـ منذ أيام معاوية واستمرت بنفس القوة والاندفاع في ظل مختلف الأنظمة الفرعونية المتعاقبة.

وقد كان إيقافها منذ البداية أمراً أسهل منه فيما بعد رغم شراسة الواقفين على رأس السلطة واستماتتهم في الدفاع عن مصالحهم وامتيازاتهم، غير أن الصعوبة الحقيقية تجسدت فيما بعد، إذ اتسعت دائرة المستفيدين الطفيليين من الأنظمة الفرعونية التالية وقويت جبهة المدافعين عن فرعون الذين رأوا أن حياتهم ووجودهم رهينان بحياته ووجوده.

إن ترك محاولات إيقاف الانحراف ومنعه بحجة قوة الجبهة الفرعونية وعدم استعدادها للتنازل أو الاستسلام، لن يعني إلا إتاحة الفرصة أمام المتسلطين لمحو الإسلام نهائياً وطمس حدوده، وهذا ما يجعل مهمة الأجيال اللاحقة في الإصلاح والتقويم أصعب وأشق وأقرب إلى المستحيل. .

السكوت عن الظلم إقرار له

إن محاولة التصدي للخط المنحرف منذ البداية ـ كما فعل أمير المؤمنين وأبناؤه من بعده، كانت تستهدف تنقية خط التوحيد من الشوائب والأدران وتخليص الأمة من عبوديات الفراعنة الجدد المتسللين إلى الإسلام والمتسترين وراء أغطيته وشعاراته، كما أنها تشعر من عاصرهم ومن جاء بعدهم من المسلمين أن المسؤولية لا

تخصهم أو تخص مجموعة منهم، وإنما تظل ملقاة على الأمة كلها، وأنها لن ترفع عنهم. إنها تشعرهم أن عليهم بذل جهودهم المستمرة سواء نجحت أم لم تنجح؛ فلا بد من توفر الظروف الموضوعية في نهاية المطاف للنجاح.

لقد أوضحوا بجلاء مسؤولية كل فرد في هذه الأمة والتي عليه أن يتحملها كاملة، أما النجاح وتحقيق الظفر الأكيد، فهذا أمر مرهون بعوامل عديدة وسنن ربانية وطبيعية عديدة عليه أن يمهد لها. . وقد أوضحها القرآن الكريم وأشار إليها الرسول العظيم ﷺ وأمير المؤمنين وأئمة أهل البيت عليهم السلام بوضوح.

إن إقرار الظلم بحجة عدم القدرة على إيقافه، وتعزيز الإنحراف والوقوف مع المنحرفين بحجة عدم القدرة على التصدي لهم ومواجهة عجلتهم التي قد تبدو ساحقة وقوية بل ومدمرة، أمر غير مسوغ وغير مبرر من وجهة النظر الإسلامية على الإطلاق، لأنه يعني أن الإنسان المسلم قد نقل ولاءه المطلق لله ومنحه لأشخاص مثله، وأنه أصبح لا يعتقد بالله وقدرته ووحدانيته، ما دام يعتقد بقدرة غيره المطلقة.

ما فائدة أن يعلن الإنسان بلسانه اعترافه بربوبية الله المتفردة ووحدانيته وقوته وعدالته، ثم يميل بولائه الحقيقي ويمنحه لمخلوق آخر أعلن نفسه رباً من دون الله وأصدر تشريعاته وقوانينه وأحكامه هو؛ تلك التي تسهل عليه أساليب السيطرة والنفوذ والاستغلال والعبث، وأصبح يدين له بالعبودية والطاعة التامة في تصرفاته وأفعاله ويلتزم بحدود قوانينه وتشريعاته ولا يخرج عنها، حتى وإن كانت مناقضة بشكل سافر للقوانين والتشريعات والأحكام الإلهية ومتنافرة معها[1] . . .؟

---

(١) (في الدر المنثور. . . روى الترمذي (وحسنه) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وغيرهم عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا له شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه.
وفي تفسير ابن كثير: وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير ـ من طرق عن عدي بن حاتم (أنه) دخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى! إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم: فذلك عبادتهم إياهم. .)
في ظلال القرآن ج ١٠ ص ١٦٤١.

الإمام الحسين عليه السلام: أتاح للأمة إدراك مسؤوليتها في مواجهة الظلم والانحراف

لقد أتاح الإمام الحسين عليه السلام الفرصة للأمة لكي تدرك أبعاد مسؤولياتها في ردع الظلم وإيقاف عجلة الانحراف وعرقلتها مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك، وجعلها ترصد بوعي ـ على مر الأزمنة ـ أولئك الذين تسنموا مراكز الحكم والقيادة وتراقبهم مراقبة دقيقة وتجعلهم أميل إلى التصرفات الحذرة في سلوكهم الشخصي وفي سياستهم معها.

وقد وقعت عشرات الثورات والأحداث ـ تطرقنا إلى قسم منها ـ طوال فترتي الحكم الأموي والعباسي وما بعدهما، وإذ لم يكن بعضها نتيجة مباشرة لثورة الحسين عليه السلام، فإن تلك الثورة العظيمة كانت تلوح وراء معظمها، ولا شك أن معظم الأسباب الحقيقية الكامنة خلفها تعود إلى أن الأمة قد بدأت تتعود رفض الظلم والانحراف والتمادي فيهما وأخذت تعتاد الملاحم الكبيرة التي يقدم فيها أناس دون تحفظ أرواحهم لحماية الإسلام والدفاع عنه، تماماً مثلما فعل أصحاب الحسين في واقعة الطف المجيدة.

إن تلك المسؤولية التي تحملها من أبناء الأمة مَن فهم أهداف ثورة الحسين المنسجمة مع روح الإسلام وتطلعاته الحقيقية لخدمة البشرية، وتصرفوا على أساسها، لا بد أن يتحملها الآخرون ممن سيدركون حتماً طبيعة تلك الأهداف بعد دراستها دراسة واعية مجردة من الهوى والتعصب والتأثر بالتيارات المعادية التي خلقها معاوية وأشباهه ممن سخّروا (إسلامهم) لخدمتهم الشخصية وتعزيز سلطانهم ونفوذهم ومصالحهم.

ومن الآخرين الذين لا تخلو منهم الساحة في أي وقت من الأوقات والذين يريدون سرقة مكاسب الأمة وتسخيرها لمنافعهم الشخصية وتقوية سلطانهم ونفوذهم أيضاً، بنفس الحجج والمبررات والأساليب التي لجأ إليها بطل الإنحراف العتيد وغطاها ببراقع وأستار إسلامية براقة لا تمت للإسلام بصلة ولا تتجانس معه بأي شكل من الأشكال.

وإذ أن الأسباب الكامنة خلف مقاومة هؤلاء ثورة الحسين عليه السلام والسعي لتشويهها والتعتيم عليها، لا تخفى، ولها (مبرراتها) بنظرهم، فإن الأمر المحير حقاً ـ بنظر البعض ـ قيام بعض من استهدفت الثورة تخليصهم من آثار الظلم والانحراف بمشايعة الظالمين بنفس الحماس الذي يبديه هؤلاء ويبديه كل منتفع سائر بركاب دولة

الظلم، غير أن الحيرة تزول متى ما أدركنا عمق الحملة المنظمة لتشويه هذه الثورة والتي ما كانت تتاح لولا السعي المحموم لتجريد الأمة من وعيها وثقافتها وجعلها طبقة من العبيد الرعاع الذين لا يعرفون مصالحهم وحقوقهم ولا يدركون أن هناك ظلماً واقعاً عليهم هم بالذات[1].

ثورة قائمة

ستظل ثورة الحسين قائمة أمام المسلمين دائماً وفي مختلف الأزمان والظروف، تحصّن الأمة ضد الانهيار الذي تجرّ إليه رغم إرادتها من قبل القيادات المنحرفة، الذي أخذ إنحرافها طابعه المعلن منذ العهد الأموي وحتى الآن، عدا الفترات القليلة التي حكم فيها بعض من كانوا أقرب إلى الإسلام من غيرهم، وكانت اللمسات الشخصية التي أضفوها على مجمل مسيرة الحكم بصورة عامة باهتة وضيقة يصعب انتزاعها وتشخيصها من بين الركام الهائل للانحراف الذي عاشت الأمة في ظله وتأثرت به وكان ضحية دائمة له بفعلٍ مقصود ومدروس ومنظم ودؤوب.

وطبيعي أن الانحراف الذي أدى إلى طمس معالم الإسلام وتشويه صورته واستغلاله لصالح دولة الظلم، كان سيمتد ويتجذر ويتأصل ويتخذ طابعاً مشروعاً مُتقبّلًا مُقرّاً من الأمة كلها دائماً لو قدّر له أن يسير على نفس الوتيرة السريعة التي كان عليها خلال الحكم الأموي.

خطان لإعادة الأمور إلى نصابها: محاولة تسلم زمام التجربة وتحصين الأمة ضد الإنهيار

وقد عمل الأئمة منذ وقت مبكر وابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام على إيقاف الانحراف المبكر والمتسارع الذي بدأت آثاره تتضح وتنطبع على ملامح الأمة المغلوبة المقهورة، التي بدأت تتخلى عن مسؤوليتها وتتنازل عن عقيدتها بشكل واضح، وكان عملهم عليهم السلام يسير بخطين متوازيين وبوقت واحد.. (.. الخط الأول، هو خط محاولة تسلم زمام التجربة؛ زمام الدولة؛ محو آثار الإنحراف، إرجاع القيادة إلى موضعها الطبيعي لأجل أن تكتمل العناصر الثلاثة: الأمة والمجتمع والدولة.

الخط الثاني: الذي عمل علية الأئمة، هو خط تحصين الأمة ضد الإنهيار بعد

---

(١) وقد تحدثنا عن هذه الظاهرة عند استعراض أحوال المجتمع العراقي أيام معاوية ويزيد.

سقوط التجربة، وإعطاؤها من المقومات القدر الكافي لكي تبقى وتقف على قدميها وتعيش المحنة بعد سقوط التجربة بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت. .)[١].

وإذا ما حاولنا أن نتبيّن ملامح هذين الخطين في مسيرة الإمام الحسين العامة وثورته على الدولة الأموية اليزيدية، رأينا أنه قد أقدم أمام سمع الأمة وبصرها وأمام ممثلي السلطة وعيونها وجواسيسها على المسير نحو العراق عندما وجد من (يعلن) عن استعداده لمبايعته والوقوف خلفه للإطاحة بالحكم الأموي ورموزه الكريهة.

ومن الطبيعي أن يتهم من قبل السلطات الأموية ـ كما اتهم أبوه عليه السلام من قبل ـ بالحرص على الحكم والسلطان لمجرد الرغبة فيهما، وعرضته وسائل الإعلام على الأمة (كمنافس) لا يتمتع بكل المؤهلات المطلوبة للحكم والقيادة، وأخذت عليه (خطأه) في التصدي للسلطة بالعدد القليل الذي سار معه وظل معه إلى نهاية المطاف. . وذهب مؤرخون (إسلاميون) إلى عرض ثورته وكأنها منافسة عادية بين طرفين متكافئين في الإمكانات والمؤهلات ينتميان إلى أصل رفيع من قريش، (أخطأ)، فيها الإمام الحسين عليه السلام عندما لم يقدّر حجم قوته وسار إلى موت محتم، كما (أخطأ) فيها يزيد عندما أصدر أوامره للقيام بتلك المجزرة المروعة في الطف، وذهب قسم منهم إلى حد تبرئة يزيد منها وإلقاء تبعة ذلك على ابن زياد أو ابن سعد أو شمر ـ كما رأينا في غضون هذه الدراسة ـ عندما استعرضنا بعض الآراء التي وردت حول هذه الثورة المباركة التي أقدم فيها إمام الأمة على ذلك التحدي الصاعق الذي لا يزال يهزّ الأمة ويدفعها للتحرك الإيجابي السريع بوجه كل دول الظلم المتعاقبة ـ مع أنه ـ وكما بيّنا ـ لو كان يريد الحصول على مكاسب رخيصة وكان مجرد منافس عادي متلهف على الحكم والسلطان حباً بهما وحسب، لكان قد ساوم يزيد وهادنه ووضع يده في يده وأقر انحرافه، ولكان قد حصل على حصة كبيرة من المغانم والإقطاعات بل وعلى مملكة يسعى إليها ويتمناها أيُّ طموح عادي حريص على ما يحرص عليه الطامعون والطموحون والمغامرون العاديون[٢]، ولما كان يسير نحو ذلك الاستشهاد المؤكد الذي كان يستهدف تخليص الأمة من قيود الانحراف والشرك الجديد.

---

(١) أهل البيت ـ دور الأئمة بعد وفاة الرسول ص ٥٩.

(٢) تحدثنا عن هذا الموضوع بإسهاب في (الحسين ومسؤولية الثورة) وتطرقنا إلى الدوافع التي جعلته يقدم على الثورة بتلك السرعة وذلك الحسم بعد هلاك معاوية مباشرة. .

محاولة إعادة التجربة إلى خطها الصحيح

لقد بيّنا أن الإمام الحسين عليه السلام لم تكن تدفعه رغبة مجردة لاستلام الحكم، وإنما كانت تدفعه رغبة حقيقية لإعادة التجربة الإسلامية إلى خطها الصحيح وتحصينها من الإنحراف والسقوط، وكان هو الشخص المؤهل والمكلف الأول لقيادة هذه التجربة وحمايتها بما يمتلكه من إمكانات ومؤهلات فريدة لم تتح لغيره، ولم يكن ليندفع بعاطفة أو رغبة مجردة لاستلام السلطة بمجرد أن يشار عليه بذلك ودون دراسة الظروف الموضوعية التي تحتم عليه إعلان ثورته، وقد رأينا كيف أنه لم يثر بوجه معاوية بعد وفاة الإمام الحسن عليه السلام رغم أن العديد من المسلمين دعوه إلى ذلك، مع أنه أعلن رأيه بيزيد صراحة ولم يقر معاوية على مبايعته خليفة له وبقي مصرّاً على موقفه من يزيد طيلة حياة معاوية وبادر بالخروج من المدينة وإعلان ثورته من مكة حالما وصلته أخبار وفاة معاوية.

لقد رأى أن التجربة ستسقط نهائياً وتاماً على يدي يزيد، وأنه سيجعل من هذا السقوط ويجعل منه أمراً محتماً، بل ويبدو وكأنه الأمر الطبيعي الذي تنتهي إليه الأمور، بل وإنه سيمنح السقوط شرعية الوجود إذا ما وضع يديه في يدي يزيد وأقر له بالخلافة والإمامة على الأمة المسلمة.

إنه برفضه الاستسلام والمبايعة، وإعلانه ذلك على رؤوس الأشهاد من أبناء الأمة، وخروجه بذلك الشكل الملحمي السافر أمام أنظار أهل مدينته ومكة والحجيج الذين توافدوا من مختلف أقطار العالم الإسلامي لأداء أهم الفرائض المقدسة والالتقاء ببعضهم لتجديد عهدهم مع الله ورسوله صلى الله عليه وآله والبراءة من المشركين ورفع كلمة التوحيد وترديدها بألسنتهم بعد أن ترددت في قلوبهم، يعطي لكلمة التوحيد معناها الحقيقي، فهو يسير لمواجهة صنم جديد صنعته قوى عاتية ادعت انتماءها للإسلام، صنم بشري ضخم لن يقدر له أن يموت إلا بعد أن ينشطر ويتكاثر إلى مئات الأصنام الجدّيدة التي ستعلن ألوهيتها، وإن لم تقل ذلك صراحة، وتطلب من الأمة أن تدين لها وحدها بالطاعة حتى وإن تعارض ذلك مع قانون الإسلام وشريعة الإسلام فقانونها وشريعتها هما الأهم والأجدر الاتباع ما داما يحققان لها السيطرة على الأمة واستعبادها وإخضاعها وسلب حقوقها ومكاسبها.

إنه يعلن عزمه على تصحيح الأوضاع ومنع استفحال الانحراف واستلام التجربة بنفسه، وبذلك فإنه فوت الفرصة إلى الأبد على الحكم الأموي لإضفاء الشرعية على وجوده، وعزّز ذلك استشهاده المريع على عرصة كربلاء إذ نبّه الأمة بشكل واضح إلى المخاطر التي تتعرض لها بوجود يزيد خليفة لرسول الله ﷺ وقائداً لعموم المسلمين، كما فوت الفرصة على كل نظام فرعوني متسلط انتهج الأسلوب الأموي في الحكم والحياة ليدعي شرعية وجوده وأحقيته في الحكم واستلام التجربة الإسلامية بعد تجريدها من مقومات وجودها الحقيقية.

كشف مسيرة الفراعنة

لقد كشف مسيرة الفراعنة كلهم وعرّاهم أمام الأمة المسلمة بعد أن أصبح عاملّا مهماً من عوامل تحصينها من الغفلة والانقياد للظلم والانحراف وأوجد لديها القدرة على رصد تحركاتهم وألاعيبهم وادعاءاتهم الجوفاء بالحرص على الإسلام وأمة الإسلام على السواء، وقد طعم دماءها بدمه الشريف ليكون عاملّا على أن يكون بكل دم منها قطرة حية متجددة تنقذها من الهلاك والتردي، إذ ما فائدة أن يدعو الناس للتضحية بأموالهم وأنفسهم لمواجهة الظلم والإنحراف والشرك الجديد ويضنّ هو بأمواله ودمه وحياته؟ هل سيكون هناك معنى للشعارات التي رفعها طيلة حياته وآمن بها وأراد غيره أن يؤمنوا بها إذا لم تتجسد بفعل إيجابي واع مؤثر كذلك الذي أقدم عليه بشجاعه منقطعة النظير وكانت حياته العزيزة ثمناً له؟

إنه عندما أعلن رفضه ليزيد في حياة معاوية، فإنه كان بذلك يعلن رفضه لمعاوية نفسه والانحراف الأموي بصورة عامة، وقد أعلن ذلك صراحة ـ كما بيّنا ـ في إحدى رسائله إليه، غير أنه سار بنفسه لمواجهة يزيد والحكم الأموي حينما رأى أن مسؤوليته الاستثنائية كانت تحتم عليه هذا المسير، وقد وضع بذلك أبناء الأمة كلهم أمام مسؤولياتهم وجعل العديدين منهم يندمون أنهم لم يسيروا معه ولم يناصروه وتخاذلوا أمام الإرهاب الأموي.

ولم يجعل الأمة تدرك مسؤولياتها زمن وقوع حدث الثورة وحسب، بل جعلها تتلمس خطوات تلك الثورة وتتأمل أبعادها ومضامينها ويحاول العديدون من أبنائها التأسي بمن بذل دمه وحياته في سبيلها، وانتهاج خطواته حتى وإن بعدت الشقة وطال الزمن.

التضحية بالنفس لحماية الأمة

إن إقدام إمام الأمة بالتضحية بنفسه بذلك الشكل النادر، لحماية الأمة وتحصينها من الإنهيار والسقوط النهائي والحفاظ على خط الإمامة والخلافة الذي أقامه رسول الله ﷺ، وكان هو أول إمام وخليفة أقام حكم الله في الأمة التي أنشأها وربّاها، يجعل الكثيرين يدركون أن الحال قد بلغ مبلغاً سيئاً لا يمكن معه إنقاذ الأمة بمجرد الانزواء في مكان بعيد حصين مثل جبال اليمن، كما اقترح عليه ابن عباس، والاحتجاج من هناك، ورفع العقيرة بالصياح والكلمات الغاضبة الرافضة التي لن تتحول إلا إلى صدى أجوف يتردد بين الصخور، بل لا بد من فعل حاسم وسريع حتى وإن كان الرد عليه عنيفاً وحاسماً وسريعاً أيضاً، فالأمة المستسلمة المخدّرة لن توقضها الصرخات والأقوال، ولا بد من هزّة قوية تحركَ ذلك الجسد الجامد الذي يوشك أن يتعرض لخطر الموت والاندثار، وإلا ضاع كل شيء إلى الأبد.

وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام عندما لم ير بداً من ذلك وعندما رأى أن ما قام به هو الأمر الوحيد الذي يجب أن يقوم به دون إبطاء أو تردد.. وهو ما وضع أولئك الذين اتهموه ـ كما اتهموا أباه أمير المؤمنين عليه السلام من قبل بالتهالك على السلطة وحسب متجاهلين عن عمد دوافعه الحقيقية لمقاومة الانحراف الذي بدأ يستشري في أوساط الأمة ومفاصل المجتمع منحدراً إليها من الرؤوس التي تنكرت للإسلام وشنت الحرب عليه وأرادته إسلاماً أموياً يستجيب لرغبات معاوية ويزيد وأمثالهما من الطواغيت الذين تسللوا للإسلام وسرقوا مكتسبات المسلمين التي حققوها في ظله، هو ما وضعهم في زاوية ضيقة وعرّاهم وكشفهم وجعلهم هم أنفسهم محل اتهام من قبل الأمة، حينما شنوا حملتهم المكشوفة عليه والتي عرفت دوافعها الحقيقية من قبل الأمة كلها.

وإلا فأية مأثرة حقيقية يمكن أن تذكر ليزيد، وأية مؤهلات تجعله جديراً باحتلال منبر رسول الله ﷺ وأية صلة حقيقية بينه وبين الرسول ﷺ وهو خليفته وممثله؟ وماذا يمكن أن تجني الأمة من هذه الخلافة المسروقة سوى البؤس والضياع الأبدي والبعد عن الإسلام والعودة إلى الفرعونية والشرك!؟

إن نظرة حقيقية إلى ثورة الحسين تجعلنا ندرك أنها قد فعلت فعلها ولا تزال في نفوس الكثيرين من أبناء الأمة، وأنها لا تزال تزودهم بعطاءات مستمرة وزخم إيماني قوي قائم على عرى الإسلام الوثيقة وروحه وأهدافه السامية الأصيلة.

بدون فهم الإسلام لن نستطيع فهم ثورة الحسين

إننا بدون فهم للإسلام وتصوراته، لن نستطيع فهم ثورة الحسين عليه السلام، كما لن نستطيع فهم الدوافع الحقيقية التي دعت آلاف المسلمين إلى الاستشهاد والتضحية والإقدام على مواجهة القوى الشريرة ذات الإمكانات الكبيرة والتي لا تتورع عن استخدام أشد الأساليب قسوة لمواجهتهم وقمعهم، حاسبين أنهم أقوى من أعدائهم القساة طالما أنهم استطاعوا الالتحاق بموكب أنصار الحسين الطويل الدائم الذي لا ينقطع ولا يعدم من يضع دمه على كفه وأقصى أمله أن يكون منهم ليفوز فوزاً عظيماً كما فازوا هم.

وما دمنا نعالج قضايا إسلامية، فعلينا أن ننظر إليها من زوايا إسلامية وعقلية إسلامية غير متأرجحة وغير مشوبة بنظرات وتصورات وقيم دخيلة غريبة وطارئة على الإسلام.

كان التلاعب بالإسلام وأحكامه ومعالجة القضايا الإسلامية بأسلوب غير إسلامي، أحد أساليب معاوية المفضوحة التي أراد أن يسخر بها من الأمة ومن كل المضحين في سبيلها على امتداد تاريخها القصير لكن الحافل، وقد مدّ لهم لسانه وكأنه يقول: إن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله واستشهد في سبيله حمزة وجعفر وياسر وعمار وآلاف من شهداء الإسلام أصبح بيدي الآن أتلاعب به كيفما أشاء وأتركه غنيمة باردة لولدي يزيد.

وقد وجد من يصفق له ويرفع عقيرته بالصياح مؤيداً من بين أوساط حاولت أن تفرض لها مكانة مرموقة بين أبناء الأمة من القصاص والوعاظ ومزوري الحديث والشعراء ومن لف لفهم من بين المغامرين وطالبي الثروة والحكم والجاه.. وإلا ألم يكن خروجه المتعمد عن العديد من أحكام الإسلام الواضحة استهانة بالإسلام واستخفافاً بقدرة الله والرسول المنزل على الخلق رحمة وقدوة؟

هل كان معاوية يعمل من أجل الإسلام حقاً، أم أنه كان يحقق مصالحه ويكرس لوجوده وديمومة حكمه وحكم عائلته من بعده إلى الأبد؟ لقد رأى فقهاء الدولة وموظفوها وقادتها وقصاصوها ومحدثوها وشعراؤها وأهل الرأي والعقد فيها ما رأى لهم معاوية ويزيد من بعده أيضاً، لأنهم رأوا أن لهم حصة من الغنيمة وأنهم يستطيعون تحقيق المكاسب والأرباح في ظلهما أكثر مما يحققونه في ظل أي نظام آخر قد يرونه

شديد الوطأة عليهم، غير متساهل معهم، وكانت لهم تجربة سابقة في ظل حكومة أمير المؤمنين عليه السلام، فإذا ما جاء حكم آخر، امتداداً لحكمه، كحكم الإمام الحسين عليه السلام مثلًا فإن فرصة المكاسب غير المشروعة والثروة والجاه على حساب الآخرين ستفوت إلى الأبد وإذا ما عاد الإسلام للسيطرة والنفوذ. إنهم لم يروا إلا أنفسهم ومصالحهم أيضاً، وعودة إلى طبيعة النظام الأموي والقشرة اللماعة التي تغلفه من هؤلاء الفقهاء والوعاظ والقصاصين والمحدثين وغيرهم تثبت أننا لم نجانب الصواب في ذلك.

وإذا ما حاولنا نتساءل: إذا ما كان أولئك قد حصلوا على أرباحهم في ظل النظام الذي آزروه ودافعوا عنه، فما سيجني أولئك الذين يدافعون عنه بعد زواله وإلى يومنا هذا بنفس حماس موظفيه ومحدثيه وقصاصيه وغيرهم، بعد أن أبيد هذا النظام وأصبح أثراً غابراً من آثار الماضي وصفحة سوداء من صفحات تاريخنا الإسلامي الطويل، ولم يعد يستطيع أن يقدم لهم ما قدم لأعوانه ومؤازريه عندما كان حياً مسيطراً؟ إن هذا أمر محيّر للبعض!

غير أن الحيرة تزول إذا ما علمنا أنهم يعيشون في ظل أوضاع وحكومات لا تختلف عن تلك الحكومة الفرعونية الأموية الأولى، سواء في العهد العباسي أو غيره، يرى رؤوسها أن يُمجد أولئك الأمويون ليمجدوا هم وليستطيعوا ادعاء الشرعية المزيفة كما ادعوه وليقيموا على أساسها كيانهم ووجودهم، ما دام قد أصبح أمراً واقعاً مفروضاً على الأمة كما كان النظام الأموي من قبل.

إن بعض المُحدثين انبهروا ببعض الأسماء القديمة من وعاظ السلاطين الذين رفعت الدولة منزلتهم، ليرفعوا هم بدورهم منزلتها، وانخدعت بأباطيلهم وترهاتهم، ورأوا أنهم ما داموا قد أقروا بشرعية بل بضرورة وجود الدولة الأموية، فإن عليهم هم بدورهم واستمراراً لخطة (السلف الصالح) من هؤلاء (الصحابة) و (التابعين) أن يقروا بشرعية وجودها والدفاع عنها بنفس الحماس الذي دافع به موظفوها الأوائل واستنكار أي خروج أو ثورة عليها، وإن كان الثائر هو الإمام الحسين نفسه، واعتبار ذلك خروجاً على الإسلام، فيروحون يستعملون نفس الأساليب الملتوية والأحاديث الملفقة عن الرسول صلى الله عليه وآله والأقاصيص الغريبة والتأويلات الكاذبة التي استعملها أولئك الأوائل في ظل الدولة الأموية وتحت أشرافها وتوجيهها، ليدللوا على صحة وشرعية بقاء الدولة و (الخليفة) وهم يلمسون ما يقدمه لهم من قصاع دسمه وأصفر رنّان.

وإذا ما تتبعنا دوافع بعض هؤلاء رأينا أنها تتعدى الأهداف العادية وكونهم يعيشون في ظل فرعون محلي صغير، وأنهم يعملون لتنفيذ مخططات أوسع يرسمها أعداء الإسلام الذين خلقوا هؤلاء الفراعنة ووقفوا وراءهم يوجهونهم ويرمون بهم الشعوب المظلومة المغلوبة، ولا بد لمواجهة وعيها من مخططات أكثر استحكاماً وفاعلية.. ولا بد من كتَّاب و (مفكرين) مأجورين و (وعّاظ) للشعوب يتقوى بهم السلاطين ليكونوا أكثر قدرة على خدمة أسيادهم الكبار فيما وراء البحار..!

١٤ - نتائج للمستقبل

إصرار على الشهادة.. إصرار على النصر

يُدهش العديدون من الكتاب والباحثين وغيرهم، من الإصرار والثبات اللذين مضى بهما الإمام نحو هدفه واللذين طبعا ثورته ـ في كل مراحلها ـ بطابعهما الواضح المعروف، رغم أن احتمال الموت كان قائماً بنسبة كبيرة، بل أنه عليه السلام قد أشار في مواقف عديدة إلى أنه كان أمراً مؤكداً[١]، فهو لم يفد على أمر قد مُهِّد له، ولم يسر على بساط من الورود[٢]، ولم يكن يجهل الطبيعة العدوانية الشرسة لأعدائه والتي سيواجه بها إذا ما أقدم على الثورة، ومع ذلك عزم أمره وتوكل وسار، ولم تثنه التحذيرات العديدة التي وجهت له ممن يميلون إليه ومن خصومه على السواء.

إن من لا يمتلك تصوراً إسلامياً صحيحاً عن طبيعة النظرة الإسلامية الشمولية لكل أمور الحياة، وعن طبيعة المواجهة التي كان يتعرض لها المسلمون في ذلك الوقت ـ وفي غيره من الأوقات، لا يسعه أن يستوعب العديد من التصرفات والممارسات الإسلامية التي قد تبدو بنظره دون هدف أو فائدة حقيقية.

إذ كيف يمضي الحسين إلى الموت، وما الفائدة التي خباها من ذلك وهو يعلم أنه قد لا يتمكن من الإطاحة بخصومه أو التغلب عليهم عند المواجهة أو المنازلة..!

هذا هو السؤال المحيّر الذي يطرحه هؤلاء!

وإذا ما عرفنا طبيعة الظروف التي أحاطت بالثورة، ودفعت الإمام الحسين عليه السلام للنهوض بوجه الحكم الأموي اليزيدي المتسلط الذي كان يشكل بداية لسلسلة من أنظمة الحكم المتسلطة الأخرى، أصبح علينا أن نناقش أولئك المندهشين والحائرين، من وجهة نظر إسلامية بحتة، فقد نرى أن من حقهم أن

---

(١) وقد تطرقنا إلى ذلك بالتفصيل في غضون هذا الكتاب.

(٢) وهذا التعبير الأخير استعمله أحد الكتاب المصريين للتدليل على عدم جدوى مسير الحسين عليه السلام إلى العراق ما دام الدرب كان محفوفاً بالمخاطر...

يندهشوا أو يحتاروا إذا ما تناولوا المسألة من وجهة نظر عادية بحتة، أو تعتمد على أحد التصورات القائمة الأخرى، أو وجهة نظر تناقش المسألة وكأنها صراع بين شخصين على السلطة بغض النظر عن مؤهلاتهما والدوافع الحقيقية لكل منهما.

هل كان دافع الحسين عليه السلام إعادة السلطة إلى أصحابها الشرعيين، لأنه كان هو صاحبها الشرعي وحسب؟ وكيف يعمل في هذه الحال على أن يفقد كل شيء بما في ذلك حياته في سبيل شيء هو جزء من حياته؟ أم أن دافعه كان صيانة التجربة الإسلامية كلها من الانحراف والسقوط الذي كانت على وشك الوصول إليه؟

وهل كانت دوافع يزيد لقمع الثورة دوافع إسلامية بحتة تحتم عليه شعوراً بالمسؤولية لتجنيب الأمة الوهن والفرقة والاختلاف، وليحافظ على بيضة الإسلام وراية الإسلام وعز الإسلام، أم أن دافعه كان الحفاظ على عرشه الذي وصل إليه بالقوة والإكراه وسفك دماء آلاف المسلمين؟

لقد أجبنا عن هذين السؤالين في الفصول السابقة بالتفصيل، وعلمنا الدوافع الحقيقية الكامنة خلف ثورة الحسين، والدوافع التي جعلت يزيد يقدم على قمعها بتلك الشدة وذلك العنف الرهيب، بعد أن رأينا من هو الحسين، ومن هو يزيد، ورأينا موقع كل منهما من الأمة، ورأينا طبيعة العقلية والتصورات والفهم التي يحملها كل منهما عن الإسلام.

لماذا لم يتراجع مع أنه يعلم أنه مقتول لا محالة

وإذاً: لماذا مضى الحسين في ثورته ولم يتراجع رغم علمه أنه مقتول لا محالة؟

وكيف انتصر من أنه قتل؟

وكيف ينتصر مَن يعلم أنه مقتول، ويقدم على ما أقدم عليه الحسين عليه السلام من قبل؟

هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها في غياب التصور الإسلامي والفهم الإسلامي اللذين أرسى رسول الله ﷺ قواعدهما بنفسه وحاول أن يربي عليهما جيل الصحابة المعاصر له وعموم المسلمين فيما بعد، ولا يمكن الإجابة عنها من وجهة نظر غريبة عن الإسلام، حتى وإن كانت منسوبة إلى دين (سماوي) آخر، فكلنا نعلم كيف مسخت الأديان الأخرى وحرفت وزورت لتصبح في صالح (قيصر) وتكون أداة بيده لترويض الشعوب وتنويمها وإسكاتها، ولا يمكن الإجابة عنها من وجهة نظر

(إسلامية) لا تفهم من الإسلام إلا أنه تراث حملته الأمة لتطبقه فترة من الزمن ثم أصبح (يتقاطع) مع حياتها، ولم يعودوا يرون فيه إلا بعض الجوانب الأخلاقية والوصايا التي تمنع عن (الرذيلة) وتدعو (للفضيلة) ويرون أن الأجدر به ألا يتدخل في شؤون السياسة والحكم والأمور العامة وقضايا الناس الشخصية.

التصور الإسلامي لخلافة الإنسان يضع بنظر الاعتبار أن هذه الخلافة أمانة من الله، وهي تكليف منه بعقد مشروط لا يجوز الخروج عن أي بند من بنوده، أو الإخلال به. إن المراقبة الدقيقة الكاملة لمتابعة مدى تنفيذ شروط هذه الخلافة تتم من قبل الله العليم القدير نفسه الذي لا تخفى عنه خافية والذي يحيط بكل شيء علماً.. إن ذلك يستدعي أن يكون كل فرد من أبناء هذه الأمة على أعلى مراحل التيقظ والانتباه والقدرة على المحاسبة الدقيقة لنفسه قبل أن يحاسبه الآخرون وفق المقاييس التي وضعها الإسلام، لا تلك التي وضعها فراعنة الأمة الجدد ليتلاعبوا بمقدرات المسلمين. إن النجاح في تحمل أعباء هذه الخلافة والقيام بمهماتها على الوجه الأكمل وعلى مختلف المستويات هو الذي يتيح له الفوز بالحياة الكاملة النهائية السعيدة، لا في هذه الحياة الدنيا القصيرة وحسب، التي يعد فيها لاختبار قصير الأجل يثبت فيه انتماءه للإسلام وصدق حبه له ورغبته في أن يسود ويحكم كوحدة كاملة غير مجزأة أو مقطّعة عن بعضها.

الثواب والعقاب.. هنا وفي والآخرة

إن فكرة الجزاء' الثواب والعقاب في الآخرة وفق عدالة الله وشريعته، وهي التي تهيمن على شعور المسلم وعقليته، فتطبعه بطابعها وتجعله على مستوى الأهداف الكبيرة التي يخطط لها الإسلام، لا على مستوى الشوط القصير الذي يحدد به عمره. لو كان الهدف بمستوى هذا الشوط القصير، لتوقف الإنسان عن سعيه لمصلحة الإنسانية، ولأصبحت الحياة الحاضرة بنظره هي الهدف النهائي الذي ينبغي أن يبذل كل جهوده وقواه ـ ولو على حساب الآخرين وسعادتهم ـ لتكون حياة طيبة مريحة سهلة له هو شخصياً ولا يهم ما يلحق بغيره من نصب أو دمار.

وغالباً ما تكون الأهداف الجليلة التي يسعى المسلم لتحقيقها، في ظل تصوره وفهمه الإسلامي، أوسع من عمره وأبعد مدى، وقد لا يستفيد هو شخصياً من نتائجها ومعطياتها ولا يستطيع تحقيق شيء منها خلال حياته، بل لقد يصيبه من الأذى في

سبيلها أكثر مما يحققه من فائدة، اللهم إلا تلك السعادة الغامرة التي يشعر بها وهو يعلم أنه يطيع الله بعمله ويتفانى في سبيله.

لو كان هدف الإمام الحسين عليه السلام مرتبطاً بالفترة الزمنية التي كان يعيشها على هذه الأرض، لما كان قد سعى إلى ما سعى إليه، ولكان قد اكتفى بمغانم عديدة لا بد أن يحصل عليها من يزيد وأشباهه إذا ما وضع يده في يده، ليقضي بقية العمر آمناً سعيداً..! غير أنه ارتبط بهدف أكبر، ألقى عليه مسؤولية كبيرة! هدف يعلم حق العلم أنه لن يستطيع جني ثماره في هذا الشوط الأولي من الحياة، وأن غيره، ربما بعد عشرات السنين أو مئات السنين سيستطيعون تحقيقه وجني ثماره، غير أنه علم أيضاً أنه يخوص اختباراً حاسماً، لا بد أن يثبت فيه صدق انتمائه للإسلام وصدق إيمانه بقيمه كاملة، ولا بد أن يكون في مقدمة الذين يفعلون ذلك بحكم موقعه وشعوره الكبير بالمسؤولية. إنه ينتظر جزاء أكبر من ذلك الذي قد يتاح له على الأرض إذا ما حقق هدفه.

أراد أن يضع الأمة بمستوى أهداف الاسلام

لقد أراد الحسين عليه السلام أن يضع المسلمين، والبشرية كلها بعد ذلك، بمستوى الأهداف الكبيرة للإسلام، لأن البشرية إذا أصبحت (على متسوى الأهداف الكبيرة، لأنها انطلقت في غاياتها.. إلى أكثر من حدود هذه الدنيا، حينئذٍ تستطيع أن تقوم بأعباء تلك الأهداف الكبيرة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1]، كم من الناس درسوا وماتوا قبل أن يحققوا النتيجة؟ كم من الآلاف المجاهدين خرجوا للحرب واستشهدوا قبل أن يذوقوا لذة النصرة والانتصار؟ كم من الآلاف من المجاهدين والمعلمين طافوا وتحملوا في سبيل مباحثهم من الأذى والظلم والإهانة وماتوا قبل أن يذوقوا لذة الانتصار؟ إن هؤلاء حين خرجوا من بيوتهم، وهاجروا في سبيل الله سبحانه وتعالى وماتوا وسط الطريق، وقع أجرهم على الله، وبذلك انفتح أمام هؤلاء طريق هذه الأهداف الكبيرة، فلا يهم هذا الإنسان القصير العمر أن يموت خلال الخطوة الأولى أو الثانية، ما دام يسير في خط، في أي

(١) النساء ١٠٠.

مرحلة منه يموت يقع أجره على الله! هنا انفتح طريق الأهداف الكبيرة، انفتح باب أن القيم الخلقية لا معنى لها، ما لم تكن على مستوى الأهداف الكبيرة والجزاء الكبير غير المنظور. والقيم الخلقية من التضحية والفداء والحب والإيثار ونحو ذلك من الأمور، كل هذه انفتح بابها لأنها جميعاً طرق الله سبحانه وتعالى، كل من يمشي في طريق من هذه الطرق، ويموت ويخسر ويبتدىء تجاهها بصدمه يقع أجره على الله سبحانه وتعالى، كل من يضحي فلا يلاقي جزاء تضحيته يقع أجره على الله. . .)[1].

لقد فتح الإمام الحسين عليه السلام الباب على مصراعيه أمام الأمة ليقوم كل فرد منها بدوره المقرر له على ضوء الإسلام، وجعل أولئك المتصدين للظلم والثائرين والمنكرين للمنكر والجور والاستغلال والظلم يدركون أنهم لم يخسروا حتماً حتى وإن فقدوا حياتهم وأموالهم وكل شيء، وأنهم قد نجحوا في هذا الشوط القصير في هذه الدنيا، وأن فوزهم مؤكد في الآخرة، وأن جهودهم لم تذهب سدى ولم تضع، لقد جعلهم يطمئنون إلى صحة توجهاتهم وأهدافهم، وقد أصبحوا عاملًا من عوامل الضبط والكبح والمعارضة ضد أي تماد أو انحراف أو خرق معلن لأي حد من حدود الإسلام.

فزت وربّ الكعبة

وقد فتح أمير المؤمنين عليه السلام من قبله باباً كبيراً للجميع، قبل أن تنتهي حياته بضربة غادرة من خارج عن الإسلام عندما قال بتلقائية عجيبة وبكلمات جمعت حصيلة عمره وكفاحه كله: (فزت وربّ الكعبة). . . كان يمكن من وجهة نظر غريبة عن الإسلام، ولو لم يكن عليه السلام قد كرّس حياته حقيقة لخدمته وفي سبيله، أن ييتئس وأن يحزن لانتهاء حياته بذلك الشكل الفاجع وضياع جهوده الطويلة التي استغرقت حياته كلها في جهاد أعدائه الذين هم أعداء الإسلام، لو لم يكن يذوب حباً في خالقه ومعبوده وحبيبه، ولو لم يكن هو نفسه إسلاماً حياً متنقلًا وقرآناً ناطقاً بحكمة الله وكلماته ومجسداً لكل ما يريده من فعل خيّر بنّاء.

رأى أنه يستطيع الآن بعد تلك الضربة الغادرة التي أنبأه بها رسول الله صلى الله عليه وآله من

---

(١) أهل البيت ١١٨ - ١١٩.

قبل أن يجني ثمار تلك الحياة والجهود المتواصلة في سبيل الإسلام[1]. أحسَّ أنه يقبل هنا على الحياة الأخرى الدائمية التي يبدأ فيها الجزاء، وأيقن عندما عرف سلامة سيرته وصحتها واستقامتها على نهج أخيه وابن عمه ﷺ، أنه قد فاز فوزاً حقيقياً ـ حتى لقد أقسم على ذلك محبوراً وكأنه كان يبشر نفسه ذاتها بالمصير السعيد ـ وأنه لم يخسر أبداً. . كان سعيداً أن تنتهي حياته على يد شر خلقه، وأنه استطاع الصمود والثبات طيلة هذه الحياة والوقوف في صف الإسلام وفي مقدمة الداعين إليه والمدافعين عنه وعن المستضعفين والمغلوبين والمقهورين.

لقد أصبح حلماً جميلًا للمسلمين أن يكونوا على بيّنة من أمرهم خلف راية إمام عادل، ليفوزوا فوزاً عظيماً، حتى وإن كان ثمن هذا الفوز التضحية بحياتهم وبأعز ما يملكون.

أصبح فوز أمير المؤمنين عليه السلام وفوز الحسين عليه السلام من بعده، أملًا لجماهير واسعة من المسلمين، لا من أبناء الشيعة وحسب، أخذت تروض أنفسها، وتعدها لتكون بمثل تلك القوة والصلابة التي كانت عليها نفسا الرجلين الكبيرين؛ وإذ أن ذلك لن يتاح إلا لمن بلغ الذروة من الشعور بالمسؤولية تجاه نفسه وأمته، وإذ أن أحداً لن يستطيع الوصول إلى مستوى الرجلين العظيمين، فإن طموحاً دائمياً يظل يراود المسلمين بأن يكونوا بمتسوى أصحابهما الذين وقفوا معهما وقفتهما الصلبة الشجاعة. . ونموذج أصحاب أمير المؤمنين وأنصار الحسين ممكن التكرار والحدوث. .

ويمكن لمن فهم تصورهما ونهجهما ووقف موقفهما من الظلم والانحراف أن يكون أحد أولئك الأصحاب والأنصار الأعزاء، وإن بعدت الشقة وطال الزمن. . .

(١) ذكر عليه السلام عندما قام إليه رجل وسأله عن الفتنة، وهل أخبره رسول الله ﷺ عنها، فقال: (إنه لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بين أظهرنا. فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي أخبرك الله تعالى بها؟ فقال: «يا علي، إن أمتي سيفتنون من بعدي»، . فقلتُ: يا رسول الله، أوليس قد قلت لي يومَ أُحُد حين استشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة، فشقّ ذلك علي، فقلت لي: «أبشر فإن الشهادة من ورائك» فقال لي: « إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر. .) نهج البلاغة ص ٢٢٠ وقد ألمح عليه السلام عدة مرات وفي عدة مناسبات إلى ما سيصيبه على يد ابن ملجم الخارجي.

١٥ - تكوين الطليعة العقائدية

من هي الطليعة العقائدية، وما مواصفاتها، ولماذا الطليعة العقائدية؟ الطليعة العقائدية هي المجموعة من أبناء الإسلام التي تحمله حملًا واعياً قائماً على أساس التصور والفهم السليمين اللذين عبر عنهما القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ والأئمة الراشدين من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

هذه الطليعة ترتبط بوشائج من القرابة الحميمة والود العميق القائمين على الحب في الله، مع كل من حمل الإسلام بروحه وضميره وفكره وكرس حياته لنشره والدفاع عنه وتشعر أنهم جميعاً وحدة واحدة توزعت في أجسام مختلفة.. وطن هذه الطليعة الإسلام. وأملها الإسلام. ومستقبلها الإسلام. لا ترى شيئاً إلا وترى الله معه وقبله وبعده وفيه، على حد تعبير أمير المؤمنين عليه السلام.

لا ترى هذه الطليعة في الزمن أو الجنس أو اللغة أو العمر عائقاً أمام التحامها وتوحدها وتوجهها وحركتها وفعلها.

الطليعة العقائدية لا تخضع لفرعون وأهواء فرعون ولا تنحني له أو تهادنه أو تسالمه، ما دام حرباً على الله ورسوله ﷺ ودينه، وإنما ترى فيه عقبة كبرى أمام نهوض الأمة ومستقبلها وازدهارها.

تعرف من تعبد وما تدين به وتعرف أين تضع أقدامها وتعرف ما تريد بالضبط، ليست استجابتها للإسلام استجابة غامضة غير واعية، وإنما استجابة قائمة على فهم يتمثل سلوكاً وعملًا يبرز الإسلام كفعل محرك مؤثر مليء بالحرارة والحياة، لا كنشاط فكري أو عقلي أو طقوسي أو ميل أو هوى مجرد..

تنتشر الطليعة العقائدية في جسد الأمة كالدم النقي يسري في شرايينها وعروقها فيجدد نشاطها وحيويتها بل وكل حياتها ووجودها.

لا تعرف هذه الطلعية الخوف إلا من الله، وتعرف الحب لله وفيه ومن أجله، تذوب شوقاً إليه ويتملكها الهلع والخوف من خشيته، وترى القتل في سبيله سعادة.

تعمل هذه الطليعة على أن تكون الأمة كلها طليعة لأمم إسلامية مقبلة، ترفل بعزّ الإسلام وتعيش حياة الإسلام وتحت ظلاله وتفوز بخيره ونعيمه.

لم يكن بد من إعداد هذه الطليعة في البداية على عهد رسول الله ﷺ لكي ينتشر الإسلام، لا الانتشار السطحي المعرض لهبات الرياح وعبث العابثين، ولكن الانتشار العميق المتجذر القوي المثمر، وقد قام هو ﷺ بإعدادها وتربيتها لتأخذ دورها في توجيه الأمة وتربيتها فيما بعد.

وكان يمثل الإسلام أمامها، وقد أرادها أن تبدو بصورته وتحمله حملًا واعياً حقيقياً لتكون نموذجاً حياً شاخصاً متحركاً أمام الأمة كلها..

وقد أرادها أيضاً أن تكمل المسيرة بعده إذا ما اختفى من ساحة الحياة، فمن غير المعقول أن يمتد به العمر إلى ما لا نهاية على هذه الأرض ليقوم هو وحده وبشكل شخصي بتبليغ هذه الرسالة لكل الناس على العصور.

ولا بد أن يحملها معه آخرون خلال حياته وبعد وفاته ﷺ أيضاً، ومن الطبيعي أن لا يحمل الجميع هذه الرسالة بنفس القدر من الفهم والوعي والشعور بالمسؤولية! فقد تكون في نفوس البعض ترسبات جاهلية، وقد تطفو على السطح عند أقل إثارة أو هزة، وقد يكون ذلك في المواقف والأوقات الحساسة والعصيبة التي تشكل مفارق طرق مهمة في حياة الأمة، وقد يكون ذلك سبباً لتعاستها وفقدان أمنها إلى الأبد.

وقد لا يكون هؤلاء على نفس القدر من الوعي والبصيرة والفهم ممّن لم تدنسهم الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها، وعاشوا منذ البداية أنقياء الثياب طاهري الذيل يحملون تصورات وقيم وهموم صاحب الرسالة ﷺ ويرون في مثله الأعلى مثلهم الأعلى الكامل الحي ذي القوة المكين.. وقد أصبح الإسلام أهم جزء من حياتهم، بل كل حياتهم ووجودهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، ويرون أن البشرية برمتها لا تستطيع الاستغناء عنه كذلك لأنه المنهج العملي الحي الوحيد القادر على تحقيق سعادتها وإزالة تناقضاتها.. وينعكس بشكل إيجابي على مجالات حياة وعمل الإنسان وتضمن سلامة تصرفاته مع الله سبحانه وتعالى ومع نفسه ومع الآخرين، وتضمن له استقراراً عاطفياً ونفسياً قائماً على تواصل وجداني مستمر مع هذا الدين ومن يحمل هذا الدين.

وبعبارة: إنه إنسان يهيمن الإسلام عليه بشكل تام ويحتل كل مشاعره وتفكيره وحياته.

حاول رسول الله ﷺ تكوين وتربية الطليعة العقائدية منذ قيامه بمهمة نشر الرسالة الإسلامية، وكانت تلك المهمة الوحيدة في العهد المكي قبل أن ينتقل إلى المدينة لإنشاء دولة المسلمين الأولى! كان يريدهم أن يأخذوا الإسلام جملة بعد أن يفهموه ويعوا مبادئه وأركانه العامة. وكان ذلك مقدمة ليتقبلوا كل تشريعات الإسلام وأحكامه وقوانينه وفروضه ويرفضوا كل قوانين الجاهلية والشرك.

لقد صممت خاتمة الرسالات الرائعة هذه من قبل العلي القدير، ليؤمن من يؤمن بها عن وعي وإدراك ومعرفة، ولم تكن مجرد تعاليم أخلاقية أو طقوس عبادية تؤدى في حضرة الكهنة أو رجال الدين المحترفين، وإنما هي نظام حياتي متكامل يقوم على أداء سلوكي متصل ومستمر؛ وإذ أن المؤمن بها يعلم أن المراقب الذي لا تخفى عليه خافية هو الله الواسع العليم نفسه، فإنه يجعل من نفسه مراقباً آخر عليها كي لا ينزلق أو ينحرف أو يخطأ. إن حسابه الأول والأخير مع الله، وإن انتماءه لدينه انتماء حقيقي لا رياء فيه ولا مصانعة أو مداهنة أو نفاق.

كان رسول الله ﷺ على تماس دقيق وعلاقة وثيقة بأولئك الذين أراد أن يكوّن منهم تلك الطليعة، وقد حاول هو شخصياً أن يتسلم زمام قيادة المجتمع ويدير أموره وينظم شؤونه، وحاول أن يضفي على علاقته بأفراده لمسة شخصية تشعرهم أنه معهم دائماً، وأنهم قادرون على إكمال الشوط الذي بدأه بنفس الأسلوب الذي أراده إذا ما اختفى من الساحة وتوفي. وكانت هذه اللمسة الشخصية تشعر كل فرد من المسلمين بأنه قريب منه ﷺ وتجعله يتأثر به تأثراً مباشراً، وتجعل الأمة تصل درجة من الحصانة والعصمة تضعها بعيداً عن الخطأ والانزلاق والوقوع في الفتن.

وطبيعي أن مهمة تربية الأمة لم تكن لتتم من قبل رسول الله ﷺ بتلك الكفاءة الفريدة لو لم يسيطر عليها ويهيمن على مشاعرها تلك الهيمنة الأبوية الحبيبة القريبة.

وكانت مهمة تربية الأمة، التي لا يزال أغلب أفرادها يعيشون في ظل عقلية تحمل وجهين، جاهلي وإسلامي، إذ لم تختف القيم الجاهلية منها تماماً، ولم تتح الفرصة لمن التحق بالإسلام من الطلقاء في عام الفتح وقبيله أن ينبذ عقليته الجاهلية، وربما كان بعضهم لا يريد ذلك وأحنى رأسه أمام الموجة الإسلامية الكاسحة.. مهمة

شاقة، ما كانت لتتم دون الاتحاد الشعوري المتعاطف بين الصفوة من أبنائها وقائدهم وإمامهم رسول الله ﷺ، وما كانت مهمة يمكن إنجازها خلال فترة وجيزة، هي البقية الباقية من حياة الرسول ﷺ بل كانت مهمة تستدعي مدة أطول قد تستوعب حياة أجيال بأكملها تكفي لتنقية الجو الإسلامي من كل رواسب الجاهلية وغبارها وعبثها، ومن غير المعقول أن يكون مَن حمل من تلك الرواسب قدراً كبيراً، بقادر على إنجاز وإكمال مهمة الرسول ﷺ بنفس القدر الذي يستطيعه من تبرأ منها ومن لم توجد في نفسه أصلاً.

لقد تربى أمير المؤمنين عليه السلام في حجر الرسول ﷺ منذ طفولته المبكرة، ولم يحمل أية رواسب أو تصورات جاهلية، فقد كان أول من آمن به وفهم رسالته ووعاها وعاش كل أحداث الرسالة وهمومها كما لم يعشها أو يعيها أحد غيره، وشارك بصنع الأحداث التي وقعت وكانت لها أهمية كبيرة في حياة المسلمين، وكان له حضور دائم وفاعل في كل حدث وقضية مهمة، وقد جعلته قدراته الاستثنائية لفهم الإسلام وشعوره العالي بالمسؤولية يصل درجة العصمة، وكان في كل أموره مسدداً من الله، ولم ير سوى الإسلام وحده جديراً بأن يسيطر ويسود ويهيمن على هذه الحياة. لقد هيمن رسول الله ﷺ عليه بشكل تام كما هيمن عليه القرآن الكريم وتأثر بهما بشكل كليّ لا مجال معه لتراجع أو مساومة أو تنازل[1].

---

(١) وقد قال هو عليه السلام مخاطباً جماعة من المسلمين: (... وقد علمتم موضعي من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره، وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفُني في فراشه، ويُمِسُّني جَسَدَه، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به ـ صلى الله عليه وآله ـ من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهار. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه، ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشمُّ ريح النبوة.
ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه ـ صلى الله عليه وآله ـ فقلتُ: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيِسَ من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير، وإنك لعلى خير). نهج البلاغة ص ٣٠٠ - ٣٠١.

وكان هو المؤهل الوحيد لحمل الرسالة حملًا واعياً صحيحاً، وإكمال الشوط وفق رؤى وتصورات رسول الله ﷺ ليكمل مهمته في إعداد تلك الطليعة العقائدية من الأمة التي تستطيع شدّها للإسلام وجعلها تنظر إليه نفس نظرة الولاء الصادق التي تنظر بها هي إليه وتمحضه نفس الحب والولاء.

وقد كانت مهمة الأئمة عليهم السلام السير في هذا المضمار. ومع أنهم لم يتسلموا أي منصب فعلي لقيادة الأمة، إلا أنهم لم ينقطعوا عن مهمة هذه القيادة وإعداد الأمة لفهم مسؤولياتها وإدراك واجباتها على ضوء الإسلام.

(.. إن الأئمة عليهم السلام بالرغم من التآمر على إقصائهم عن مجال الحكم، كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ عل الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً. فكلما كان الانحراف يطغى ويشتد وينذر بخطر التردي إلى الهاوية، كان الأئمة يتخذون التدابير اللازمة ضد ذلك. وكلما وقعت التجربة الإسلامية أو العقيدة في محنة أو مشكلة، وعجزت الزعامات المنحرفة عن علاجها بحكم عدم كفاءتها، بادر الأئمة إلى تقديم الحل ووقاية الأمة من الأخطار التي كانت تهددها. وبكلمة مختصرة، كان الأئمة يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي، ويحرصون على أن لا يهبط إلى درجة تشكل خطراً ماحقاً، وهذا يعني ممارستهم جميعاً دوراً إيجابياً فعالًا في حماية العقيدة وتبني مصالح الرسالة والأمة..)[1].

وتمثل موقف الأئمة (في تعرية الزعامة المنحرفة إذا أصبحت تشكل خطراً ماحقاً ولو على طريق الاصطدام المسلح بها، والشهادة في سبيل كشف زيفها وشل تخطيطها كما صنع الإمام الحسين مع يزيد..

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة أيضاً في تلك المعارضة القوية العميقة التي كان الأئمة يواجهون بها الزعامات المنحرفة، بإرادة صلبة لا تلين، وقوة نفسية صامدة لا تتزعزع، فإن هذه المعارضة بالرغم من أنها اتخذت مظهر السلبية والمقاطعة في أكثر

(١) دور الأئمة ١: - ١٢ وترينا الدراسات العديدة وفي مقدمتها دراسات الشهيد محمد باقر الصدر (قده) وحدة مواقف الأئمة عليهم السلام في هذا المضمار وفي المضامير الأخرى وعملهم في إيقاف الانحراف ومنعه مع أن أساليبهم اختلفت وفقاً لتغيير الظروف والأحداث.

الأحايين، بدلاً من مظهر الاصطدام الإيجابي والمقابلة المسلحة، غير أن المعارضة حتى بصيغتها السلبية كانت عملاً إيجابياً عظيماً في حماية الإسلام والحفاظ على مثله وقيمه.

وتمثل الدور الإيجابي للأئمة في تموين الأمة العقائدية بشخصيتها الرسالية والفكرية من ناحية، ومقاومة التيارات الفكرية التي تشكل خطراً على الرسالة وضربها في بدايات تكونها من ناحية أخرى..)[1].

لقد برز الدور القيادي للأئمة عليهم السلام بشكل واضح على أفراد عديدين من أبناء الأمة وجعلهم يستجيبون للرسالة الإسلامية استجابة واعية وجعلهم طليعة لجماهير إسلامية أوسع عدداً وأوضح رؤية.

ولذلك كان الحكام يرون في الأئمة وقد استلموا زمام القيادة الشعبية الفعلية خطراً عليهم، وكان لا بد من شن حرب مضادة يتزعمها هؤلاء الحكام للحفاظ على عروشهم.. وقد فعلوا ذلك، ورأينا كيف شنّت حرب ظالمة على الأئمة عليهم السلام وكيف حاول أولئك الحكام منعهم من الاتصال بالأمة والتأثير فيها، إلا أنهم فشلوا في ذلك رغم جهودهم الحثيثة ولم يستطيعوا منع الأمة من الاستجابة لهم والسير خلفهم، وبقي الأئمة عليهم السلام - في نطاق مهمتهم الواسعة للحفاظ على الإسلام ومنه الانحراف المتزايد - يسعون باستمرار لتكوين الطليعة العقائدية التي تملك قدراً من الفهم والاستيعاب والتصور يمكّنها من حماية الإسلام والأمة.

كان تشكيل فصائل جديدة من هذه الطلائع، الضمانة الوحيدة لتجنيب الأمة خطر السقوط والإنهيار وإبقائها على درجة كبيرة من الانتباه والوعي وتحصينها ضد الانحراف الذي قد تنجرف إليه بفعل مقصود مخطط له وتكتوي بناره وشروره.

(.. إن الأئمة لم يكونوا يرون الظهور بالسيف والانتصار المسلح آنياً كافياً لإقامة دعائم الحكم الصالح على يد الإمام. إن إقامة هذا الحكم وترسيخه لا يتوقف في نظرهم على مجرد تهيئة حملة عسكرية، بل يتوقف قبل ذلك على إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته إيماناً مطلقاً، ويعي أهدافه الكبيرة ويدعم تخطيطه في مجال الحكم ويحرس ما يحققه للأمة من مكاسب.

(١) المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ - ١٥.

وعلى هذا الأساس استلم أمير المؤمنين زمام الحكم في وقت توفر فيه ذلك الجيش العقائدي الواعي متمثلًا في الصفوة من المهاجرين والأنصار والتابعين من أصحابه رضي الله عنهم. .)[1].

وكما عمل رسول الله ﷺ على ربط الكتلة المؤمنة به شخصياً وجعلها تشعر أنها تنتمي إليه بشكل خاص بغض النظر عن نسبها أو انتمائها القبلي أو العرقي، وحاول تربيتها وإعدادها لتقوم بنشر الرسالة وعدم السماح للقيم الجاهلية بالعودة والانتشار ولو بشكل جديد مموّه، فإن مهمة الأئمة عليهم السلام أخذت نفس هذا النمط فيما بعد.

وقد رأينا إقدام آل بيت الرسالة ممن رافقوا الحسين عليه السلام إلى الكوفة، وكيف اندفعوا دون تردد أو تحفظ عندما رأوا إمامهم وقدوتهم ومربّيهم يندفع للموت عندما رأى أنه الطريق الوحيد لإيقاف الانحراف القوي المتسارع، وقد ظلوا على نفس الدرجة من الحماس منذ بداية مسيرهم وحتى استشهادهم في ساحة المعركة. . كما رأينا كيف أن مجموعة من أصحابه، رغم أن بعضهم لم يكن على علاقة شخصية مباشرة به من قبل، قد آمنت بصحة توجهاته وضرورة ثورته في ذلك الوقت بالذات وتأثرت به إلى الحد الذي جعلها لا تتردد هي أيضاً عن المضي معه إلى النهاية.

وقد فعل آخرون فعلهم بعد ذلك؛ ساروا على نفس الطريقة، مع أنهم لم يروه، كما سار على نفس طريق الرسول الكريم ﷺ أناس لم يروه من قبل أيضاً.

لقد أفرزت مسيرة الحسين عليه السلام وثورته بوجه الحكم الأموي السائر نحو الفرعونية، مجموعة من أبناء الأمة، منحت ولاءها له، على مر العصور، دون تحفظ أو تردد، بعد أن أدركت أن مسيره كان من أجل الإسلام ومن أجل الأمة، وأنه لم يسعَ لتحقيق أية منافع شخصية، وأنه على العكس من ذلك عرّض نفسه وعائلته لأكبر هجمة شرسة قدّر أن يشهدها المسلمون في تاريخهم بسبب موقفه المبدئي المعلن ذاك وبسبب مواجهته الحاسمة لدولة الظلم.

وكانت تلك الكتلة المؤمنة، وقد أعلنت تشيّعها له، قد قصدت بذلك إعلان تشيّعها لرسول الله ﷺ وللرسالة الكريمة المبرأة من التحريف والغش والدجل والتزوير.

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢.

ولا نحسب أن أولئك الذين تشيّعوا وانحازوا لآل البيت ﷺ طواعية وعن وعي، واختاروا أن يسيروا على درب رسول الله ﷺ والأئمة ﷺ، هم نفس بعض أولئك الذين وجدوا أنفسهم ينحدرون بالنسب إلى أولئك ويتبنون عقيدتهم بالظاهر، إلا أنهم قد جرفوا بنفس تيارات الانحراف التي جرفت أعداداً هائلة من المسلمين الآخرين ممن هم من غير الشيعة، في سياق الحملة المنظمة التي تشن على الإسلام من قبل أعدائه المتمرسين بالعداوة والشر، والتي تستهدف كل طوائف المسلمين دون تفريق بينهم في هذا المجال.

لم يسعَ الأئمة ﷺ سعيَ غيرهم للوصول إلى السلطة من خلال أجواء تآمرية أو حيل سياسية كما فعل العباسيون أو غيرهم[1]، ولم يريدوا أن تتبعهم فئة محدودة من الأمة أو تنصرهم لكي يفوزوا بالسلطة والحكم، وإنما أرادوا الأمة كلها أن تتبعهم وتسير خلفهم مقتدية بهم.

الأئمة ﷺ هم أبناء رسول الله ﷺ ونتاج دعوته وتربيته وإعداده والصفوة المختارة المؤهلة لحمل رسالته حملًا واعياً يتصف بأعلى قدر من المسؤولية، ولذا فمن غير المعقول أن يتجهوا إلى شريحة واحدة من الأمة أو طائفة منها لاستمالتها دون سواها لتدين لهم بالولاء الشخصي المجرد لتحقيق منافع أو مكاسب شخصية دون النظر إلى مصلحة الإسلام ومصلحة الأمة عموماً، وذلك اتهام أطلقه خصومهم لصرف الأنظار عن القيادات الفرعونية التي لجأت إلى شتى الأساليب للاستحواذ على الملك وعرضت القضية على جماهير المسلمين كقضية منافسة بين أبناء (الصفوة) من قريش، فاز فيها هذا (الشريف) بينما فشل منافسوه الآخرون.

---

(١) وهو ما جعل العديدين من الكتاب يشيدون بالعباسيين لأنهم نجحوا بالوصول إلى السلطة بأساليبهم المعروفة ـ وقد تحدثنا عنها في هذا الكتاب ـ ولو أنهم فشلوا لكانت حصتهم من اللوم والتقريع من حيل هؤلاء الكتاب حصة لا بأس بها.. وننقل نصاً لأحدهم هنا: (.. هنا نجد حركة، أو قل ثورة ناجحة، وهي من أخصب التجارب.. وتدل خطة العباسيين على ذكاء وخبرة بالأمور السياسية والاجتماعية ومعرفة عميقة بنفسية الناس..) ـ محمد سليمان العبدة/ حركة النفس الزكية ـ دار الأرقم ـ الكويت ط ١ ـ ١٤٠٤هـ ص ٤٥.. وكأن الكاتب يناقش هنا حركة انقلابية عادية لا علاقة لها بالإسلام وعقيدته وقيمه العليا، ويناقشها على هذا الأساس..

وحسبنا أن نعيد مقولة معاوية بهذا الشأن ـ والتي تطرقنا إليها وإلى دوافعها في هذا الكتاب: إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فإبني أحق من أبنائهم.

وهي مقولة ماكرة تريد أن تؤكد أن الأمر أمر ملك، وأن هؤلاء (الصفوة) من آل عبد مناف هم أصحاب الحق فيه فقط. وأن أكثرهم جدارة له هو ابن صاحب العرش الحالي معاوية.. وهكذا سعى سعيه للاستحواذ عليه وصرفه لابنه متناسياً ومتجاهلاً كل ما جاء به الإسلام بخصوص الخلافة، ولم ير أنه قد تمادى ما دام قد وصل هو نفسه إلى السلطة، وهو أعلم الناس بنفسه ومدى ابتعاده عن الإسلام.

حاول الأئمة من أهل البيت طوال حياتهم استمالة الأمة كلها إلى جانب الإسلام الذين جسّدوه هم بسلوكهم وأفعالهم، وكان ذلك يبدو الهدف الوحيد الذي عملوا له بمثابرة وجدّ استغرقا كل لحظة بل كل دقيقة من تلك الحياة الحافلة، وقد أوضحوا مواصفات الكتلة المؤمنة التي تمنّوا أن تبرز بين صفوف الأمة، ومَن أرادوهم أن يكونوا شيعة لهم ولرسول الله ﷺ والإسلام.. وكانت مواصفاتها نفس تلك التي أرادها رسول الله ﷺ والقرآن للمسلمين بشكل عام(١).

---

(١) (في الكافي وأمالي الصدوق عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال الباقر عليه السلام: أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه. وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والإنابة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام، وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس... لا تذهبن بذلك المذاهب، حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعالاً. فلو قال: إني أحب رسول الله ﷺ، فرسول الله خير من علي صلى الله عليهما، وعلى آلهما وسلم ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبّه شيئاً، فاتقوا واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله عز وجل أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر فوالله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة. وما معنا براءة من النار. وما لنا على الله من حجة. من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي. ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، ولا تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع.
وعن الرضا عليه السلام: ... شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويحجون البيت الحرام، ويصومون شهر رمضان، ويوالون أهل البيت ويتبرؤون من أعدائهم..
وعن أمير المؤمنين عليه السلام: اختبروا شيعتي بخصلتين، فإن كانتا فيهم فهم شيعتي: محافظتهم على أوقات الصلوات، ومواساتهم مع إخوانهم المؤمنين بالمال. وإن لم تكونا فيهم فأعزب، ثم أعزب..). =

وإذاً فإن هذه الطليعة العقائدية لم يُرد لها أن تبرز من بين فئة محدودة من الأمة بعينها، بل من الأمة كلها.. بل كل الأمة تكون طليعة عقائدية ممتازة لمن سيأتي بعدها من الأمم إن أمكن ذلك. وقد رأينا أن أعداداً كبيرة ممن ناصروا الأئمة أو ناصروا الثوار من آل محمد، لم يكونوا من شيعتهم من قبل، وقد ساندوهم ووقفوا خلفهم عندما رأوا عدالة قضيتهم وأنهم على حق وأن المثل الأعلى للمسلم الغيور على الإسلام حقاً والذي يتمتع بأعلى قدر من المسؤولية، يتمثل بهم عليهم السلام قبل غيرهم.

إن شيعة علي أو الحسين أو غيرهم من الأئمة ـ عليهم السلام ـ هم من يناصرون الإسلام وينتصرون له ويقفون إلى جانبه ويضحون من أجله، إسلام

= شجرة طوبى/ الشيخ محمد مهدي المازندراني الحائري/ المطبعة العلمية/ النجف الأشرف ١٣٦٩هـ ص ٣-٦.

(وعن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قال: امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم، كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها..

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما شيعة جعفر من عفّ بطنه وفرجه، واشتد جهاده، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، وخاف عقابه. فإذا رأيت أولئك، فأولئك شيعة جعفر.

وعن محمد بن علي عليه السلام: إنما كانت شيعة علي المتباذلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتزاورون لإحياء أمرنا. إن غضبوا لم يظلموا. وإن رضوا لم يسرفوا. بركة لمن جاوروا. سلم لمن خالطوا..).

وعن أبي جعفر عليه السلام قول: إنما شيعة علي عليه السلام الشاحبون الناحلون، الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم. متغيرة ألوانهم، مصفرة وجوههم. إذا جنّهم الليل اتخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوا الأرض بجباههم، كثير سجودهم، كثيرة دموعهم، كثير دعاؤهم، كثير بكاؤهم، يفرح الناس وهم يحزنون..) ـ الصدوق/ كتاب الخصال/ دار التعارف ـ مكتبة الصدوق/ ١٣٦٨هـ ج ١ ص ١٠٣ - ٢٩٦ ج ٢ ص ٣٩٧ - ٤٤٤.

والصفات التي يتطلبها أئمة أهل البيت عليهم السلام من الشيعة من شأنها أن تجعلهم يتمتعون بأعلى قدر من المسؤولية والوعي والفهم لطبيعة هذا الدين العظيم والالتزام بحدوده وأحكامه وأن لا يتكلوا على مجرد الولاء والحب المجردين.. إذا ما جدوى أن تدعي حب شخص وموالاته وأنت تسير خلاف سيرته وترفض منهجه في الحياة وتعمل ضد رغباته وأهدافه، بل وتشوّه الصور الجميلة التي يحاول أن يظهر بها نفسه ومنهجه في الحياة.. ما جدوى أن تدعي حب الرسول صلى الله عليه وآله وأنت ترفض الإسلام..!

محمد ﷺ الصافي النقي، لا إسلام معاوية ويزيد وعبد الملك والوليد والمنصور والمتوكل وأشباههم. .

لا يفهمنّ أحد أن تولّي عليّاً والحسين عليه السلام حكراً على جماعة محدودة من المسلمين، كما لم يكن تولّي رسول الله ﷺ حكراً على جماعة محدودة منهم أيضاً. . . فالإسلام جاء عن طريق رسول الله ﷺ، وهؤلاء وقفوا حياتهم في سبيله وفي سبيل كل المسلمين لا يفرّقون بين أحد منهم، ويتمنون أن يكونوا جميعاً تحت خيمته الكبيرة، لا تحت خيام الطغاة الصغيرة الموبوءة.

ولا يفهمنَّ أحد أن ثورة الحسين كانت من أجل جماعة محدودة من المسلمين، كما لم تكن من أجل تحقيق هدف خاص، يتعلق بآل البيت أنفسهم. . وقد رأينا ـ بما لا يقبل الشك ـ أنها قامت من أجل المسلمين كلهم، في كل زمان ومكان، وأنها الأمر الوحيد الذي كان كفيلًا بانتشالهم من وهدة الانحراف وخطر الشرك والطواغيت، ولا عجب أن رأينا رسول الله ﷺ يعلن انتماء الحسين له، وهو من أرسله الله بهذا الدين القويم، وانتماءه للحسين، الذي بعث هذا الدين ثانية بعد أن تعرض لأخطر هجمة كادت تفنيه وتمحوه(١). . . فرابطة النسب الوثيقة عززت منها وقوّتها رابطة الإسلام الذي تفانى كلاهما لتثبيته وتمكينه في الأرض بعيداً عن سلطان الطواغيت والشرك.

وأخيراً. . .

لو نظرنا بمنظار الإسلام ومقاييسه، وتساءلنا: هل انتصر الإمام الحسين؟ لكان الجواب حتماً: نعم. انتصر، لأن الإسلام عاش وانتصر، وظل قائماً، يرقب المسلمون اليومَ الذي يسود فيه ويحكم، ولم يقطعوا هذا الأمل في أي يوم من الأيام، ولم يندثر، كما كان مقرراً له، لو أن الحسين عليه السلام لم يوقظ الأمة من سباتها ويقيمها من كبوتها، ويشخص أمام ضميرها دائماً كمعترض أبدي وشاجب ومحارب للظلم والانحراف والشرك والطاغوت. .

ويجب أن ننبه هنا إلى أننا نبتعد عن المقاييس البشرية المحدودة الصغيرة، ونتعامل مع المقياس الإلهي الكبير العام الشامل الذي يضعنا أمام تجربة عظيمة ـ هي

(١) وذلك في حديثه الذي خص به الحسين عليه السلام: «حسين مني وأنا من حسين».

تجربة الإسلام الكاملة المنزلة من الله عز وجل ـ وضمان نجاحنا فيها هو إثبات انحيازنا الواعي الإرادي الحر لهذا الدين وهذه التجربة الكاملة التي تمتد عبر العصور وتتجاوز الأمكنة والحدود..

لقد انتصر الحسين عليه السلام للإسلام، وانتصر الإسلام، وانتشر وعاش على مستوى العقيدة والمبادىء رغم عبث العابثين والأعداء، ولا يزال المستقبل له، وله وحده، ففيه من مقومات البقاء والحياة ما يجعله بمأمن من السقوط والاندثار... وهو الذي جعله متمكناً من النفوس التي تذهب إلى حد الاستشهاد في سبيله ليظل حياً قائماً، رغم الأعداء الألداء المنظمين الذين أعدّوا أسلحتهم دائماً للقضاء عليه، ومنهم من انتموا إليه في الظاهر وعملوا على تهديمه والقضاء عليه في الباطن وإن ادعوا الحرص عليه والتباكي من أجله.

ألم يحفل تاريخنا بنماذج معروفة من هؤلاء الأعداء الذين كان ضررهم على الإسلام والمسلمين أشد من ضرر أعدائه التقليديين المكشوفين؟

وما كان ليصمد لهم لو لم تكن فيه كل مقومات الحياة الطبيعية، ولو لم يتمكن من النفوس التي عرفت أن فيه وفيه وحده مستقبلها وحياتها وسعادتها.. بل ومستقبل وحياة وسعادة البشرية جمعاء.

لقد صمد الحسين عليه السلام وساد لإنجاز مهمته دون تردد، ولم ينهزم أمام المخاوف البشرية العادية وقد لوّح بها العديدون أمامه بصورة تهديدات وتحذيرات مختلفة طيلة مسيره من المدينة إلى الكوفة مروراً بمكة كما رأينا، مذكّرينه بالعنف الأموي وما يمكن أن يحل به إذا ما بقي مصراً على مواجهته.

لقد انتصر على تلك المخاوف، وأثبت للأمة أن التضحية بالحياة لا تشكل خسارة كبيرة أمام النتائج المتوقعة من ثورته، بل أن حفنة قليلة متبقية من سِنيّ العمر لا تعد شيئاً ذا بال أمام ما سوف يتحقق على صعيد البناء العقائدي في نفوس أبناء الأمة المسلمة.

وهكذا، فليس لنا أن نناقش قضية انتصار الإمام الحسين عليه السلام وثورته، من وجهة نظر غير إسلامية قد لا ترى ما يراه المسلمون، فكلّ يستعمل أدواته الخاصة وطرائقه في الدراسة والنظر، وعلينا أن لا نستعير أدوات غيرنا وننظر بعيونهم ونطل على العالم من خلال عقولهم، قبل أن نتأكد من صلاحية وسلامة الأدوات التي

تخصنا، وليس فيها ما يثبت عدم قدرتها على تلبية حاجاتنا وإجابة مطالبينا. بل لعل أولئك الذين لم يعرفوها أو يكتشفوها بعد، هم الأكثر عجزاً عن فهم قضايانا وفهم هذا الدين. . . وإن كان هذا أمر واقعاً اليوم، فما نظنه سيظل هكذا في المستقبل، بعد أن تكون البشرية أكثر نضجاً ووعياً وانفتاحاً، وبعد أن تتخلص من سيطرة التيارات المضللة التي تعبث وتتلاعب به، وبعد أن تطل على الإسلام إطلالة بعيدة عن التعصب الأعمى والمواقف المسبقة المتجنّية والتكريس لمصالح أقلية مستغلة تريد أن تفرض سيادتها دائماً على هذه الأرض.

(. . . إن وعد الله قاطع جازم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [1]. . . بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذباً مطروداً، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد. فأين وعد الله بالنصر لهم في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير. إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل، فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها، فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.

إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها. . أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ

---

(١) غافر ٥١ وتكملتها ﴿. . . وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾.

أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار. كما أنه انتصرة مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب!

والحسين ـ رضوان الله عليه ـ وهو يستشهد، في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة، وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد على الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين، من المسلمين، وكثير من غير المسلمين!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال. .)[١].

ولن نذكر ـ في هذه الدراسة ـ تخرصات المتخرصين والأعداء وادعاءاتهم وأباطيلهم بشأن هذه الثورة العظيمة، فهؤلاء إن كانوا من غير المسلمين أو انتموا إليهم إسمياً بحكم انحدارهم من أهل من المسلمين، فإنهم شأنهم، وإن كانوا من المسلمين فأنهم يضعون أنفسهم دون فهم أو وعي مع الطواغيت وأعداء الإسلام ويقدمون لهم خدمات كبيرة تنقلب ضدهم شخصياً فيما بعد وضد الجماهير الواسعة من أبناء الأمة الآن وفي كل وقت. فالإسلام كله ومعاركه وثورات الصفوة من أبنائه وفي مقدمتها هذه الثورة الرائدة لهم أيضاً، كما أنها لغيرهم من المسلمين، وإذ انتصر فيها الحسين على الظلم والانحراف وأثبت قدرته مواجهتهما والتصدي لهما فإنه أثبت بذلك قدرة الأمة كلها على ذلك وأثبت امتلاكها مقومات تلك المواجهة وذلك التصدي، وإن اختلفت وتعددت أشكال الظلم والانحراف واختلف الظالمون واختلفت الأمكنة والأزمنة.

---

(١) سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ دار العلم للطباعة والنشر ـ جدة ط ١٢ - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م م ٥ ص ٣٠٨٥ - ٣٠٨٦.

وبعد

فهل يحسبنَّ أحد أن تلك الثورة كانت أو ستكون مبعث سرور وسعادة لحكام السوء وطواغيت الأمة وسرّاق الشعوب، وقد كانت مصدراً لكل ثورات المسلمين ضدهم على امتداد التاريخ الإسلامي، بل أنها كانت مصدر كل ثورة حملت أهدافاً وشعارات نبيلة في العالم. .؟ وهل يسرهم أن ثورة بتلك القوة، وذلك المضاء، وقد صدّرها الحسين عليه السلام لكل المسلمين، في كل مكان، لإقامة دولة الإسلام، ستكون موضع ترحيب من قبل كل المسلمين. .؟

ألسنا نرى ـ ونحن شهود عيان ـ كيف حوربت الثورة الإسلامية في إيران ـ وهي امتداد لها، وفرع كبيرة منها ـ بحجج مختلفة، منها أن الثوار وعدوا بتصدير ثورتهم إلى خارج إيران، وهذا ما اعتبره أعداء الإسلام تدخلًا في شؤون ممالكهم وامبراطورياتهم التي استولوا على مقدراتها بالقوة والإكراه وبكل الوسائل غير المشروعة، مع أن الثورة قد صدّرت فعلًا وأدت رسالتها منذ اليوم الأول لقيام الجمهورية الإسلامية، دون محاولة مباشرة أو غير مباشرة للتدخل في شؤون أي بلد؛ فالإسلام أصبحت له الآن الحاكمية في رقعة مهمة من الوطن الإسلامي، بعد أن فقد المسلمون الأمل في ذلك طيلة مئات السنين، وأصبح من الممكن أن تعاد التجربة في كل مكان من هذا الوطن الكبير بعد أن كادت تكون شبه مستحيلة. وهذا هو الذي أرعب أعداء الإسلام ومناوئيه، وجعلهم يستنفرون كل قواهم لمحاربته وقمع الطلائع الواعية من أبنائه، لمنع أية تجربة مماثلة لتلك التجربة الفريدة. .

ولئن أفلتت إيران من قبضتهم، رغم كل الآمال التي أخذوا يعلقونها لاستعادتها ثانية، وضمها إلى ركب عروش الطواغيت، ورغم حملات الشر التي استنفروا لها كلابهم المسعورة في المنطقة، فإن تلك القبضة الجاسية بخناق أبناء الإسلام في العراق والجزائر ومصر وشبه الجزيرة العربية وغيرها من أقطار الإسلام، قبل أن ينظموا صفوفهم، ويوجهوا بدورهم ضربة أخرى إليهم ويقيموا دولة الإسلام في بقعة أخرى. .

وبالتأكيد فإن أهداف أعداء الإسلام هذه لن تنجح، حتى وإن استطاعوا النيلَ من هذه الثورة ـ لا سمح الله ـ فما دامت قد قامت وبقيت قرابة عشرين عاماً تغذّيها وتحرسها دماء أبناء الحسين، في جو مشحون بالعداوة والشر، وهي فترة أطول من فترة حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، فإن الأمل ببقائها واستمرارها سيظل مثلما

ظل الأمل بعودة حكومة الرسول وخلفائه عليهم السلام قائمة كذلك، وسيظل الأمل قائماً بحكم الإسلام في كل أقطاره الأخرى..

ولئن كانوا يخافون الشيعة ويحذرونهم لأنهم لا يسيرون بركان دولة الظلم، أو لأن المطلوب منهم وفق منهج أئمتهم عليهم السلام تلاميذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأبنائه، أن لا يسيروا بركان هذه الدولة وولاة الأمر الذين نصبوا أنفسهم ملوكاً ورؤساء وقادة وخلفاء وأمراء للمؤمنين وما أشبه وأعطوا لأنفسهم من الأسماء والألقاب أكثر مما عرف المسلمون لله ـ عز وجل سبحانه ـ، وأعطوها من الصلاحيات ما اختص به وحده جل وعلا.

ولماذا الخوف من المسلمين الآخرين، ولماذا استنفر (أولياء الأمر) المزيفون كل جهدهم للقضاء عليهم؟ أليس (ولي الأمر) منهم يدّعي أنه ممثل الإسلام وظل الله في الأرض؟ ألا يدعو هؤلاء إلى إقامة حكم الإسلام الذي يدّعي (ولي الأمر) تمثيله؟

لا شك أن السر أصبح مكشوفاً ولم يعد سراً وانكشفت الأقنعة والبراقع عن الوجوه. فالإسلام لا يقبل أن يعيش أبناؤه في ظل دولة الظلم ويرفضها رفضاً قاطعاً.

وتلك كانت وصايا القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه من أهل بيته عليهم السلام والخلص من صحابته رضوان الله عليهم، وسيرتهم تشهد بذلك..

ولئن حصل أن سار في ركابها عدد كبير من وعاظ السلاطين وعلماء السوء المأجورين ومزوري الحديث وواضعيه وفقهاء السوء والمتاجرين بشعارات التفرقة والشتائم، وغيرهم، فإن ذلك الرفض الحاسم لها الذي أعلنه الإمام الحسين عليه السلام قلب كل موازناتها وحساباتها، فقد استطاع أن يوصل صوته المعبّر القوي إلى كل الأمة، لا المتشيعين من أبنائها وحسب، وإن لم تدرِ أعداد كبيرة منهم أن هذا الصوت الذي أثر فيهم وأوقظهم هو صوته.

ولا نحسب أن ذلك يهمه ما دام هو صوت الحق الذي يسمعونه ويعونه ويستجيبون له..

فمعركته في كربلاء لم تنته، وقد امتدت مع امتداد الرقعة الواسعة الفسيحة من الزمان والمكان إلى يوم تمتلىء الأرض قسطاً وعدلًا بعد أن ملئت ظلماً وجوراً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولئن يحقق المسلمون نصراً في كل حين، فإن الحسين عليه السلام يحسب حتماً أنه

هو الذي يحقق هذا النصر، وأنه نتيجة مواقفه وتضحياته الكبيرة، كما أنه نتاج كل التضحيات الكبيرة لشهداء الإسلام والمجاهدين الذين قدّموا كل شيء في سبيل حفظه وصيانته من عبث العابثين والطامعين والأعداء.. وهذا هو الأمر الواقع بمفهوم الإسلام وتصوره.

فما دام قد انتصر للإسلام وتمنى له أن يسود إلى الأبد وبذل دمه في سبيل ذلك، فلا نعتقد أنه كان يرى أن ساحة صغيرة من أرض كربلاء دارت فيها رحى واقعة الطف، قد مكنت أعداءه من التغلب عليه نهائياً رغم أنهم استطاعوا قتله وقتل أصحابه، ولا بد أن جولته في تلك الساحة هي التي مهدت للجولات الأخرى في الساحات الأخرى ومهدت لكل نصر لاحق لا بد أن يتحقق في يوم من الأيام، ولا بد أنه يرى نفسه في تلك الساحات ويرى أنه يقود المسلمين فيها، وسيكون كل نصر يحققونه بفضل دمه النقي الذي طعم به دماء أبناء الأمة على أرض كربلاء ويسقيها لتظل دوحة الجهاد والثورة باسقة لا تستطيع رياح الظلم والانحراف إمالتها أو اقتلاعها.

أليس هو الإسلام، ذلك الدين يقيم وزناً كبيراً للتعاطف النبيل البناء والمشاعر الزاخرة بالحب للمجاهدين والمضحين؟ إن أمنيات صادقة بانتصارهم تجعلك في عدادهم وفي عداد شهدائهم[1].

إن نظرة واعية لثورة الحسين تجعل أعداداً كبيرة من المسلمين تتمنى لو كانت حقاً في صفوف أنصاره في واقعة الطف الذين تغلبوا على المخاوف والأطماع البشرية العادية.

وندرك حقيقة النصر الكبير الذي حققوه في ظل قائدهم العظيم، والذي لم تستطع كل قوى البغي والظلم والانحراف إزالة آثاره رغم محاولاتها الدؤوبة العنيدة.. فمن غير المعقول أن يوجه أعداء الإسلام كل أسلحتهم ضد عدو وهمي لا وجود له أو عدوٍ صغير لا قوة له ولا تأثير.

---

(١) لما أظفر الله أمير المؤمنين عليه السلام بأصحاب الجمل، قال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصركَ الله به على أعدائك. فقال عليه السلام: أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال: فقد شهدنا، ولقد شهدنا، في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعَفُ بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان. نهج البلاغة ص ٥٥.

ومن غير المعقول أن يستهدفوا باللمز والتجريح أحداثه الكبيرة وشخصياته العظيمة دون أن يروا لها أي تأثير في بناء هذه الأمة وتربيتها.

ألم تُوجّه الأقلام المسمومة بأشد النقد إلى نبي الإسلام نفسه ﷺ طيلة قرون عديدة من قبل أناس تستروا بالإسلام[1] وادعوا انتسابهم إليه، وطيلة احتدام أوار الحروب الصليبية وما بعدها، ولا تزال تتوجه بسمومها وسهامها إليه رغم الادعاء بانتهاء تلك الحروب..؟

ولماذا هذه الحفاوة الحميمة بكاتب مثل سليمان رشدي يزور قصصاً وحكايات مضحكة وينسبها لسيد الرسل ﷺ ضارباً عرض الحائط بمشاعر مئات الملايين من المسلمين؟ أكل ذلك حباً بحرية الكلمة والرأي؟ أم لأن الإسلام يرفض كل أشكال الظلم والاستغلال وحياتهم لا تقوم إلا على الظلم والاستغلال؟

وإذ أن الصراع اتخذ مساراً جديداً وأساليب مبتكرة، فقد بدا لأعداء الإسلام أن يلجأوا إلى ما كان قد حقق نتائج باهرة لصالحهم، وهو شن الحرب عليه من الداخل ومن قبل أناس متسترين بالإسلام بل وأكثرهم ادعاء بأنهم أشد الناس حرصاً عليه وتفانياً في سبيله.. وهي خطة ماكرة انطلت على أعداد كبيرة من المسلمين الذين دخلوا غمار صراعات وحروب جانبية بينهم وتركوا عدوهم اللدود مسروراً بما دبره لهم وجعله جديراً أن يكون سيدهم بعد أن سيطر على مقدراتهم وثرواتهم..

إن التعرض بالنقد والشتائم والتجريح لآل الرسول ومواليهم السائرين على خطهم تستهدف الإسلام نفسه والرسول الكريم ﷺ.

ولئن يحسب أعداء الإسلام أنهم منتصرون ما داموا يلحقون الأذى بالمسلمين بهذا الشكل المنقطع النظير ويسلطون عليهم كلابهم المسعورة تنهش لحومهم وتمتص دماءهم، فإنهم يقعون في خطأ كبير، ما دامت أعداد كبيرة من هؤلاء المسلمين ـ وفي

(١) ولا تفوتنا الحملة الواسعة لوضع الأحاديث المزورة أيام الأمويين والتي استهدف قسم كبير منها النيل من الرسول العظيم ﷺ وعرضه أمام الأمة مجرداً من العصمة التي تؤهله لقيادة الأمة قيادة مجردة من الخطأ. وقد أريد من ذلك تبرير الأعمال الشائنة والخارجة عن الإسلام التي قاموا بها عن عمد وسبق إصرار باعتبار أن الرسول ﷺ وهو قدوة المسلمين وإمامهم يخطأ وتفوته أمور كثيرة، فكيف بالجيل الذي لم يعش حياته ولم يشاهده! وهي حملة كشفت تحقيقات علماء المسلمين زيفها وبطلانها.

كل الأقطار الإسلامية ـ يرون أن النصر لهم هم حتماً ما داموا قد نظروا إلى الأمور كلها بوعي الإسلام وبصيرته، وما داموا قد آثروا طريق الجهاد والتضحية ودرب الشهداء البدريين وشهداء الطف الذين نصروا الرسول ﷺ ونصروا الحسين عليه السلام ونصروا الإسلام.

أليس وعد الله قاطع جازم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[1]. . . ؟

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[3].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

ومن أصدق وعداً وقولاً من الله؟

أي حسٍ صاف كان لأمير المؤمنين عليه السلام ليرى بعين البصيرة الصادقة أعداداً من المؤمنين لَم يولدوا بعد يشاركونه معارك تلك الجولة ضد الناكثين في (الجمل). إنه يرى أن الأمة ستظل دائماً مع الإسلام وستتطلع إليه كأمل وحيد لتخليصها من طواغيت الشرك والظلم، وسيرعف الزمان بمئات الآلاف منهم يتصدون لهم بصدورهم ودمائهم.

وإذ أنه أول مدافع عن الإسلام بعد رسول الله ﷺ وأول من أجاب دعوته ولبّى نداءه وسمع صوته فإنه يرى نفسه أمام تلك الطليعة التي ستلبي دعوة الرسول ﷺ تلبية صادقة وتنطلق للدفاع عن الإسلام حتى وإن بعدت الشقة وطال الزمان. .

ما دام هواهم معه وميلهم إليه وإلى الإسلام المحمدي لا الإسلام الأموي المزيف، وسيشهدون معركته تلك وكل معاركه كما شهدها المقاتلون معه والمستشهدون بين يديه. وسيكونون هم الذين يجعلون الأمة تنتبه إلى قوة الإسلام

(١) غافر ٥٢.
(٢) محمد ٧.
(٣) الحج ٤٠.
(٤) الروم ٤٧.

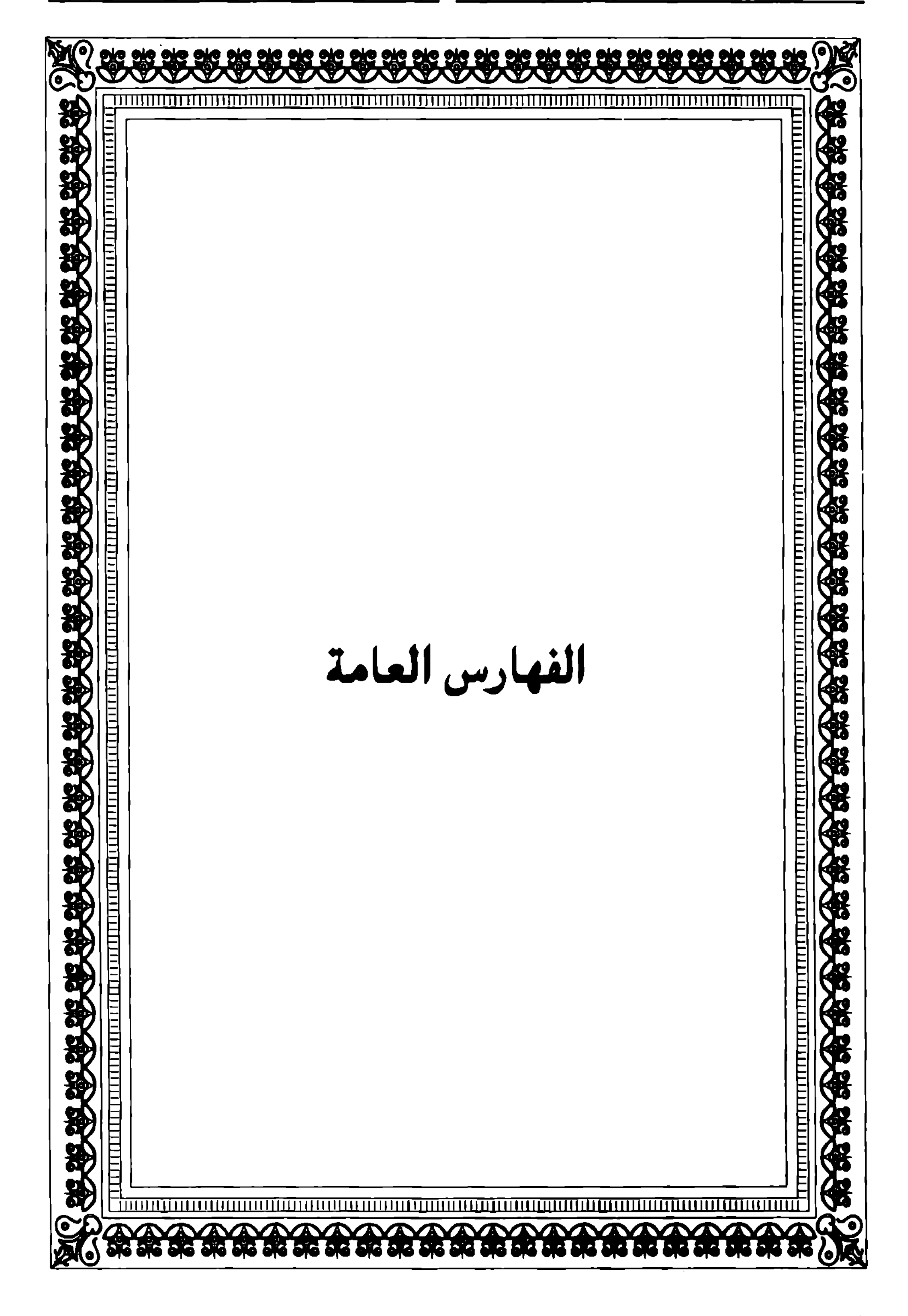
وعظمته وقوتها وعظمتها هي إن تمسكت به وأبدت استعدادها للدفاع عنه والتضحية من أجله . .

أليس هذا هو ما يحصل حقاً كل يوم على امتداد تاريخنا الطويل الحافل؟

ألا نشهد دائماً قوافل المشاركين بمعارك الإسلام التي لا تختلف أهدافها عن المعارك الأولى التي كانت تهدف إلى نصرة الإسلام؟

هل بدر وأحد والجمل وصفين والطف إلا معارك تتجدد كل حين وحتى اليوم وإن اتخذت أسماء أخرى وجرت في مواقع مختلفة؟

وأن تظل المعارك سجالًا ، فحسب الصفوة المؤمنة أنها ترى نفسها منتصرة على أية حال، سواء حققت النصر على أيديها أو أنه سيتم بعد جولة أخرى أو جولات، فهذا هو منطق الإسلام، وهذه هي لغته.



الفهارس العامة

فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الرابع

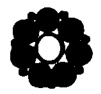
فهرس الجزء الخامس

فهرس الجزء السادس

فهرس الجزء السابع

فهرس الجزء الثامن

فهرس الجزء التاسع



Al-Hussein revolution was not one of the transient revolution which the Islamic arena had witnessed, and it wouldn't have been happened as a result of a private willing in its leader or a personal inclination to acquire a power or reign, but it was a necessity that the nature of events has acquired which was the nation passing and the deteriorations that the nation has exposed to on the hands of the ruling group, and it was the only bloody matter that should have done in order to stop the great deterioration towards the abyss in which the Muslims found themselves indeed in its edge, it was an extension to the first changing Islamic revolution which refuse the pre –Islamic morals and situations, and it came with a new situations, morals and conceptions to draw a total course for life differs from all randomly, confuse and foggy courses because of deterioration from the previous messages line and immaturity which the humanity knew them from long age.

We mustn't, when we deal with this great revolution, take its incidents apart from our
Understanding to the standing of the Al-Imam Al- Hussein and his personality responsibilities and knowledge, for such as these studies will stay imperfect unless we understand the great faction that committed to him and the nature of his perfect view to Islam, and his leading rule in the leadership of the nation and the rising of it whatever the sacrifices and troubles that the ordinary man might not undergo it.

We have –also- to understand the circumstances that preceded the revolution and the formidable differences, but the huge between (the disobedient) on the nation Yazeed and the original one who wanted to this to be his Caliph the messenger.

Undoubtedly, it is a matter, which is agitated to bitterness and ridicules either, the imagination of assuming Yazeed and his counterparts later the function of the Messenger in leading the Islamic nation, other their depriving the power by force from its legitimate owners, and to be on the head of the Islamic government which is

supposed to be suitable scientifically and behaviorism to program all the action and the activities of the Islamic society on the basis of cautious understanding and strict consideration to the Koran and prophetic prescription , the overall Islam , and this is what they are missing certainly as all the evidences and historical news agreed even those partial to their side .

There are no option left to Al-Hussein to take one of them as a substitute of facing the existed deteriorated power, and there is no other choice but to do what he had done and following the way of sacrificing and martyrdom, and offering himself, his family, and his followers as an immolation for the sake of the legitimate Caliphate and for the sake of stopping digression of the Islamic society to wards the abyss, and he didn't care to be the sacrifice, as long as, he will keep with his blood and martyrdom the basis and the rules which make from this Caliphate an existence and persisted before whom didn't have the suitable qualification to assume it .

All of the Muslims have benefited –till now- from the donations of this revolution which returned to them their fixed resolution and vitality and to Islam its life and strength and didn't benefit only those who take the Schism and the course of the Messenger family their sect that it became an existed example to the opponents of the tyrant regimes which took the Yazeedi or Umayyad model as its example to its behaviors and exercises in ruling and life, whatever its sectarian intention be for those opponents.

In one ward: if Al-Hussein didn't resist Yazeed and his openly digression, no one will resist the counterparts of Yazeed.

Al-Hussein revolution has left its impressive nature on the islamic conscience in particular and the humanity in general, when he refused with bravery and steadiness all the foreign falsehoods which he support its attachment in Islam and the calling to what his grand father had called for, the whole Islam with its purity clearance and righteous.

It is for every Islamic movement existed long ago till now, to inspire the spirit of that pioneer revolution which Al-Imam wanted it hitting every living conscience and mind seeing necessity returning to the real Islam, not the transformation which they viewed it in the view of Islam and wearing it a loose clothes of the abstract appearances which are separated from the real life.

It was absent from the minds of those who looked at the revolution from its somatic side which represented by preparing the

governed band a huge army to perish Al-Hussein and his followers and disfigure there bodies and head hunts and roaming with them and burned their comps and rubbing their owns and making an example by their children and women the great examples that we could extract from these rare brave situations and the intrepid attitude by the side of right, with knowledge of the battle result, the unavoidable death, however the human mind get ready to ask about that secret which these triumph souls have passed when it faced the powers of evil and injustice that it was always ready to take hold on it and perish it.

We inquire: how do same of them allow themselves to consider it a defeat with what it has achieved from a triumph to Islam. We don't have to discuss the case of the triumph of Al-Imam from un-Islamic point of view, but we have to use our special tools in estimation and looking

For it will prove to us, certainly, that Al-Hussein has achieved by the messenger while he intended to raise the Gods religion in the earth and facing all the tyrants despite the fact what he had suffered from deception and hurt, and as the previous prophets has triumphed although they were chased, tortured, insulted and thwarted.

The martyr (said cutup) said in famous Tafseer (Fi Dhilal Al-kuran) "and Al_Hussein as he quoted in that great image from one hand, and the dramatic one from other hand, was that a triumph or a defeat? In the apparently image and in a little measure it was a defeat, as a from a pure fact and in a great measure it was a triumph, for there is no martyr has shocked the hearts with love and passion, and the hearts have wished to and agitated with jealous like Al-Hussein equalized in this the Shiite and the non Shiite from Muslims and many from non Muslims

None talked about Al-Hussein that he embarked rashly in a losing adventure for purposes and principles that might not be achieved and they forgot what had the prophet suffered from hurt and dangers, in his unarmed position, except the weapon of belief in front of the arrogant and angry Quraish on that who insult their Gods, strength and power and the possibility of killing him on the hands of those tyrants like Al-Hussein murder that is because he has triumphed in the end and forced his enemies to surrender and if the prophet has killed before accomplish his message and prevailing the religion of God ,perhaps they would say that his calling was no more

than an adventure or caprice , and it would remain the accusations of madness , witchcraft , lying and so on , named till now .

We cant study Al-Hussein revolution apart from the many events and phenomena whish act in converting the Islamic society to what it converged to from remaining behind, ruin and deteriorate it sharply from its message and functions which expected to make it unless those events happened, so presenting them on real and objective bases not partial, assured the answer of many questions about this revolution and its great purposes, functions and consequences which it achieved, and this what we have done in this book, we tried to pay attention to the conjunctures which made the events took their imposed wrong ways which led this revolution to raise in the end , this revolution which always remained existed in the Muslims minds, and which made on awakening , exciting and agitating the souls which got caution , desperation , laziness and indifference when it found before it renunciation living actuality and clashing with the evaluations which might every one respect but they don't place it a practical place in their lives and behaviors.

We tried – also – to answer many questions regarding the Islamic history events and its conjunctures through out studying and analyzing this revolution apart from partial pass ional view, with an explanation to the necessity of its raising and its effect in drawing the ways of important events that follow it, which formed –and still – an important inclinations in the Islamic peoples runway throughout the world, for interacted with the free human conscience, and found a clear echo in this conscience which it might look for ward eagerly to the supreme values which our religion bring,

Our style in searching depends on asking serious question regarding this great revolution and not adopting any prepared situations in any direction even if we calculate it in sake of defending it, and we have studied the real causes and factors which led to its raising, after showing the concept of Caliphate and reign in Islam on the light of Islamic conceit which depends on the Quern and Sauna and on the light of Islamic concepts which we can select from them what could make us realize that the Islamic Caliph-as the martyr Mohammed Baker Alsader state- (It could replace the God, for the trust that God has made the man responsible for in its multiple life exercises, and its responsibility in the presence of him for its absolute slavery to him and its liberation from other slaveries, and obliged applying its rules and laws not to behave in a limited personal context

and acting up to ones opinion separated from the direction of God , but its ruled by right and replace God by applying the right and justice and refusing the oppression and tyranny, and not have the choice between this or that ,)

Thus, Al-Imam Al-Hussein put before Iraqi people during his first message to them before his arrival, the Caliph the Imam functions in order to endeavor to find by them selves and see to what extend the one who had the responsibility being far away from its real line and its substantial content and demands. (By my life the Imam is just a doer in Quran and the taker by justice, the debtor by right and withholding him self on the God) so under these conditions he is doing the Caliph rule, and in getting off of them, that he become a slave to his Caprice, sakes and lusts and he will be getting off of the limits of his responsibilities which God has obliged him with.

Al-Imam has continued in his following speeches and meetings with his followers and with some of the members of the armies sent to fight and kill him or forcing him to surrender to Yazeed reign, by explaining the functions of the one who is facing to the Muslims chiefdom and leadership, and he was always assuring on an important matter that of Gods choosing to his Prophet Mohamed to lead to the humanity on the basis of obligations bonds and divine laws which the Quran has cited and which the Messenger has incarnated in his fauna to be the perpetuate basis to every future Islamic reign.

When he remembered them in the Messenger, he remembered them that this one who they alleged adhering to, behaving on his course and taking of what he had, is this grandfather, beloved and the nearest to him for the cited what the prophet said about him and his brother, Al-Hassan, and that he is the worthiest-for what he has from knowledge in his grandfather religion- in taking on the honor of leadership, for he was brought up in his grandfather and father lap and he was prepared to that, also he wanted to remember them in the Messenger commitment to his notion :adhering in Quran and his relatives so that the notion would not incline or deteriorate from the Caprices, greed's, pharaohnic politics and putting them before their great responsibilities to appose the digression ,(the God has chosen Mohamed on his creatures and he honored him with his message, and selected him to his message then he deadened him, and he has sincere to his worshippers, and announced what he has ordered with,

and we were his family, advocators, tutors, successors and the most meritious in his place from all human beings)
Many of his statements and speeches were concentrating on this important and susceptible context,

We have shown in this book some personalities who played important rules in the Muslims history, and had a great relationship in the course of this revolution and its events.

We have set apart many researches regarding the Islamic society in the reign of Muawiya and the nature of the new structure to this society and the total imagination in the events which happened after the Messenger death until the raise of the revolution since the residence of Al-Hussein in Al-Medina and leaving to Mecca then to Iraq and his great parade and what has accompanied from events and surprises.

Also we have set apart a great space to speak about Muawiya personality who still mysterious in our minds despite the obvious signs to the digression of this personality and its open rebel against the Islam and its inclinations and their following impieties along the Islamic history.

We talked in an independent research about Al-Hussein followers and their situations and brave death with Al-Hussein despite their Knowledge of the expected result to the unequal zed battle between them and their enemy, and we talked about the Muslim woman rule in this battle and we explain in the end the consequences of this revolution on the near and for –reaching and its deep traces on the total events which happened after that, and we mentioned some opinions regarding it, and we discussed it on the light of Islamic concepts, measures and thesis.

We see that the door is wide open to more studies a real comprehension and to draw the clear picture to it and giving it what it deserves from care and attention to refuse the dusk and fog from it and make our people full aware of what happened, to dismiss as a result its fabricated (battles) and to pay attention to the real enemies plans who wanted the plot to it and entrap it, and to leave the partial prepared situations which it obliged to it without caring or contemplation.

The aim of showing some parts of our history carefully to make us know its heroes a real knowledge and to judge on it a fair judgment on the light of their situations to the ones whom we have not to stand by their side and make them as an example in our life

and practices and to ones whom we have to give over from and from his deteriorations in order not to repeat the dramatic events again and become a responsible party after that, so when we turn over the pages of the history and read it a real reading we would find in it all the strict answers on what we are thinking about.

Perhaps we want in these studied to build our present and future on the light of the structural facts not partial to our Islamic past and our delighted symbols, for roots couldn't be cut, and if it cut no tree will grow or a branch blossom or fruit ripen, and these who wanted to prevent us from returning to our history and studied it a serious conscious study, but they want us to stay in the same dilemmas that we put in, and they want our present to be rootless and to be built on a vague basis we could describe it no more than: it has nothing with Islam.

Encyclopedia
Of
Al-Hussein's Revolution

Mohammed Niama Al-Simawi

Dar Al-Mortada
Beirut

First Edition
2001

Dar Al-Mortada
Printing Publishing Distributing
Lebanon Beirut PO: 155/25Ghobiery
Tel:01/840392
E Mail: mortada14@hotmail.com

Introduction on the encyclopedia